المركز القومي للترجمة



الخطاب

تأليف: سارة ميلز

ترجمة: عبد الوهاب علوب

2581



مصطلح "خطاب" بات مصطلحًا شائعًا فى عديد من أفرع المعرفة، منها النظرية النقدية وعلم الاجتماع وعلم اللغة والفلسفة وعلم النفس الاجتماعى وغير ذلك حتى إنه أصبح يُترك دون تعريف، كأنه أصبح من المسلمات. وهو يرد بكثرة فى تحليل النصوص الأدبية وغير الأدبية، ويكثر تداوله فى الإشارة إلى نوع من التعقيد النظرى بصور عويصة ومبهمة أحيانًا. وربما كان له النطاق الأوسع من الدلالات الممكنة بين مصطلحات النظرية الأدبية والثقافية. ومع ذلك فهو المصطلح الأقل تحديدًا فى النصوص النظرية. من ثم فلا بد من اتباع السبل التى نسعى بها للخروج بمعنى للمصطلح. والطريقة الأوضح لتقصى دائرة معانيه البحث فى معجم، ولكن يبدو أن المعانى الأعم للمصطلح ودلالاته النظرية تداخلت والتبست؛ ذلك أن المعانى النظرية تكسوها دائمًا طبقة من معان أعم. ويتباين تاريخ تطور الاستخدام العام للمصطلح؛ فحتى إذا اتبعنا الطريق الأبسط فى تاريخه نرى تحولاً من التركيز على جانب واحد من استعمالاته إلى غيره.

تصميم الغلاف: احمد عبد الحميد

الخطاب

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2581
- الخطاب
- سارة ميلز
- عبد الوهاب علوب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
DISCOURSE: The New Critical Idiom – 2nd edition
By: Sara Mills

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الخطاب

تأليف: سارة ميلز

ترجمة: عبد الوهاب علوب



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ميلز، سارة .
الخطاب / تأليف: سارة ميلز؛ ترجمة: عبد الوهاب علوب.
ط ١ – القاهرة : المركز القومي للترجمة: ٢٠١٦
٢٠٨ ص،٢٤ سم
١ – اللغة : علم
٢- الكتابة : علم
(أ) علوب، عبد الوهاب (مترجم)
(ب) العنوان ٤٠١

رقم الإيداع: ٢١٧١٤/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977-718- 940- 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

* هذا الكتاب صادر ضمن سلسلة The New Critica idiom (المصطلح النقدى الجديد) التى يحررها جون دراكاكيز John Drakakis بجامعة ستيرلنج.
- كل كتاب من كتب السلسلة. يقدم دليلا صغيرا شارحًا لكيفية استخدام (وكذلك الخطأ فى استخدام) المصطلح.
- يعرض نظرة عامة أصلية ومميزة عن طريق نقد أدبى وثقافى رائد.
- يربط المصطلح بالمجال الأوسع للتمثيل الثقافى.
* بناء على الوضوح، وحيوية المناظرات المقدمة بالإضافة إلى اتساع مجال الأمثلة يعد The New Critica idiom مدخلا لا غنى عنه للمواضيع الأساسية فى النقد الأدبى.
* من أهم الكتب الصادرة عن هذه السلسلة:

Autobiography by Linda Anderson
Class by Gary Day
Colonialism/Postcolonialism by Ania Loomba
Culture/Metaculture by Francis Mulhern
Dramatic Monologue by Glennis Byron
Genders by David Glover and Cora Kaplan
Gothic by Fred Botting
Historicism by Paul Hamilton
Humanism by Tony Davies
Ideology by David Hawkes
Interdisciplinarity by Joe Moran
Intertextuality by Graham Allen
Irony by Claire Colebrook
Literature by Peter Widdowson
Metre, Rhythm and Verse Form by Philip Hobsbaum
Modernism by Peter Childs
Myth by Laurence Coupe
Narrative by Paul Cobley
Parody by Simon Dentith
Pastoral by Terry Gifford
Realism by Pam Morris
Romanticism by Aidan Day
Science Fiction by Adam Roberts
Sexuality by Joseph Bristow
Stylistics by Richard Bradford
Subjectivity by Donald E. Hall
The Unconscious by Antony Easthope

تصدير محرر السلسلة

"المصطلح النقدى الحديث" سلسلة كتب تمهيدية تسعى لإثـــراء معجـــم المصطلحات الأدبية لمواكبة التحولات الجذرية التى طرأت علـــى دراســـة الأدب فى العقود الأخيرة من القرن العشرين. والهـــدف تقـــديم توصـــيفات واضحة لمختلف المصطلحات المتداولة والتأريخ لاستعمالاتها المتغيرة.

إن الحالة الراهنة لمبحث الدراسات الأدبية تتسم بجدول واسع حـــول القضايا الأساسية للمصطلح. ويشمل ذلك الحدود التى تفصل الأدبى عن غير الأدبى، ووضع آداب الثقافات المختلفة، والقضايا المتعلقة بعلاقـــة الأدبـــى بسائر الأشكال الثقافية فى سياق الدراسات البينية.

من الواضح أن مجال النقد الأدبى والنظرية الأدبيـــة مجـــال حيـــوي ومتنوع. وهناك الآن حاجة ماسة لكتب مستقلة تتناول المـــصطلحات التـــى تجمع بين وضوح العرض واتساع التطبيق. ويشتمل كل كتاب على إيـــضاح للوجهة التى يرجح أن يسلكها تعريف بعض المصطلحات واتـــساع حـــدود المباحث الأدبية التى احتواها بعض هذه المصطلحات. ويشمل ذلـــك إعـــادة تحديد مواقع المصطلحات فى المجال الأوسع للعرض الثقافى، ويقدم أمثلـــة من مجال السينما ووسائل الإعلام الحديثة إلى جانب أمثلـــة مـــن نـــصوص أدبية شتى.

شكـر وعـرفـان

طالع كل من جون دراكاكيس ولين بيرس وكيــث جــرين مــسودات الكتاب وأبدوا اقتراحات بناءة للغاية. وأود أن أشكر أعضاء هيئــة تــدريس جامعة شيفيلد هالام ومجموعة قراءة النظرية النقدية من طــلاب الدراســات العليا لمناقشاتهم أعمال فوكو والنظرية الثقافية بصورة عامــة. كمــا أديــن بالشكر لكل من جيل ليبيهان وكرستين كريستى وديــردر بيرتــون وجــين سندرولاند وليبورا ويتس إندروتشوفا وإيلين هوبى لمناقشاتهم لما ورد فــى هذا الكتاب من أفكار. وفيما يتعلق بالطبعة الثانية من هــذا الكتــاب أود أن أشكر " مجموعة بحوث الكياسة اللغوية بين الثقافات" و"حلقة شــيفيلد هــالام الدراسية لبحوث علم اللغة" و"مجموعة بحوث الخطاب" وطلاب الماجــستير فى مجال تحليل الخطاب.

(١)

مقدمة

مصطلح "خطاب" بات مصطلحًا شائعًا فى عديد من أفرع المعرفة، منها النظرية النقدية وعلم الاجتماع وعلم اللغة والفلسفة وعلم النفس الاجتماعى وغير ذلك حتى إنه أصبح يُترك دون تعريف كأنه صار من المسلمات. وهو يرد بكثرة فى تحليل النصوص الأدبية وغير الأدبية ويكثر تداوله فى الإشارة إلى نوع من التعقيد النظرى بصور عويصة ومبهمة أحيانًا. وربما كان له النطاق الأوسع من الدلالات الممكنة بين مصطلحات النظرية الأدبية والثقافية. ومع ذلك فهو المصطلح الأقل تحديدًا فى النصوص النظرية. من ثم فلا بد من اتباع السبل التى نسعى بها للخروج بمعنى للمصطلح. والطريقة الأوضح لتقصى دائرة معانيه البحث فى المعجم. ولكن يبدو أن المعانى الأعم للمصطلح ودلالاته النظرية تداخلت والتبست، ذلك أن المعانى النظرية تكسوها دائمًا طبقة من معان أعم. ويتباين تاريخ تطور الاستخدام العام للمصطلح؛ فحتى إذا اتبعنا الطريق الأبسط فى تاريخه نرى تحولاً من التركيز على جانب واحد من استعمالاته إلى غيره.

discourse. ١- تواصل شفاهى؛ حديث، حوار؛ ٢- المعالجة المنهجية لموضوع ما شفاهيًا أو كتابيًا؛ ٣- وِحدة من نص يستخدمها اللغويون لتحليل الظواهر اللغوية التى تشمل أكثر من جملة واحدة؛ ٤- **to discourse**: القدرة على التفكير (مهجور)؛ ٥- **To discourse on/upon**: تحدثَ أو كتبَ عن شَىء؛ ٦- حاورَ؛ ٧- عَزَفَ لحنًا (مهجور). (ق١٤، من اللاتينية الوسيطة. **discursus**: نقاش، من اللاتينية، العَدو جيئةً وذهابًا **discurrere**)

(Collins Concise English Dictionary, 1988)

discourse: 1. حوار (ذو طبيعة رسمية بصفة خاصة؛ التعبير الفصيح والمنظم عن الفكر شفاهةً أو كتابةً، وأيضًا فى صورة موعِظة أو مقالة... إلخ. فقرة أو وِحدة من حديث متصل أو نص مكتوب. (من الإنجليزية الوسيطة: discours، من اللاتينية: الركض فى المكان)

(Longman Dictionary of the English Language, 1984)

هذا المعنى العام للغة الخطاب بارتباطه بالحوار و"العزف" على موضوع ما، أو إلقاء كلمة، يعزى فى جزء منه لتأصيل اللفظ. ولكنه يرجع أيضًا إلى أن هذا هو المعنى الأصلى لمصطلح discours فى الفرنسية، وأصبح منذ ستينيات القرن العشرين لفظًا يرتبط بالفكر الفلسفى الفرنسى ولو أن مصطلحى discours و discourse لا يتطابقان تمام التطابق. فلدينا معجم فرنسى يقول:

discours: (أ) كلام؛ tous ces beaux discours كلام جميل (تحقير)؛ suis moi sans faire de discours: تبديد الوقت فى الكلام؛ (ب) discours direct/indirect: كلام مباشر/غير مباشر (علم اللغة)؛ (جـ) discours: (مقال فلسفى)؛ discours: ثَرْثَرَ (تحقير).

(Collins Robert Concise French Dictionary, 1990)

وفى ستينيات القرن العشرين بدأ المعنى العام للفظ ومعناه الفلسفى ومجموعة جديدة من المعانى الأكثر نظرية فى التشعب قليلاً، إلا أن هذه المعانى الأعم ظلت دائمًا موجودة وتصرّف المعانى النظرية بصور خاصة. وضمن المعانى النظرية يصعب معرفة أين وكيف يمكن تتبع معنى مصطلح discourse. فى بعض الحالات قد تفيد معاجم المعانى النظرية، لكن السياق الدقيق الذى يرد فيه المصطلح له أهمية أكبر فى محاولة تحديد أى من هذه المعانى هو المراد استخدامه. ونسعى فى هذا الكتاب إلى وضع خارطة للسياقات النظرية التى يرد

فيها مصطلح discourse لتضييق دائرة معانيه المحتملة. والقيود التى تفرضها الحدود العلمية الصارمة هى التى تحدد المعانى المختلفة للمصطلح؛ فحين يتحدث اللغويون عن "لغة الخطاب الإعلانى" فهم يشيرون إلى شىء يختلف تمامًا عما يقصده الباحث النفسى الاجتماعى حين يتحدث عن "الخطاب العنصرى".

مع ذلك ففى كل مبحث علمى هناك قدر كبير من السيولة فى نطاق معانى مصطلح discourse. فإذا نظرنا مثلاً فى محاولة ديفيد كريستال تثبيت معنى discourse فى علم اللغة بوضعه فى تضاد مع استخدام مصطلح text (نص):

«يركز تحليل لغة الخطاب على بنية لغة الحديث الطبيعية كما تطالعنا فى "خطابات" كالحوارات واللقاءات والتعليقات والخطب. ويركز تحليل النص على بنية اللغة المكتوبة كما نراها فى "نصوص" كالمقالات والرسائل ولافتات الطرق. إلا أن هذه الفروق ليست صارمة، وهناك استخدامات عديدة أخرى لهذه الجمل الخبرية. وقد يرد مصطلحا discourse و text بصفة خاصة بمعنى أعم يشمل جميع وحدات اللغة وبوظيفة صريحة محددة سواء فى الكلام أو الكتابة. ومن الباحثين من يتحدث عن "خطاب شفاهى أو مكتوب"، ويتحدث غيره عن "نص شفاهى أو مكتوب"»(١).

ومصطلح "خطاب" كأى مصطلح غيره يمكن تعريفه بضده وبما ليس فيه؛ وبالتالى فهو يتعرف فى الغالب باختلافه عن سلسلة من المصطلحات من قبيل نص وجملة وعقيدة. فكل من هذه المصطلحات المقابلة تحدد معنى "خطاب". فيقول جيوفرى ليتش ومايكل شورت مثلاً:

«الخطاب تواصل لغوى يُنظر إليه باعتباره عملية تجرى بين متكلم ومستمع، أو تفاعل شخصى يحدد شكله غرضه الاجتماعى. والنص تواصل لغوى

(1) Crystal, 1987: 116.

(سواء شفاهى أو مكتوب) يُنظر إليه باعتباره رسالة مشفرة فى أداتها السمعية أو البصرية» [١].

ويعلق هاوثورن نفسه على هذا التقابل بين النص والخطاب بقوله:

«يتعامل مايكل ستابز (١٩٨٣) مع النص والخطاب باعتبارهما مترادفين، ولكنه ينوه إلى أن النص قد يكون مكتوبًا فى بعض الاستخدامات، فى حين أن الخطاب شفاهى، وقد يكون النص غير تفاعلى بينما الخطاب تفاعلى ... قد يكون النص قصيرًا أو طويلاً، أما الخطاب فيدل على طول مؤكد، ولا بد للنص أن يتسم بتماسك سطحى، فى حين لا بد للخطاب أن يتميز بتماسك أعمق. وينوه ستابز إلى أن المفكرين غيره يفرقون بين المنشأ النظرى المجرد والإدراك العملى، ولو أن أمثال هؤلاء المفكرين لا يتفقون على أى من هذين يمثله مصطلح "نص"» [٢].

ويضع إميل بنفنيست الخطاب فى مقابل "نسق اللغة" فيقول:

«الجملة، وهى إبداع غير محدود يتنوع بلا حدود، هى روح كلام البشر. ونخلص من ذلك إلى أننا بالجملة نغادر نطاق اللغة بوصفه نسق علامات وندخل عالمًا غيره هو عالم اللغة باعتبارها أداة تواصل، والتعبير عنها الخطاب» [٣].

فهو يعرّف الخطاب بأنه نطاق التواصل، ولكنه يواصل ليضع الخطاب فى مقابلة مع التاريخ (histoire)، وهو فارق تطور بصورة أدق فى الفرنسية عنه فى الإنجليزية وذلك لاستخدام صور شتى من الفعل الماضى لسرد الأحداث فى الفصحى وتقديم الأحداث فى إطار مرجعى منطوق:

---

(١) نقلا عن Howthorn, 1992: 189 .

(2) Howthorn, 1992: 189.
(3) Benveniste, 1971: 110.

«لا بد من فهم الخطاب بمعناه الأشمل: فكل كلمة لها قائل ومستمع، ولدى المستمع نية التأثير فى غيره بصورة ما ... وهى تنويعة من الخطاب الشفاهى من كل نوع من الحوار البسيط إلى الخطاب الرسمى البليغ ... لكن مجموع ما يُكتب هو ما ينتج الخطاب الشفاهى أو ما يستعير أسلوبه فى التعبير وأغراضه من مراسلات ومذكرات ومسرحيات وكتابات تعليمية، أى كل الأنواع الأدبية التى يخاطب فيها المرء (نفسه) بوصفه القائل وينظم ما يقول فى فئته. والفارق الذى نراه بين السرد التاريخى والخطاب لا يتطابق مع الفارق بين اللغة المكتوبة والمنطوقة. والسرد التاريخى حاليًا محجوز للغة المكتوبة، أما الخطاب فمكتوب ومنطوق أيضًا. وينتقل المرء بالفعل بينهما دون عناء. وفى كل مرة يظهر الخطاب وسط السرد التاريخى، أى عندما يعيد المؤرخ صوغ كلام أحد الناس مثلاً أو حين يتدخل بنفسه ليعلق على الأحداث المروية، ننتقل إلى نسق زمنى آخر هو نسق الخطاب» [١].

ونظرًا لأن هذا يبدو كأنه استخدام محدد للمصطلح يؤثر كثير من المفكرين الإبقاء على المصطلح الفرنسى **histoirel discours** على إيراد المقابل الإنجليزى.

ومن المفكرين من يضعون الخطاب فى تضاد مع الإيديولوجيا؛ فيقول روجر فاولر على سبيل المثال:

«"الخطاب" كلام أو كتابة يُنظر إليه من منظور المعتقدات والقيم والمقولات التى يجسدها؛ فهذه المعتقدات والقيم تمثل طريقة للنظر إلى الكون، تنظيم للتجربة أو عرضها – "الإيديولوجيا" – بالمعنى المحايد غير الازدرائى. وأنماط الخطاب تحيل مختلف صور عرض التجربة رموزًا؛ ومصدر صور العرض هذه هو السياق الصريح الذى يرد الخطاب ضمنه» [٢].

---

(١) المصدر نفسه، ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) نقلا عن **Howthorn, 1992: 48** .

وهكذا قد نلجأ فى محاولتنا تعريف الخطاب للإشارة إلى المعاجم أو إلى السياق الصارم للكلام أو إلى المصطلحات المتداولة فى مقابل الخطاب، ولو أن هذه الاستراتيجيات لا يؤدى أى منها إلى معنى بسيط واضح للعبارة؛ بل يساعدنا على الوقوف على سيولة معناه. ولكى نضفى قدرًا من الوضوح على تعريف المصطلح، فإن هذا الإضفاء يهدف إلى إمدادنا بتعريفات مباشرة كما ترد حاليًا فى أفرع المعرفة المختلفة. ومع ذلك فالخطاب كما سنلاحظ لا سبيل لحصره فى معنى بعينه، لأن له تاريخًا معقدًا ويرد فى سياقات شتى لدى المفكرين المختلفين، بل لدى المفكر الواحد أحيانًا. يقول ميشيل فوكو:

«بدلاً من اختزال المعنى المتذبذب للفظ **discourse** أظن أنى أضفت لمعانيه معاملته أحيانًا باعتباره النطاق العام لكل الجمل، أحيانًا باعتباره مجموعة متفردة من الجمل، وفى أحيان أخرى باعتباره عملية منضبطة تفسر عددًا من الجمل» (١).

إذا حللنا هذه الفقرة يمكن أن نميز مجموعة المعانى التى اتخذها مصطلح **discourse** لنفسه فى أعمال فوكو. فأول المعانى التى يضفيها فوكو أشملها: "النطاق العام لكل الجمل"؛ أى إن كل كلام أو نصوص ذات معنى وتأثير فى عالم الواقع تعد خطابًا (٢). وهو تعريف واسع ويقصده فوكو بهذا المعنى بصفة عامة لا سيما فى أعماله البنيوية الأولى التى يتناول فيها مفهوم الخطاب على مستوى نظرى. وقد يكون من المفيد أن نعتبر هذا الاستخدام خاصًا بالخطاب بعامة لا بخطاب أو لغات خطاب بعينها مما يتعلق بالتعريفين الثانى والثالث. فالتعريف

---

(1) Foucault, 1972: 80.

(٢) خاض ميشيل فوكو جدلاً حاميًا مع غيره حول معنى لفظ **statement**. وفى بعض من هذه المناقشات ثبت أنه يعنى فعل الكلام كما وصفه جون أوستن وجون سيرل. وللمزيد حول الموضوع انظر **Dreyfus and Rabinow** (١٩٨٢: ٤٤-٤٩)، وانظر ما ورد فى الفصل الثالث من كتابنا هذا حول هذا اللفظ.

الثانى الذى يقدمه – "مجموعة متفردة من الجمل" – هو التعريف الذى يقصده فوكو فى تناوله البنى الخاصة فى الخطاب؛ وبالتالى فهو يركز على قدرته على تحديد معالم لغات الخطاب، أى مجموعات الجمل الخبرية التى تبدو مقننة بصورة ما ويجمع بينها نوع من التماسك والقوة. من ثم يمكن الحديث ضمن هذا التعريف عن خطاب للأنوثة، وخطاب للنزعة الاستعمارية وهكذا. أما التعريف الثالث عند فوكو فربما كان هو الذى تجاوب معه المفكرون: "عملية منضبطة تفسر عددًا من الجمل". ونرى من جانبنا أن هذا التعريف يعنى أن تركيزه على الكلام/النصوص الفعلية الناتجة أقل من تركيزه على القواعد والبنى التى تنتج كلامًا أو نصوصًا بعينها. وطبيعة الخطاب المقننة هذه لها أهمية أولية ضمن هذا التعريف. وفى معظم أعمال أصحاب نظريات الخطاب ترد هذه التعريفات بشكل تبادلى، وقد يعلو أحدها على غيره.

ولكى لا نزيد الأمور تعقيدًا نقول إن تعريفات الخطاب عند فوكو كانت ذات أهمية قصوى فى النظرية الثقافية بصفة خاصة، وإنه المفكر الوحيد الذى استخدم المصطلح، وإن سائر تعريفات الخطاب تتداخل مع المعانى العامة للمصطلح[1]. فميخائيل باختين مثلاً يستخدم مصطلح "خطاب" ليدل إما على صوت (كما فى الخطاب ذى الصوت المزدوج) أو على طريقة ذات حجية فى استخدام الكلمات (وهو استخدام تأثر فيه بمعنى اللفظ فى الروسية: سلوفو)[2]. وفى النظرية البنيوية وبعد البنيوية كان استخدام مصطلح "خطاب" يدل على انفصال تام عن الآراء السابقة عن اللغة والبيان. فبدلاً من اعتبار اللغة معبرة أو شفافة أو أداة للتواصل أو أحد أشكال البيان، اعتبر مفكرو البنيوية –وبالتالى أنصار ما بعد البنيوية– اللغة

---

(١) يرى سوير (٢٠٠٢) أن فوكو يكتفى بتحليل مصطلح "خطاب" فى أعماله الأولى، وبعد كتابه **The Archaeology of Knowledge** يحجم عن إيراده.

(2) Hawthorn, 1992: 48.

نسقًا له قواعده وقيوده وله تأثيره الحاسم على طريقة تفكير الأفراد وتعبيرهم عن أنفسهم. واستخدام مصطلح "خطاب" يدل ربما بدرجة تفوق أى مصطلح آخر على الانفصال عن الآراء السابقة عن اللغة.

وما يجعل عملية تعريف الخطاب أعقد كما أشرنا من قبل هو أن أغلب المفكرين لا يحددون فى استخدامهم المصطلح أى هذه المعانى يقصدون. كما أن أغلب المفكرين يعدّلون حتى فى هذه التعريفات الأساسية كما سنبين فى الفصلين الرابع والخامس. والمطلوب أن نتمكن من تحديد السياق الذى يرد فيه المصطلح، وبالتالى أى المعانى يتخذ. ونعنى فى هذا الكتاب بترسيم حدود معانى الخطاب، وسنركز فى الفصول التالية على ثلاثة سياقات لاستخدامها هى بصورة عامة: النظرية الثقافية، وعلم اللغة، وتحليل الخطاب النقدى/علم النفس الاجتماعى. ولكن قد يكون من المفيد فى هذا المقام أن نضع تصورًا أوليًا لمجموعة التعريفات والسياقات التى يرد فيها قبل المضى فى تحليلها تفصيلاً.

النظرية الثقافية/النظرية النقدية/النظرية الأدبية

نظرًا لتأثره إلى حد كبير بأعمال فوكو ضمن النظرية الثقافية ككل يستخدم الخطاب غالبًا بمزيج من المعانى المستقاة من أصوله ومؤثراته اللاتينية والفرنسية (كلام/حوار) وبمعنى نظرى أكثر تحديدًا يعتبر الخطاب النطاق العام لإنتاج الجمل الخبرية التى تحكمها قواعد. وهناك تفرقة مفيدة يمكن عملها بين هذا الاهتمام النظرى العام المجرد بالخطاب وتحليل الخطاب الفردى أو تجميعات الجمل الخبرية المنتَجة داخل علاقات القوة. إلا أن الخطاب فى أعمال ميخائيل باختين وكذلك فى أعمال رولان بارت كما سبق أن أشرنا يمثل صوتًا ضمن نص أو حديث. وهو عند مفكرين من أمثال إميل بنفنيست عرض أحداث فى نص دون اهتمام خاص بترتيبها فى الواقع (**histoirel story**).

علم اللغة

يدل مصطلح خطاب عند عديد من علماء اللغة من التيار السائد على تحول عن الجمل باعتبارها أمثلة على الاستخدام فى المجرد، أى أمثلة على طريقة بناء اللغة باعتبارها نسقًا، إلى اهتمام باللغة المتداولة [١]. ويدل عند غيرهم على اهتمام بتحليل النص فوق مستوى الكلام أو الجملة؛ وبالتالى فالخطاب قطعة مطولة من نص تحوى نوعًا من التنظيم الداخلى أو التماسك أو الترابط [٢]. ويعرّف الخطاب عند لغويين غيرهم بسياق ورود كلام بعينه (فهناك الخطاب الدينى وخطاب الإعلانات). وسياقات إنتاج النصوص هذه تحدد المكونات الداخلية للنصوص الناتجة بعينها.

علم النفس الاجتماعى/تحليل الخطاب النقدى

يستخدم الخطاب عند باحثى علم النفس الاجتماعى وتحليل الخطاب النقدى بصور شتى ولكنها جميعًا تحوى المعانى المستقاة من علم اللغة والنظرية الثقافية[٣]. لذا يتجه باحثو علم النفس الاجتماعى للجمع بين اهتمام بعلاقات القوة وبنى الكلام المجاز الناتجة كالعنصرية أو الجنسانية، ومنهجية مستقاة من تحليل الخطاب وتحليل الكلام[٤]. وبدأ محللو الخطاب النقدى من أمثال نورمان فيركلو

(1) Brown and Yule, 1983.

(2) Sinclair and Coulthard, 1975; Carter and Simpson, 1989.

(٣) مع أن تحليل التركيب اللغوى ذى الدافع العقائدى فى النصوص من منظور سياسى يسارى كان يسمى علم اللغة النقدى حين نشأ أول مرة، فإنه يشار إليه بشكل عام حاليًا بمسمى الخطاب النقدى ليعكس انتماءاته النظرية بشكل أدق (Wodak and Meyer, 2001).

(4) Wetherell and Potter, 1992; Wilkinson and Kitzinger, 1995.

وروث ووداك وجوانا ثورنبورو فى الاهتمام أيضًا بعلاقات القوة وطريقتها فى تنظيم إنتاج الكلام والنصوص، إلا أن منهجيتها تأثرت بعلم اللغة والنظرية الثقافية وتمكنت بذلك من إيجاد نمط أكثر تعقيدًا لطريقة عمل الخطاب، وأثرها على أطرافها[1]. وأدى هذا الجمع بين علم اللغة والنظرية الثقافية بالضرورة إلى إضفاء ظلال على معانى الخطاب من هذين الحقلين.

نركز فى هذا الكتاب بشكل أساسى على الطريقة التى أدمج بها فكر ميشيل فوكو عن الخطاب فى مجالات معرفية شتى بصور شتى، ولكننا نركز أيضًا على ما تمثله تعريفات الخطاب لدى مفكرين غيره من تحدٍ بل تعديل لاستخداماته للمصطلح. لذا فإننا نشرع الآن فى مناقشة أعماله بشكل موجز مع مناقشة لتنظير الخطاب لدى ميشيل بيشو. ثم نتناول الأدب وكيف يمكن اعتباره خطابًا على ضوء أعمال فوكو. وفى الفصلين الثانى والثالث نتناول استخدامات المصطلح عند فوكو بشيء من التفصيل. وفى الفصلين الرابع والخامس نتناول التعديلات التى أجراها أنصار النظرية الثقافية ونظرية الخطاب بعد الاستعمارى على أعماله وكيف يوظفون مصطلح خطاب فى التحليل. وفى الفصل السادس نحلل كيف اتخذ الخطاب مسارات مختلفة من خلال توظيف معانيه فى تحليل الخطاب وعلم النفس الاجتماعى وتحليل الخطاب النقدى، كما نتناول فيه الجدل الذى يثور من حين لآخر حول تعريف الخطاب ومداه.

النظرية الثقافية وأنماط الخطاب

إذا كان ميشيل فوكو أحد أكثر من يشار إليهم من المفكرين فى مناقشة مصطلح خطاب كما تقول دايان مكدونل فهناك عدد من المفكرين غيره لهم أعمال

---

(1) Fairclough, 1992b; Wodak, 1998; Chouliaraki and Fairclough, 1999; Thornborrow, 2002.

مهمة عن الخطاب[1]. فتستفيض مكدونل فى تناول الفروق بين التعريفات التى صاغها كل من ميشيل فوكو وبارى هيندس وبول هيرست ولويس ألتوسر وفالنتين فولوشينوف/ميخائيل باختين؛ وتخلُص إلى أن الطبيعة المؤسسية للخطاب وموقعه الاجتماعى هما المحوريان بالنسبة لكل هذه المنطلقات المختلفة، وتقول: «الحوار هو الحالة الأولية للخطاب؛ أما الكلام والكتابة فاجتماعيان»؛ ثم تقول: «تتباين صور الخطاب بتباين المؤسسات والممارسات الاجتماعية التى تصاغ فيها وبتباين مواقف المتكلمين والمخاطبين»[2]. وهكذا فالخطاب ليس مجموعة جمل خبرية منفصلة، بل كتل من الكلام أو العبارات والجمل الخبرية تفعّل فى سياق اجتماعى ويحددها هذا السياق الاجتماعى، وتسهم فى الطريقة التى يواصل بها هذا السياق الاجتماعى وجوده. وبالتالى فالمؤسسات والسياق الاجتماعى لها دور مهم فى تطور لغات الخطاب والحفاظ عليها وتداولها. وهذه الطبيعة المؤسسية للخطاب ملحوظة بصورة خاصة فى أعمال ميشيل بيشو وفى مناقشة تنظيره الخطاب. تقول مكدونل:

«إن "الخطاب" باعتباره مجالاً خاصًا باستخدام اللغة قد تحدد هويته المؤسسات التى ينتمى إليها والمواقف التى ينبع منها والتى يبرزها المتكلم. إلا أن الموقف لا يقوم بذاته. بل يُفهم باعتباره وجهة نظر يتخذها الخطاب من خلال علاقته بخطاب معارض غيره»[3].

وهكذا فلغات الخطاب (وهى هنا كتل من جمل خبرية/نصوص لها تأثير مشابه تفعّله) لا سيما فى أعمال بيشو لا ترد منعزلة، بل فى حوار وفى صلة بمجموعات أخرى من الجمل الخبرية أو غالبًا فى تضاد معها وفى مقابلها. ومن الأمثلة البسيطة على ذلك الصورة التى بنى بها خطاب حركة حماية البيئة فى رد

---

(1) Macdonnell, 1986.
(2) Macdonnell, 1986: 1.

(٣) المصدر نفسه، ص٣.

فعل لسياسات التنمية الاقتصادية والاستراتيجية الحكومية وفى رد فعل أيضًا للكوارث البيئية. وبهذا المعنى فالصورة التى تطورت بها الفلسفات البيئية تقوم فى معظمها على الأحداث والأطر المنطقية الخارجية. ومع ذلك فقد يقول قائل إن سياسة الحكومات تتشكل عمليًا فى رد فعل لجماعات ضغط كجماعة حماية البيئة. وبالتالى فجماعات بيئية كجماعة "السلم الأخضر" و"أصدقاء الأرض" شرعت فى الآونة الأخيرة فى تقديم أنشطتها فى صورة تقارير حكومية أو علمية وابتعدت عن أسلوبها العفوى سياسى الطابع؛ واتخذت الحكومة من البيئة موقفًا أكثر صداقة للبيئة، ومن ثم قاموسًا مستعارًا برمته من جماعات حماية البيئة حتى تروق فى أعين الناخبين. وهكذا سيكون لكل جماعة معاملات متغيرة منطقية تحددها لها الجماعة الأخرى جزئيًا.

ومن الجوانب الأخرى التى تجمع بين كل هذه الآراء المتعلقة بالخطاب رؤيتها أن لغات الخطاب تقوم فى الأساس على ممارسات إقصائية. ففى حين أن ما قد تقوله يبدو بدهيًا وطبيعيًا فهذه الطبيعية ناتجة عما أقصى، أو ما لا يقال. فيبدو بدهيًا مثلاً أننا نتحدث عن الطمث بمصطلحات سلبية ونصوره بعبارات غامضة ونغلفه بالسرية. وليس على المرء إلا أن يتأمل إعلانات السدادات القطنية والفوط الصحية حتى يشعر بهذا الضغط الاستطرادى، فهى تتناول الطمث من منطلق الحرية أو الانطلاق على فرض أن فى الطمث شيئًا ينبغى إخفاؤه(١). وهذا أمر لا جدال فيه، حيث تعتبر كثرة من نساء الغرب الطمث عبئًا وشيئًا مؤلمًا،

(١) تغيرت إعلانات السدادات القطنية والفوط الصحية بصورة ملحوظة فى السنوات القليلة الماضية حيث أصبحت تقدم المرأة وهى تمارس الرياضة فى أثناء فترة الطمث، وتتناول بعض الإعلانات مسائل الراحة والأحاسيس الجسمانية التى تمر بها المرأة. ومع ذلك لاتزال السدادات القطنية تقدم بالاستعانة بدم أزرق اللون لبيان قوتها فى الامتصاص، ما ينم عن أن هناك بعض المحرمات لاتزال تكتنف الموضوع.

ويحد من قدرتهن على الحياة الطبيعية؛ إلا أن ارتباط تجربة بعض النساء بالضغط الاستطرادى لا يعنى أن بها بعض الصدقية أو الوجود الفعلى. هذه الرؤية الخاصة للطمث وتجربة الحيض تصبح ممكنة باستبعاد سائر سبل التعرف على الطمث. وهى طريقة فى النظر إلى عمل جسد المرأة يمكن اعتبارها جزءًا من خطاب يصطبغ بصبغة طبية عن صحة المرأة ويصنف أحداثًا كالولادة والطمث ضمن المرضىّ من منظور معيار ذكورى واعٍ[1]. ولا يستنتج من ذلك كما فعل شاتل وردجروف أن المرأة يجب بالتالى أن تحتفى بالطمث، بل يستنتج منه ضرورة الدعوة للاعتراف باستبعاد أى تقويم إيجابى للطريقة التى يعمل بها جسد المرأة. وما سعى أنصار النظرية النسوية لعمله فى السنوات الأخيرة هو مناقشة تطبيع هذه البنى الاستطرادية السائدة التى تتناول بها صحة المرأة وذلك للتعريف بهذه المواقف المنطقية المستبعدة وإكسابها قدرًا من الصدقية.

وهناك عامل آخر تفرده مكدونل باعتباره يعود على جميع تعريفات الخطاب وهو أن «كل ما له دلالة أو معنى يمكن اعتباره جزءًا من الخطاب»[2]. وإذا كان البعض قد يرى فى ذلك تعريفًا شديد الاتساع للخطاب فهو يؤكد على أن لغات الخطاب ليست مجرد كتل من الكلام أو العبارات، بل تتألف من كلام له معنى ونفوذ وفحوى فى سياق اجتماعى ما. والعبارات– وهى الكتل الأساسية فى بناء الخطاب – هى كلام أو أجزاء من نص لها معنى ما كما سنرى فى الفصل الثالث. والعبارات ليست جملاً، بل هى كلام يمكن اعتباره متجمعًا حول معنى بعينه. وبالتالى فعندما يقول أحد القضاة «حكمنا عليك بالسجن ثلاث سنوات» يكون هناك عدد من هذه المعانى. والقاضى مصدق مؤسسيًا، وبالتالى ففحوى كلامه تحويل المتهم إلى مجرم وتطبيق حكم بعينه عليه. من ثم فعبارة «حكمنا عليك بـــ ...»

---

(1) Shuttle and Redgrove, 1978; Laws, 1990.
(2) Macdonnell, 1986: 4.

يمكن اعتبارها جملة خبرية وجزءًا من خطاب، لأن جملة خبرية كهذه لا يصبح لها فحوى إلا إذا قيلت فى سياق كلام بعينه (أى إلا إذا اتُبعت إجراءات محددة) وإلا إذا وقعت فى مناخ مؤسسى (أى فى غرفة من محكمة وعلى لسان قاض معين).

وهناك مفكر يمكن مطالعة أعماله فى ارتباط بأعمال ميشيل فوكو، هو اللغوى الماركسى ميشيل بيشو. وتكمن أهمية أعماله عن الخطاب[1] فى سعيه لتحليل معانى الكلمات وعلاقاتها ببنى أكبر دون افتراض أن للكلمات والجمل معانى ثابتة فى ذاتها. وأجرى تجربة أُطلِق عليها فيما بعد مسمى "تقرير مانشو" حيث أعطى الطلاب نصًا اقتصاديًا ليطالعوه؛ وأبلغ مجموعة من الطلاب بأنه نص يسارى وقال لمجموعة أخرى إنه نص يمينى. والنص نفسه يمكن تصنيفه بصفة عامة بأنه نص اقتصادى وسطى، إلا أنه أوضح أن كلاً من المجموعتين طالعت النص بصورة انتقائية تتفق والإطار السياسى الذى صنفه فيه. وبذلك فهو يجسد فكر فوكو عن الخطاب بإعطاء مثال عملى على الطريقة التى تتحكم بها البنى المنطقية الأكبر فى تأويلنا النصوص.

تكمن أهمية أعمال بيشو فى تركيزه أكثر من فوكو على الطبيعة الصدامية للخطاب، فهو دائمًا فى حوار وفى صدام مع مواقف أخرى. فهو يركز على أن الصراع العقائدى فى قلب الخطاب. كما يقدم بيشو إضافة مفيدة للتفكير فى لغات الخطاب، حيث يهتم كمفكرين غيره من أمثال رينيه باليبار بمسائل النفاذ؛ فبينما يميل فوكو للتعامل مع فكرة مستقرة نوعًا عن النفاذ إلى لغات الخطاب يركز بيشو مثلاً على أن من حُرموا أية امتيازات فى النظام الطبقى نتيجة لعدم قدرتهم على التعليم وتحصيل المعرفة والوصول إلى شبكات المعلومات ورأس المال ممنوعون من النفاذ بسهولة إلى لغات الخطاب. وبالتالى فمع أن هناك لغة واحدة سائدة فى بلد ما (وهذه فى حد ذاتها مسألة قابلة للنقاش فى بيئة متعددة الثقافات واللغات

---

(1) Pecheux, 1982.

كبريطانيا مثلاً) فإن حرية الوصول إلى الأطر المنطقية المتداولة فى المجتمع ليست متاحة بالتساوى للكل. ومن الأمثلة على ذلك الإقصاءات المعمول بها فيما يتصل بمن له حق إصدار دورية علمية؛ نظريًا من حق أى من الناس أن يتقدم بمقال لدورية علمية، ولكن عمليًا لن يُنشر المقال إلا إذا توافق مع القواعد الشكلية للخطاب والتى تحكم البنى التى تقوم عليها البحوث العلمية (أى يستعين بالمفردات واللغة الفصحى المعترف بتوافقها مع كتابات كهذه؛ ويعتمد نقديًا على مقالات علمية أخرى ويستشهد بمنشورات حديثة لباحثين آخرين؛ ويتوافق مع اهتمامات تلك الدورية العلمية ويستخدم المفردات المناسبة لهذه الاهتمامات). إلا أن هناك بصورة عامة قواعد أخرى مسكوت عنها تحكم نشر المقال وتتعلق بما إذا كان الكاتب يعمل بمؤسسة تعليمية وما إذا كان معروفًا لمحررى المقال ومحكميه، وما إلى ذلك. وبالتالى فبينما يبدو النشر متاحًا للكافة فهناك فى الحقيقة عدد من المعوقات المنطقية والمؤسسية التى تقصر النشر العلمى على من يشغلون مناصب أكاديمية ممن يعرفون القواعد المنطقية لكتابة المقالات العلمية والقادرين على توفيق اهتماماتهم مع تلك البنى المنطقية.

تشكل لغات الخطاب شعورنا بالواقع ومفهومنا عن هويتنا. وتساعدنا أعمال بيشو على إيجاد سبل تصل فيها الذوات إلى وضعية عدم تحقق الذات التى نحدد فيها السبل التى أُنشئنا بها وأُخضعنا بوصفنا ذوات ونرسم بها لأنفسنا مجالات جديدة يمكن لنا أن نوجِد فيها سبلاً مختلفة وأكثر تحررًا لوجودنا. فالحركة النسوية تكمن أهميتها لدى كثرة من النساء فى تحديد أدوار منطقية جديدة لكل من المرأة والرجل. وهى أدوار دخلت سجالات قوية (وتأكدت واستُعمرت) فى مواد إعلامية وصور تمثيلية أنشئت من خلال تفاعلات الناس مع صور نمطية من كل نوع[1]. لكن هذا النوع من المعرفة النقدية غيَّر معنى الوجود فى حالة ذات لها جنس محدد.

(1) Sunderland . لم يصدر بعد

وبالتالى فبالعودة للمثال السابق عن الطمث يتبين أن الكتابة والفعل النسويين عن صحة المرأة ساعدا على طرح الطمث موضوعًا للحديث فى النطاق العام، بل طرح المنتجات الصحية النسوية للإعلان على شاشة التليفزيون. وأصبحت إعادة النظر النسوية فى موضوع الطمث تعنى أن الإعلان لم يعد يؤكد فكرة السجن؛ ويمكن القول إن ضغوط الحركة النسوية أدت إلى الإعلان السريالى تمامًا عن منتجات نسوية تمارس فيها المرأة الحائض رياضات شتى (القفز بالمظلات، السباحة، التزلج على الأمواج، دفع عربات معطلة) فى صور قد لا تطالعنا فى أشكال أخرى من الإعلان عن منتجات تستهدف المرأة. من ثم فعدم تحقق الذات النسوية بلغات الخطاب السائدة المتعلقة بالطمث أدت لتحولات فى طرح الطمث فى النطاق العام، وفى النهاية فى إيجاد طرق بديلة لتحسين صحة المرأة. لكن الطبيعة السريالية للإعلان عن منتجات صحية فى هذا المثال تدل على عجز استثنائى عن التعامل مع تجربة الطمث، حيث لاتزال الإعلانات تركز على محو الطمث لا على طرح رؤية أكثر إيجابية عن الدورة الشهرية.

هكذا فلغات الخطاب عند بيشو لا تعيش فى عزلة، بل هى موضوع وموضع سجال. وبالتالى فلغات الخطاب غير ثابتة، بل هى موضع سجال معانٍ دائم.

ميشيل فوكو والخطاب

«ما قلته ليس "ما أعتقده"، بل هو فى الغالب ما أتساءل عما إذا لم يكن جرى التفكير فيه»[١].

«إن دراسات فوكو تبدأ مهمة هائلة تتمثل فى تفكيك تيمة أن المعرفة تعبير عن فكر [الناس]» [٢].

---

(1) Foucault, 1979d: 58.
(2) Macdonnell, 1986: 86.

«لأعمال ميشيل فوكو أهمية بالغة فى تطور مجموعة كبيرة من النظريات المختلفة أدرجت فى مجملها تحت مصطلح "نظرية الخطاب"، ما دفع هذا الكتاب للتركيز على أعماله فى المقام الأول. وأعمال فوكو صعبة الفهم فى الغالب، ما يعزى فى جزء منه لأسلوب بعضها المعقد وكثافة الإحالة للأعمال الفلسفية فيها. لكن السبب الأول لاعتبار فوكو صعب الفهم أنه يتحدى عديدًا من المفاهيم السائدة لدينا عن كثير من الموضوعات المختلفة كالجنسانية والجنون والنظام والذاتية واللغة»[1].

فى الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب نتناول من كتابات فوكو ما يساعد القارئ على التفكير فى مصطلح الخطاب. فيقدم فوكو بعض التعريفات العامة للخطاب سنناقشها تفصيلاً، لكن السبيل الأكثر فائدة لتمحيص المصطلح يتمثل فى رؤية الطريقة التى يستخدمه فوكو فى مناقشاته عن السلطة والمعرفة والحقيقة، لأن هذه الصيغة ما تشكل الخطاب عنده.

إن أعمال فوكو ليست نسقًا فكريًا ولا هى نظرية عامة؛ فأعماله تمثل تنويعة عريضة من الموضوعات ومن الصعب أن نصفه بالمؤرخ أو الفيلسوف أو العالم النفسى أو المفكر النقدى. ويقول هو نفسه: «كتبى كلها ... صناديق أدوات صغيرة ... إذا أراد الناس فتحها فليستعينوا بهذه الجملة أو تلك الفكرة لتمثل مفكًا أو وصلة لدائرة كهربائية، أو ليشوهوا أنساق السلطة بما فيها تلك التى نشأت عنها كتبى أو يحطموها ... ياليت»[2] إذن فمصطلح خطاب لم ينشأ ضمن منظومة ناجحة تمامًا من الفكر النظرى، بل هو مجرد عنصر واحد فى أعمال فوكو. وغياب النسق هذا يمثل صعوبة أمام المفكرين أحيانًا وقد يكون أحد أسباب وجود هذا الكم من التعريفات المتباينة لمصطلح خطاب وهذا الكم من تعديلات معنى المصطلح. إلا أن

---

(1) Mills, 2003b.

(٢) نقلا عن **Patton, 1979: 115.**

غياب النسق العام هذا هو ما يضفى قدرًا من المرونة حين يحاول المفكرون استخدام أعمال فوكو لتلائم الظروف الاجتماعية المتغيرة.

من أنجح طرق التفكير فى الخطاب ألا نعتبره مجموعة علامات أو امتدادًا نصيًا، بل «ممارسات تشكل الموضوعات التى تتحدث عنها»[1]. وبذلك فالخطاب شيء ينتج شيئًا غيره (كلام، تصور، معنى) لا شيء موجود فى داخله ويمكن تحليله على حدة. ويمكن اكتشاف بنية منطقية ناتجة عن نسقية الأفكار والآراء والتصورات وطرق التفكير والسلوك والتى تنشأ فى سياق بعينه، ونتيجة لما يترتب على طرق التفكير والسلوك هذه. من ثم فقد نفترض أن هناك مجموعة من لغات خطاب الأنوثة والذكورة، لأن الرجل والمرأة يتصرفان ضمن نطاق بعينه من المعاملات عندما يعرف كلٌ نفسه بوصفه ذاتًا متمايزة جنسانيًا. هذه الأطر المنطقية ترسم الحدود التى يمكن أن نتفاوض فى داخلها حول معنى التمايز الجنسانى. ولغات الخطاب هذه هى التى تشتبك معها الذوات السوية والسحاقية والشاذة والمزدوجة والتى غيرت جنسها والتى تهوى تقمص دور الجنس الآخر عندما تشرع فى فهم نفسها وأن لها جنسًا متميزًا؛ فحين تتخذ السحاقية وضع "الأنثى" فإن إدراكها خطاب الأنوثة السوية هو ما تعمل بجد على تعديله وفى النهاية على زعزعة استقراره[2]. هذا الإطار المنطقى للأنوثة قد يحدد أنواع الثياب التى تختار أن ترتديها والأوضاع الجسدية التى تتخذ وطرق تفكيرها فى نفسها وفى غيرها فيما يتعلق بالسلطة.

وفيما يتعلق بالتفكير فى الخطاب باعتبار أن له معانى من المهم أن نأخذ فى اعتبارنا عوامل الحقيقة والسلطة والمعرفة، فهى العناصر التى تجعل للخطاب

---

(1) Foucault, 1972: 49.
(2) Bell et al., 1994.

معانى. فالحقيقة عند فوكو ليست شيئًا جوهريًا فى الكلام، ولا هى سمة مجردة مثلى يطمح إليها البشر؛ بل يرى الحقيقة شيئًا أكثر دنيوية وأكثر سلبية.

«الحقيقة شىء دنيوى، ينشأ فى الدنيا نتيجة لقيود كثيرة ... لكل مجتمع منظومة حقيقة و"سياسة عامة" للحقيقة خاصة به؛ أى ألوان خطاب يأويها ويجعلها تؤدى دور الحقيقة، أى الآليات والحالات التى تعين المرء على تمييز العبارات الصحيحة من الخطأ، الطريقة التى يعاقَب بها كل امرئ؛ التقنيات والإجراءات التى تثبّت للتوصل للحقيقة؛ حالة من يُتهم بقول ما يؤخذ على أنه حقيقة»(١).

إذن فالحقيقة شىء لا بد أن تعمل المجتمعات على إيجاده وليست شيئًا يظهر بصورة غيبية. ويحلل فوكو الجهد الذى يبذله الناس لاستبعاد بعض أشكال المعرفة يتصورون أنها "حقيقية". ومن الأمثلة التى يتناولها نورمان فيركلو(٢). أن المعرفة "البديلة" عن الصحة لا توضع فى مكانة توازى علم الطب التقليدى؛ وكثير من الجهد والعمل المنطقى يُبذل لضمان اعتبار الطب البديل شيئًا وضيعًا وخائبًا ويندرج تحت أعمال الشعوذة حتى يحتفظ علم الطب بصفتى "الحقيقى" و"العلمى". من ثم فالخطاب لا يتواجد فى فراغ، بل هو فى صراع دائم مع لغات خطاب غيره وممارسات اجتماعية أخرى تثريه بمسائل الحقيقة والسلطة. يقول فوكو: «أود أن أحاول أن أستكشف كيف صُنع اختيار الحقيقة هذا الذى سُجنا فى داخله ونجدده باستمرار، وكيف تكرر وتجدد وأزيح»(٣). وهكذا لا يهتم فوكو بأى خطاب فيه عرض صادق أو دقيق "للحقيقى"، وفى هذه الحالة ما إذا كانت العلاجات البديلة تفيد أكثر من الطب التقليدى؛ بل يهتم بالآليات التى تنتج الخطاب السائد الذى يدعمه التمويل المؤسسى، وتوفر له الدولة المبانى والموظفين ويحترمه الأهالى

---

(1) Foucault, 1979e: 46.
(2) Fairclough, 1992b.
(3) Foucault, 1981: 70.

جميعًا، بينما يعامَل الآخر بارتياب ويوضع على هامش المجتمع بالمعنيين المجازى والحرفى على السواء.

إذن فالسلطة عنصر أساسى فى مناقشات الخطاب. ولفوكو دور أساسى فى إعادة النظر فى نماذج السلطة. وبدلاً من افتراض أن السلطة امتلاك (بحيث يستولى أحد الناس على السلطة من غيره) أو أن السلطة مخالفة لحقوق الغير (كفكرة أن السلطة منع أحد الناس من فعل ما يريد فعله) كما يفترض كثير من المفكرين الليبراليين، أو كما افترض المفكرون الماركسيون أن علاقات السلطة تحددها العلاقات الاقتصادية، سعى فوكو للتوافق مع تعقيدات كم الممارسات التى يمكن جمعها ضمن مصطلح سلطة. وهو حاد النقد لما يطلق عليه "الفرضية القمعية" التى ترى أن السلطة ما هى إلا منع أحد الناس من تحقيق أمانيه والحد من حرية الناس. يقول جون فرو: «إذا كانت السلطة لم يعد يُفترض أنها قوة سلبية وقمعية، بل أصبح يُفترض أنها حالة إنتاج الكلام كله، وإذا اعتُبرت السلطة متناقضة لا متناغمة، أو تشتيت لا متماثل، فإن كل الكلام قد يتفتت ويخضع لاستخدامات متضاربة»[1]. وهذا يلخص تحليل السلطة عند فوكو، وهو أن السلطة تتفتت فى العلاقات الاجتماعية، وأنها تنتج أنماطًا محتملة من السلوك، كما تقيد السلوك. وهذا النموذج المثمر من السلطة شيء يعتبره كثير من المفكرين مفيدًا لا سيما حين يتطلعون إلى سبل للتفكير فى الخطاب[2].

وفى تناول جنسانية الأطفال فى المجلد الأول من كتابه "تاريخ الجنسانية" يقدم فوكو مثالاً لكيفية إنتاج علاقات السلطة أشكال الذاتية والسلوك بدلاً من قمعها. وفى تناوله الآراء حول جنسانية الأطفال من الذكور فى الحقبة الفيكتورية يقول:

---

(1) Frow, 1985: 206.
(2) Thornborrow, 2002.

«غير صحيح أن المؤسسة التربوية تفرض صمتًا ثقيلاً على الجنس لدى الأطفال والصبية. بل على العكس؛ فمنذ القرن الثامن عشر ضاعفت أنماط الخطاب فى هذا الموضوع؛ فأقرت نقاطًا مختلفة لترسيخ الجنس؛ ولديها مناهج ومتحدثون مؤهلون. فالحديث عن الجنس عند الأطفال وحث المربين والأطباء والموظفين والآباء على الحديث عنه أو الحديث إليهم عنه بما يؤدى بالأطفال أنفسهم إلى الحديث عنه وحصرهم فى شبكة من لغات الخطاب تخاطبهم أحيانًا وتتحدث إليهم أحيانًا أخرى أو تفرض عليهم معلومات قانونية أو تستخدمهم كأساس لبناء علم يتجاوز إدراكهم -كل هذا يساعدنا على ربط تكثيف تدخلات السلطة بمضاعفات الخطاب» [1].

وهكذا فبعيدًا عن الضغوط المؤسسية التى تكبح جنسانية الأطفال، أوجد هذا الإجراء المنطقى كما يقول فوكو مواصلاً حديثه أطرًا تظهر فيها هذه الجنسانية:

«كافح المربون والأطباء العادة السرية عند الأطفال (استمناء الذكور) باعتباره وباء لا بد من استئصاله من جذوره. وما نجم عن ذلك فى تلك الحملة التى حشدت عالم الكبار حول الجنس عند الأطفال هو استخدام هذه المتع الواهنة ركيزة وتحويلها إلى أسرار (أى دفعهم للاختباء باكتشافهم) وتتبع جذورها ... قد تظهر كلما سنحت الفرصة، وأقرت وسائل للاستطلاع ونصبت الفخاخ للدفع إلى الاعتراف وفُرضت لغات خطاب تأديبية ونُبه على المعلمين وأدخل فى نفوسهم الشك فى أن كل الأطفال مذنبون» [2].

وكما يواصل فوكو نقاشه فهذه الحيطة التى تلف مسألة استمناء الأطفال الذكور وبدلاً من القضاء على العادة كانت أحد العوامل التى أدت لتنامى جنسنة الأطفال فى العصر الفيكتورى.

---

(1) Foucault, 1978: 32.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٢.

ويقول فوكو بالتداخل بين السلطة والمعرفة، فكل معرفة لدينا ناجمة عن تأثير صراعات على السلطة. وللتدليل على ذلك أن ما يُدرس فى المدارس والجامعات ناتج عن صراعات على شيء واحد: رواية للأحداث هى التى يجب إقرارها. والمعرفة فى الغالب محصلة إخضاع الأشياء، أو ربما كانت العملية التى تتكون بها الذوات بعد إخضاعها؛ فأنت حين تراجع فهرس مكتبة جامعة ما، لو بحثتَ تحت مصطلح "مرأة" ستجد مجموعة كبيرة من الكتب والمقالات تتناول قهر المرأة وعلم نفس المرأة والعلل الجسمانية التى تعانيها المرأة وما إلى ذلك. أما إذا بحثتَ تحت مصطلح "رجل" فلن تعثر على ثروة مماثلة من المعلومات. وإذا راجعتَ الفهرس مرة أخرى وبحثتَ عن "الهند" أو "أفريقيا" ستجد أن إنتاج المعرفة عن هذه البقاع بأقلام كتّاب إنجليز فى القرن التاسع عشر يتزامن مع الحقبة التى شهدت أقصى درجات التدخل الاستعمارى. (سنتناول هذه المسألة فى الفصل الخامس ضمن مناقشتنا نظرية الخطاب الاستعمارى وبعد الاستعمارى.) ويصف فوكو هذه الصلة بين إنتاج المعرفة وعلاقات السلطة بمسمى "السلطة/المعرفة" [1]. وأغلب المفكرين يرون أن الأفراد تقهرهم علاقات السلطة، لكن فوكو يعتبرهم نتائج علاقات السلطة أو نماذجها:

«لا ينبغى اعتبار الفرد نواة أولية ... تنشأ حولها السلطة ... الحقيقة أن من النتائج الرئيسة للسلطة أن بعض الأجسام وبغض الإيماءات وبعض لغات الخطاب وبعض الرغبات تتحدد هويتها وتنشأ باعتبارها أفرادا »[2].

فالفرد هنا كوّنته علاقات السلطة لا باعتباره مفعول السلطة أو من تقهره السلطة.

(1) Foucault, 1980a.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٨.

الأدب باعتباره خطابًا

ليس كل قراء هذا الكتاب من طلاب الدراسات الأدبية أو الثقافية، ومع ذلك فربما كان هذان هما المجالان اللذان نبغت فيهما أعمال فوكو. وبالتالى فربما أمكن أن نتساءل عن أهمية فكر فوكو عن الخطاب بالنسبة للدراسات الأدبية أو الثقافية، فمع أن فوكو حلل بعض الأدب فى صورة عروض نقدية فى الغالب فإن الأدب لم يكن اهتمامه الأول يقينًا، وفى أعماله التنظيرية لا ينتج تحليلات نصية. والخطاب باعتباره مصطلحًا له أهمية قصوى فى التساؤلات التى يسمح لنا بطرحها عن الأدب والنصية بعامة. ويعرّف الأدب لدى مختلف المفكرين بأنه مكان متميز للنقد أو مجموعة عشوائية من العادات نتعلم مطالعتها باعتبارها أدبية، بينما تقول مكدونل:

«إن مناهج الدراسات الحديثة وفكرها عن الخطاب تساعد على تحليل لغات الخطاب فى علاقتها بالممارسات المؤسسية، ومن خلالها تفرد مجموعة من النصوص فينشأ "الأدب" باعتباره نوعًا من الحفظ» [١].

ودراسة الخطاب لا تميز بين النصوص التى تصنَّف بأنها أدبية وتلك التى تصنَّف بأنها لا أدبية ولو أن مفكرى الخطاب على وعي تام بالفروق المؤسسية بين مجموعتى النصوص. ونصوص التاريخ متميزة فى علاقتها بالحقيقة؛ وتمتاز كتابات السيرة بصدقيتها المفترضة فى علاقتها بصوت كاتبها؛ والنصوص الأدبية لها علاقة مركبة بكل من الحقيقة والقيمة، فهى من ناحية تقدم "حقيقة" عن الحالة الإنسانية ولكنها تفعل ذلك بصورة قصصية وبالتالى "غير حقيقية". ومع ذلك ففى تناول بنية لغات خطاب الذكورة والأنوثة مثلاً يمكن مناقشة النصوص الأدبية مع نصوص أخرى كالأعمال التاريخية والسير الذاتية، بل مع نصوص ككتب الطهى وكتب النصائح وما إليها لكشف أوجه التشابه بين هذه النصوص بصورة عامة.

---

(1) Macdonnell, 1986: 7.

ومن ثم فللخطاب فائدة تتمثل فى أنه يسمح لنا بتحليل أوجه التشابه بين كم من النصوص باعتبارها نواتج مجموعة بعينها من العلاقات بين السلطة والمعرفة[١].

يمكن اعتبار فوكو محافظًا فى فكره عن الأدب؛ ويتضح ذلك فى قوله على سبيل المثال إنه بمثابة منطقة متميزة تستخدم اللغة فيها بطريقة غير مرجعية. ومع ذلك ففى أغلب الحالات التى يتناول فيها فوكو الأدب نجده يصف الكتابة الإبداعية لا الأدب فى مجمله. فيقول مثلاً:

«ظهر فى العالم الغربى بالطبع ومنذ دانتى وهومر شكل من اللغة نعرفه حاليًا باسم "الأدب". لكن لفظ "أدب" حديث النشأة، وهو أيضًا فى ثقافتنا عزل للغة ما مزاجها الخاص فى الوجود "أدبى" ... الأدب تحد لفقه اللغة ... إنه يعود باللغة من القواعد إلى قوة الكلام العارية، وهناك تواجه الوجود الموحش غير المروض للكلمات» [٢].

هنا يبدو أن فوكو يصف الأدب بأنه نوع خاص من الكتابة التأملية حيث يواصل حديثه عن الأدب فيقول:

«إيداع صامت حذر للكلمة على بياض قصاصة ورق حيث لا يكون لها صوت ولا مُحاور، حيث لا يكون لديها ما تقوله إلا نفسها، لا شيء تفعله إلا أن تتلألأ فى سناء وجودها» [٣].

---

(١) هكذا كان الانتقال للخطاب عاملاً رئيسًا فى التحولات التى طرأت على أقسام اللغة الإنجليزية حيث تدرّس النصوص الأدبية حاليًا مع نصوص أخرى كالنصوص الصحفية والأفلام والثقافة الشعبية.

(2) Foucault, 1970: 299-300.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٠.

ومع ذلك فهو يحلل عمليات الاستبعاد التى تعمل حول نظم كالأدب، ولغات الخطاب النقدية اللازمة لدعم النصوص الأدبية وإبقائها فى حالة تداول. ومكونات الخطاب نفسه عند أصحاب نظريات الخطاب أقل أهمية من مجموعة الممارسات اللازمة لدعم ذلك الخطاب واستبعاد سائر لغات الخطاب من مواطن القوة كما سنبين فى الفصل الثالث عن البنى المنطقية.

أعانت أعمال فوكو عددًا من المفكرين على تأمل الطريقة التى يعمل بها الأدب الإنجليزى باعتباره من المجالات المعرفية. يقول فوكو:

«كان النقد الأدبى وتاريخ الأدب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يشكلان شخص الأديب وشكل العمل الأدبى ويستخدمان ويعدلان ويغيران عمليات التأويل الدينى ونقد الكتاب المقدس وسير القديسين و"الحيوات" التاريخية أو الأسطورية والسير الذاتية أو المذكرات» [1].

هذا الانتقال لتحليل "الدعم" المقدم للأدب باعتباره خطابًا ومؤسسة وتفكيك لغات الخطاب السابقة من جانب نقاد الأدب بمثابة انتقال مهم من تحليلات الأدب من داخل النص حيث تعد النهضة أو الرومانتيكية أو القرن الثامن عشر تصنيفات "طبيعية" مستقلة لا تصنيفات وضعها باحثون. ومع أن دراسة الأدب تبدو مألوفة و"عادية" كما يبين كل من برايان دويل وكريس بالديك وتيرى إيجلتون، فإنها اصطبغت بطابع مؤسسى فى لحظة حاسمة فى تاريخ الثقافة الإنجليزية كان الإيمان الدينى فيها يضمحل وكان هناك ضغط لفتح مجالات دراسية لمن سبق إقصاؤهم من التعليم الرسمى (أى المرأة والطبقة العاملة)[2]. وبدأت دراسة الأدب بالاستعانة بالبنى المنطقية ذاتها التى سبقت الاستعانة بها فى دراسة الدين مع إيجاد قواعد

---

(1) Foucault, 1981: 71.
(2) Doyle, 1982; Baldick, 1983; Eagleton, 1983.

(هى فى حد ذاتها تصنيف دينى للنصوص) والتركيز على الأخلاق والقيم. فتعليم لغة وأدب "قوميين" كما يقول برايان دويل يعمل باعتباره سمة أساسية فى استنساخ العلاقات الثقافية ضمن ما يطلق عليه عادة "مجتمعنا" [١].

وينبغى أيضًا أن نشير إلى أنه فى وجود إطار مرجعى فوكوى فالأدب إلى جانب كونه أداة لإيجاد شعور بثقافة قومية ما.. هو أيضًا أداة لتمحيص معايير ثقافة مشتركة ما. وهذا التمحيص يمكن رؤيته مع تزايد مناهج دراسة النوع والدراسات الزنجية وضم المزيد من كتابات الزنوج والآسيويين والمرأة بالإضافة إلى الأدب المكتوب بالإنجليزية إلى مناهج الأدب السائدة. ولكن كما يقول دويل:

«لا بد من ملاحظة أن "اللغة الإنجليزية وأدبها" باعتبارهما مجالاً لنشاط دلالى وتطبيقى لم يظهرا على الساحة كاملين مكتملين من فراغ. بل كان لا بد من العمل لبنائهما وصوغهما من تجاذبات بين معان معاشة متباينة وصيغ ثقافية» [٢].

وكما كان لا بد من السعى إلى شعور بثقافة أو مجموعة مبادئ قومية فإن تمحيص شكل تلك الثقافة القومية أيضًا شىء ينطوى على صراع.

من هنا كانت أهمية التحليل الأثرى للخطاب عند فوكو؛ فهو لا يهتم بتحليل لغات الخطاب المتداولة فى مجتمعنا حاليًا؛ وما يريد لنا أن نرى هو عشوائية هذا الكم من لغات الخطاب وغرابة لغات الخطاب هذه على الرغم من ألفتها. كما يريدنا أن نخطط تطور بعض الممارسات المنطقية حتى نرى أن لغات الخطاب ليست ثابتة كما توحى ألفتها، بل تتغير باستمرار ويمكن العودة بأصولها إلى بعض التحولات الرئيسة فى التاريخ. ومع أن مفهوم فوكو عن كتابة التاريخ له نقاده، [٣]

(1) Doyle, 1982: 17.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩.

(3) Hacking, 1986; Taylor, 1986; Walzer, 1986).

فمن المهم أن نؤكد على تفرد فوكو بمحاولة تتبع التغيرات التى طرأت على البنى المنطقية عبر الزمن. فالخطاب عند فوكو ليس مجموعة عبارات ثابتة عبر الزمن؛ فهو يحاول أن يعمل ضد مفهومى التقدم والتطور اللذين يهيمنان على عديد من طرق التفكير الحرة. وبدلاً من النظر للتاريخ باعتباره مجرد تقدم نحو حضارة أكبر مثلاً، أو سلسلة من الصراعات الطبقية تفضى إلى مزيد من المساواة كما يفعل الماركسيون، يرى فوكو أن التاريخ غير متصل؛ فليس ثمة سرد متصل فى التاريخ يمكن فك طلاسمه، وليست فيه أية استمرارية أصلاً. ويرى ضرورة النظر للتاريخ باعتباره متغيرًا ومخادعًا بصور تستعصى تمامًا على إدراك البشر ولا تخضع لسيطرتنا تمامًا (أو أصلاً). ويقول فى أحد لقاءاته:

«ليست مشكلتى أن أعثر على الاستمرارية وأهتف لها ... بل أن أطرح التساؤل: كيف يمكن أن تكون هناك فى بعض اللحظات وفى بعض جوانب المعرفة مثل هذه المنعطفات الفجائية واستعجال التطور والتحولات التى لا تتفق والصورة الساكنة المتصلة العادية المقبولة» [١].

من ثم يركز فوكو على تحديد لحظات الانقطاع هذه حين يطرأ على البنى المنطقية تغير جذرى.

ونسعى فى كتابنا هذا إلى تتبع استخدام مصطلح خطاب عند فوكو تفصيلاً، وفى الفصل الثانى إلى مقابلة استخدامه باستخدام مصطلح "عقيدة". فبما أن الفكر الماركسى كان بمثابة القوة التفاعلية الحاسمة فى تطور مفهوم الخطاب عند فوكو فمن المهم تحديد معالم تاريخ الاختلاف فى المعنى والتأكيد. وفى الفصل الثالث نحاول أن نحلل البنى التى تشكل لبنات الخطاب. وفى الفصلين الرابع والخامس نتناول التغييرات التى أدخلها على تعريف الخطاب مفكرو النظرية النسوية ونظرية

---

(1) Foucault, 1979e: 31.

الخطاب الاستعمارى وما بعد الاستعمارى. كما أن هذه الفصول بمثابة أمثلة على مدى فائدة مصطلح خطاب فى التحليل النصى. وفى الفصل السادس نناقش من علم اللغة ما يركز على مصطلح خطاب ونتناول كلاً من محللى الخطاب الأوائل ومحللى "الخطاب النقدى" وباحثى علم النفس الاجتماعى المتأثرين بفوكو. وهكذا يدور كتابنا هذا حول المعانى المرتبطة بمصطلح خطاب وحول مجموعة القضايا المعقدة الخاصة بالمعرفة والحقيقة والسلطة حتى نحدد متغيرات تداوله. وليس الغرض من هذا التناول إيثار مجموعة بعينها من المعانى التى اكتسبها المصطلح ولا الإيحاء بأن مجموعة ما من تأويلات المصطلح "صحيحة" أو أدق من سواها. كما لا نسعى لإضفاء الأصالة على مجموعة بعينها من معانى المصطلح. بل ما يعنينا فى الكتاب أن نركز على القيود والصعوبات النظرية التى تكتنف المصطلح وربما اقتراح سبل للاستفادة من هذه الصعوبات باتخاذها منطلقات لمزيد من البحث النظرى.

(٢)

الخطاب والإيديولوجيا

هناك صعوبة نظرية بالغة تعرض لأصحاب نظريات الثقافة والنقد فى السنوات الأخيرة فى قرارهم أن يستعينوا بالعمل القائم على فكرة الإيديولوجيا أم بالعمل الذى يحيل للخطاب. وهى مشكلات ذات صلة بالتوجه السياسى، ما كان يعنى فى المناخ السياسى التشاؤمى فى تسعينيات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادى والعشرين أن كثرة من المفكرين وجدوا أنفسهم أكثر ارتياحًا فى التعامل مع مفاهيم الخطاب منهم فى تبنى النظريات ماركسية المنحى من خلال الاستعانة بمصطلح عقيدة. وليس معنى هذا أن الخطاب مصطلح لا سياسى بالضرورة، أو أنه ينم عن غياب الالتزام السياسى حيث يمكن كما نرى فى الفصلين الرابع والخامس أن نجرى تحليلاً ذا خلفية سياسية يقوم على الاستعانة بنظرية الخطاب، إلا أن هذا الالتزام السياسى لا يصاغ بصورة صريحة كما يصاغ حين الاستعانة بمصطلح عقيدة.[١] من ثم ففى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى وما بدا كأنه انهيار للشيوعية على مستوى العالم تطلع كثير من المفكرين لإيجاد تقليد فكرى يتصل بتحليل محدّدات التفكير والسلوك بصورة أعقد مما يمكن لو استعين بمصطلحات مثل عقيدة.

---

(١) لكن الهيمنة الاقتصادية والسياسية العالمية للولايات المتحدة فرضت نموذجا مسيسًا يسعى للجمع بين مميزات كل من النموذج المعدل للماركسية والعقيدة، والنظرية الثقافية ونظريات الخطاب. ومرت النظرية الماركسية بما يشبه الصحوة، لا سيما فيما يتصل بمسائل كمناهضة العولمة، حيث بدا أن اللاعبين والمفكرين الأساسيين يبنون على النظريات الماركسية ونظريات الخطاب (Hardt and Negri, 2000).

فالإيديولوجيا لدى كثرة ممن يعملون بنموذج ماركسى مبتذل تبدو عملية سلبية تافهة ينخدع فيها الأفراد ويستعينون بأنساق فكرية لم تكن فى صالحهم[١]. ونظرًا لعدم انتمائه لنهج سياسى واضح يقدم الخطاب أسلوبًا فى التفكير فى الهيمنة – خضوع الناس للقهر – دون افتراض أن الأفراد بالضرورة مجرد ضحايا سلبيين لأنساق الفكر. وبالنسبة لمن يعملون من منطلق نظرية الخطاب يختلف نموذج النشاط السياسى ونتائج هذا النشاط اختلافًا تامًا عن النماذج التى تنشأ فى مدارس فكرية تعتمد على مفاهيم الإيديولوجيا. ففى حين تؤدى الآراء الماركسية فى التاريخ والتقدم لآراء طوباوية واضحة عما ينبغى عمله (ثورة، إعادة هيكلة الاقتصاد، رفع الظلم عن الطبقة العاملة، تغيير الموقف من النزعة الاستهلاكية والرأسمالية) نجد أن نماذج العمل التى تصاغ بالاستعانة بالخطاب تنشئ رؤى مشوشة ومعقدة عن المستقبل. ويرجع ذلك كما أود أن أبين فى هذا الفصل إلى أن مسائل السلطة ليست واضحة فى نظرية الخطاب، وبالتالى فإن مدى سيطرة المرء على ما يحدث نتيجة لتصرفاته تتصدر المشهد. من ثم ففى حين يمكن تبرير السلوك السياسى نظريًا من منطلق نظرية الخطاب فمن الواضح فى الوقت نفسه أن سلوك المرء قد تكون له آثار لا تتفق ونياته. فقد تنوى مثلاً منع تصدير العجول حية بالتظاهر خارج موانئ بريطانيا؛ قد يكون ذلك من نتائج تواجدك فى التظاهرة. ولكن قد يكون من نتائجه الأخرى تصويرك من قبل الشرطة وفتح ملف باسمك باعتبارك من المحرضين. وقد يقرر المصدرون الاستعانة بحراسة أمنية واللجوء للشحن الجوى بدلاً من النقل البحرى. وقد تقرر الحكومة سن تشريعات جديدة تهدف إلى خفض عدد المسموح لهم بالتواجد فى التظاهرة الواحدة. وفى حين لا يركز التحليل الماركسى للسلوكيات الجماعية كالتظاهرات إلا على الآثار العاجلة المتصلة بتصدير الحيوانات حية (الأثر

---

(١) نقح زيزيك (Zizek, 1997) هذا النموذج بحيث يصور الفاعل لا بصورة الساذج، بل بصورة من يعى أسرار العقيدة ومن يعتبر الرسائل العقائدية تنطبق على غيره، كما يحكى الآباء لأطفالهم عن وجود بابا نويل ويتظاهرون بأنهم يؤمنون بوجوده.

المستهدف) تركز نظرية الخطاب على النتائج الأخرى التى ترى أنها مترتبة أيضًا على مثل هذا التصرف.

كان فوكو يعمل فى فترة كان الولاء الأكاديمى للماركسية فيها مطروحًا للشك فى فرنسا، وكان هناك قدر كبير من الجدل حول إمكانية إيجاد نمط جديد من التنظير السياسى قائم على الفكر الماركسى، ولكن لا يشتمل على نمط الفكر العقائدى الذى صاحب النظرية الماركسية فى فرنسا آنذاك. وفى مناسبات عديدة أقر فوكو صراحةً بارتيابه فى الفكر الماركسى، وسعى فى مناسبات أخرى أيضًا إلى تمييز فكره والنأى به عن الفكر الماركسى. ومن الواضح أن الماركسية ومفاهيم الإيديولوجيا كانت حاسمة بالنسبة له فى تطور مفهوم الخطاب.

يبدو أن الأحداث السياسية التى شهدتها باريس فى مايو ١٩٦٨ أثارت العديد من الباحثين منهم فوكو ممن كانوا يبحثون عن سبيل لوضع الثوابت الإنسانية والمحافظة الليبرالية موضع المساءلة. وأدت الاضطرابات الطلابية وما أعقبها من اتساع دائرة الاضطرابات بمشاركة العمال وغيرهم من الفئات إلى جذب عديد من الباحثين والأكاديميين إلى ساحة النشاط السياسى المفتوح والمشاركة فى الحملات والتظاهرات من أجل حقوق العمال والشواذ والسجناء وغيرهم[1]. وفى سبعينيات القرن العشرين كان فوكو يشارك بنشاط فى عديد من الحملات وكان يُدعى لرئاسة بعض الحملات شرفيًا. ففى سنة ١٩٧١ مثلاً شارك فوكو جماعة من السجناء كانوا يطالبون بحقوقهم السياسية فى ظل نظام شديد القسوة فى السجون؛ فشاركهم فوكو إنشاء «جماعة المعلومات المتعلقة بالسجون» **(GIP: Groupe d'Information sur les prisons)** التى تهدف إلى تمثيل المسجونين وإشراكهم فى المناظرات التى تقام فى الحياة العامة عن الظروف فى السجون. كما شارك فى الكفاح من أجل استقلال الجزائر وفى عديد من الحركات السياسية التى استفادت كثيرًا من مشاركة شخصية عامة مثله. وهكذا فمع أن نظرية الخطاب توصف غالبًا بأنها لا سياسية

(1) Macey, 1993.

فإن أعمال فوكو يمكن أن تعتبر جدلاً مع الماركسية عما هو ممكن من صور النشاط السياسى، وينبغى النظر إلى أعماله بوصفها جدلاً حادًا حول دور المثقفين فى الكفاح السياسى.

يمثل عديد من أعمال فوكو عن الخطاب نقاشًا مفتوحًا وحوارًا مع مصطلح "عقيدة"، ويعرِّف مصطلح "خطاب" بمعنى من المعانى فى حوار مع تعريف مصطلح "عقيدة" وفى رد فعل له. وهناك عديد من الفروق بين مصطلحى "خطاب" و"عقيدة" نود أن نطرحها للمناقشة بشىء من التفصيل. ولننظر أولاً ما يقوله فوكو نفسه عن ذلك:

«يبدو لى مفهوم الإيديولوجيا صعب الاستخدام لأسباب ثلاثة، أولها أنه سواءً شئنا أم لم نشأ يتعارض عمليًا مع شىء كالحقيقة ... وعيبه الثانى أنه يشير –بالضرورة فى رأيى– إلى شىء باعتباره فاعلاً. ثالثًا، تقع الإيديولوجيا فى موقع ثانوى فى علاقتها بشىء لا بد أن يمثل البنية التحتية أو المتغير الاقتصادى أو المادى بالنسبة لها»(١).

ولننظر إلى الفروق التى يراها فوكو بين الإيديولوجيا والخطاب بشىء من التفصيل. ولنأخذ أولاً تعارض الإيديولوجيا مع أحد مواقف الحقيقة أو النقد يقع خارج الإيديولوجيا.

الإيديولوجيا والحقيقة

إن تنظير الإيديولوجيا، لا سيما فى أعمال لوى ألتوسر، يقوم على فكرة فحواها أن المنطلق الذى يتحدث منه المفكر منطلق نقد علمى(٢). من ثم فالإيديولوجيا توصف دائمًا بأنها وعى زائف أو طرح تخيلى لحالات الوجود الفعلية؛ والمنطلق

---

(1) Foucault, 1979e: 36.

(٢) انظر Althusser, 1984; Eagleton, 1991.

الذى يدرك منه هذا الزيف هو منطلق النقد ويقع خارج الإيديولوجيا. إلا أن فوكو لا يرى أن منطلقه يقع بكامله خارج الأفكار والأفعال التى يحللها. ورأى البعض أن هذا يعنى أن منطلق فوكو النظرى ضعيف فى جوهره، إذ يوحى بأن كل العبارات سواء أكانت نظرية أم لم تكن لها -حسب إحدى نظريات الخطاب- وضع واحد وصلاحية واحدة؛ أى أن أى فعل نقدى تحدده وتصوغه علاقات السلطة التى هو جزء منها. كما يبدو أنه يوحى بأن كل العبارات تحددها الضغوط المؤسسية أيضًا؛ ما يجعل التفرقة بين العبارات والأفعال التى تواجه القهر وتلك التى تتواطأ مع هذا القهر صعبة. إلا أن هذه النسبية الظاهرية لا تضعف موقف فوكو النقدى، بل إنه يتسق تمامًا مع عباراته النظرية عن الحقيقة. وفوكو لا يدعى أنه يتكلم من منطلق "حقيقة"، فهو واعٍ بأنه هو نفسه بوصفه فاعلاً لا يسعه إلا أن يتكلم فى الحدود التى تفرضها عليه الأطر المنطقية المتداولة فى العصر. وليس معنى هذا استحالة أن تنتقد، ولكن ثمة قيود على ما يمكن التفكير فيه، وهناك بصفة خاصة حدود لما يمكن أن يصنف بأنه "يمكن إدراكه". والمفهوم داخل الإيديولوجيا عن الوعى الزائف يفترض أن ثمة وعيًا غير زائف (موقف النقد)؛ والمعرفة كلها عند فوكو يحددها مزيج من الضغوط الاجتماعية والمؤسسية والمنطقية، والمعرفة النظرية ليست استثناء. وبعض هذه المعرفة يطعن فى لغات الخطاب السائدة بينما يتواطأ بعضها معها.

الفاعل

العنصر الثانى فى تفرقة فوكو بين الإيديولوجيا والخطاب هو الفاعل. فكان فوكو يهتم بتاريخ الفكر دون إشارة إلى الفاعل صاحب السيادة - أى الفرد. وسعى للابتعاد عن مفهوم الفاعل الديكارتى، وهو الفاعل الذى يعتمد وجوده على قدرته على رؤية نفسه متفردًا ومستقلاً ومتميزًا عمن سواه، لأن بوسعه أن يفكر ويعقِل

الأشياء. وبرفضه الإحالة إلى الفاعل باعتباره كائنًا مكتملاً كان فوكو جزءًا من التفكير بعد البنيوى الذى شكك فى القواعد الأساسية للأيديولوجيا الإنسانية الليبرالية المتأصلة فى مفهوم الذات الفردية القوية المسيطرة على نفسها. وشككت نظرية التحليل النفسى بعد البنيوية فى وحدة الفاعل ووجدت أن من الأجدى أن تحلل الفاعل العامل أو الفاعل المتأزم، أى تفكك مفهوم الفاعل الموحد(١). ويصف المحللون النفسيون الكم الكبير من أوضاع الفاعل التى يتخذها الأفراد بصورة عارضة، وأحيانًا يتخذون بإرادتهم أدوار فاعلة بعينها وأحيانًا يجدون أنفسهم موزعين فى أدوار بعينها بسبب تاريخهم التطورى السابق أو بسبب أفعال غيرهم. هذا التركيز على دائرة من أوضاع الفاعل المتغيرة والعارضة معناه أن الفاعل لم يعد يعتبر مسيطرًا. إلا أن فوكو ذهب إلى أبعد من هذه النماذج من المتخلق ذاتيًا فى التحليل النفسى (والتى اتخذها مفكرون ماركسيون كألتوسر) لأنه سعى لإيجاد سبيل لفحص العملية التاريخية دون الركون إلى مفهوم الفاعل. ووجد فوكو أن من الضرورى أن يبدأ تحليلاته فى مكان آخر وأن يبتعد بمركز اهتمامه عن الفاعل تمامًا. وهنا كانت أعماله أكثر إثارة للجدل، حيث كان اهتمامه أن يرى الفاعل مفعولاً للسلطة وأن يخطط لموت الفاعل. وبدلاً من رؤية الفاعل أو الفاعل المتأزم باعتباره عنصرًا يمكن رسم معالم وجوده وصفاته اختار فوكو أن يتجاهل الفاعل فى حد ذاته ويركز على العمليات التى اعتبرها مهمة فى إيجادنا مفهوم الذاتية نفسه. وفى كتابه "علم آثار المعرفة" (١٩٧٢) وفى المجلد الأول من كتابه "تاريخ الجنسانية" (١٩٧٨) بصفة خاصة يرى أن مهمته بيان التحولات التى طرأت على إنتاج المعرفة وتداولها، ما أدى إلى اعتبار مفهوم الذاتية ذا أهمية بالغة بالنسبة لمجتمعات الغرب منذ القرن الثامن عشر، ويمثل هذا التركيز بالنسبة له تحولاً فى المنهج التاريخى:

---

(1) Moi, 1986; Vice, 1996.

«على المرء أن يستغنى عن الفاعل الأساسى، أن يتخلص من الفاعل نفسه، أى أن يتوصل لتحليل يمكن أن يعلل نشأة الفاعل فى إطار تاريخى. وهو ما أسميه سلسلة النسب، أى نوع من التاريخ يمكن أن يعلل نشأة المعارف ولغات الخطاب ودوائر المفاعيل وما إلى ذلك دون الإحالة إلى فاعل إما غيبى فى علاقته بمجال الأحداث أو يجرى برتابته الفارغة فى مسار التاريخ»[١].

وفى أعماله اللاحقة عاد لمسألة الفاعل لا ليكتب الفاعل فى التاريخ، بل ليحدد التحولات التاريخية ونشأة مفهوم الفاعل المجنس[٢]. وهنا يبدو أن نظرية الخطاب توقفت عن الاهتمام بالأفراد أو الجماعات، لأن فوكو يرى مثلاً أن نشأة الشواذ واعتبارهم فئة من الناس فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نتج عن عدد من التحولات فى معرفة الغرب بطبيعة الجنسانية لا مجرد تعبير عن الميل الجنسى لدى الفرد نفسه. وأى تحليل إيديولوجى قد يحد من أهمية الفاعل بسبب اهتمامه بجماعات أو طبقات من الأفراد وبسبب تركيزه على بناء الذاتية الفردية من خلال أفعال مؤسسات كالدولة. ومع ذلك فأى تحليل إيديولوجى فى الحالة الأخيرة يحتفظ بمفهوم الذات الفردية القادرة على مقاومة الضغوط الإيديولوجية والسيطرة على أفعالها. وتواجه الخطاب صعوبة أكبر كثيرًا فى تحديد مكان الذات الفردية التى تقاوم السلطة وفى وصفها، بل فى تعليلها.

المتغيرات الاقتصادية للخطاب

العنصر الثالث فى تناول فوكو للفروق بين الإيديولوجيا والخطاب دور الاقتصاد. فلم يكن فوكو يعتقد أن هناك صلة بسيطة بين البنيتين الاقتصادية والاجتماعية ولغات الخطاب. لم يكن يرى كما يرى بعض الماركسيين أن الأساس

---

(1) Foucault, 1980a: 59.
(2) Foucault, 1985.

الاقتصادى يحدد ما قد يقال ويرد على الخاطر فى وقت بعينه؛ بل كان يرى فى الصلة بين الاقتصاد والبنى الاجتماعية ولغات الخطاب تفاعلاً معقدًا لا سيادة فيه لأى من مصطلحات المعادلة. وبينما كان على وعي تام بأهمية سيطرة الدولة وعلاقات السلطة القائمة على اختلال التوازن الاقتصادى، فإنه لم يكن يرى أن العلاقات الاقتصادية هى الأساس، بل نوع واحد من علاقات السلطة ضمن كم من علاقات السلطة. كما كان فوكو يهتم ببيان أن علاقات السلطة لم تكن لها قواسم مشتركة مع العلاقات الاقتصادية كما رأى عديد من المفكرين الماركسيين. وسعى لأن ينأى بتحليل علاقات السلطة داخل الرأسمالية عن افتراض أن بعض بنى السلطة والرأسمالية شيء واحد كما يقول باتون:

«ربما لم يكن الإنتاج الرأسمالى هو المتسلط والهرمى، بل الإنتاج الانضباطى هو الرأسمالى. فنحن نعلم أن كل هذا التنظيم الانضباطى لقوة العمل يستمر حتى لو لم يعد الإنتاج رأسماليًا تمامًا»[١].

وهذه مسألة مهمة، لا سيما بعد انهيار المعسكر الشرقى، فمن الواضح أن تفكك النظام الاشتراكى صاحبته تحولات طفيفة فى العلاقات الاستغلالية للإنتاج فى أوروبا الشرقية. وقد تكون هناك قوى ناشطة فى تنظيم العمل الصناعى فى هذا السياق أكثر من مجرد مسألة بسيطة تتعلق بالإيديولوجيا الشيوعية.

ونود الآن أن نتناول بعض الفروق الأخرى بين مفاهيم الإيديولوجيا ومفهوم فوكو عن الخطاب، كعلاقة الخطاب والإيديولوجيا بمفاهيم السلطة مثلاً. يقول فوكو: «لو لم تتسم السلطة إلا بالقمع، ولو لم تقل شيئًا سوى لا، فهل تعتقد أن علينا أن نطيعها؟»[٢]. يبدو أن الفكر الماركسى بصفة خاصة يضع السلطة ضمن ما

---

(1) Patton, 1979: 124.
(2) Foucault, 1979e: 36.

يطلق عليه فوكو "فرضية الكبت"، أى أنه يرى السلطة مجرد تعدٍ سلبى على حقوق الغير؛ فالسلطة هنا تؤخذ أو تُسلب من الغير، وتغدُ شيئًا يمتلكه المرء أو يمسك به. ويسعى فوكو لإبعاد مفهوم السلطة عن هذا النموذج السلبى ودفعه نحو إطار يؤكد على طبيعته المنتجة، أى أن ينتج ويكبت فى آن. والمثال الذى يعطيه فوكو يدخل ضمن المجلد الأول من "تاريخ الجنسانية" الذى يتناول فيه كبت جنسانية الأطفال فى القرن التاسع عشر، وهو ما سبقت الإشارة إليه فى المقدمة. ويرى أن محاولات التحكم فى استمناء الأطفال الذكور أسفرت دون شك عن الجنسانية نفسها التى سعوا للقضاء عليها. فأدت تدخلات الآباء إلى أنماط مختلفة من المتع نظرًا لحاجة الطفل لإخفاء مثل هذه الممارسات الجنسية، ما ساهم بصورة ما فى تكوين جنسانية الطفل. هذه الرقابة على الأطفال ومعاملة الاستمناء كأنه وباء لا بد من القضاء عليه استتبعا قدرًا من الحذر من جانبى الأبوين والطفل، وبالتالى قدرًا من الوعى ودفع بالجنسانية إلى المقدمة:

«أقيمت أجهزة رقابة أينما سنحت الفرصة [أمارات وجود سلوك جنسى] ؛ ونصبت الفخاخ لضمان الاعتراف؛ وفُرضت لغات خطاب تأديبية لا تنضب؛ واستُنفر الآباء والمعلمون وألقى فى نفوسهم الشك بأن الأطفال جميعًا مذنبون، والخوف من أن يكونوا -هم أنفسهم- مخطئين لو لم تكن شكوكهم قوية بما يكفى؛ وظلوا فى حالة استعداد فى مواجهة هذا الخطر المتكرر؛ فوُصف العلاج لسلوكهم وأعيد تقنين أسلوبهم التربوى؛ فسيطر نظام طبى جنسى كامل على نظام الأسرة. لم تكن "رذيلة" الطفل عدوًا بقدر ما كانت دعمًا؛ ربما اعتُبرت شرًا لا بد من اقتلاعه، إلا أن الجهد الفائق الذى بُذل قُدر له أن يفشل، ما يدفعنا للشك فى أن ما كان مطلوبًا منها هو المثابرة والاستمرار حتى أقصى حدود المرئى وغير المرئى لا الاختفاء بلا رجعة»[1].

---

(1) Foucault, 1978: 27.

وهكذا لم يؤد كبت جنسانية الأطفال الذكور إلا لإيجاد نمط خاص من الممارسة الجنسية الممتعة فى نطاق السرية والذنب[1]. وفى كتابه "تاريخ الجنسانية" يتناول فوكو أيضًا وبالتفصيل الطريقة التى أنتج بها الشذوذ باعتباره ممارسة جنسية ونوعًا من الشخصيات بالعملية نفسها التى سعى بها علماء الجنس إلى تصنيف الأفعال الشاذة بأنها منحرفة وفاسدة. وهكذا ففكرة أن كبت الأفعال من قبل من بيدهم السلطة يؤدى إلى القضاء على تلك الأفعال تعد نمط تفكير وعلاقات سلطة ساذجة؛ ومن الواضح من كتاب فوكو أن صور الذاتية تنشأ فى تفاوض مع علاقات السلطة القائمة وبالعملية نفسها التى أعطيت بها أمثلة علاقات القوة هذه.

وبينما يؤكد المفكرون الماركسيون على أهمية الدولة فى الحفاظ على علاقات السلطة وفى توزيع التحكم فى وسائل نمط الإنتاج يسعى فوكو جاهدًا لإيجاد نموذج مختلف للقوة لا يضع السلطة باعتبارها شيئًا يمتلك فى يد دولة ضخمة. ومع أن الماركسيين من أمثال ألتوسر يعقّدون فكرة الدولة بمحاولة صوغ نموذج لسلطان دولة لها عملاء للدولة مبعثرون فى أرجاء المجتمع، فإن الدولة فى التحليل النهائى لاتزال هى العنصر المهيمن ومصدر علاقات السلطة[2]. وبدلاً من هذا التركيز المؤسسى يقول فوكو: «لا أريد أن أقول إن الدولة ليست مهمة؛ وما أريد أن أقوله إن علاقات السلطة... تمتد بالضرورة إلى ما وراء حدود الدولة»[3]. هذه الفكرة عن النأى برؤى السلطة عن التثبيت فى الدولة، وبالتالى على نموذج

---

(١) لا بد أن نبين أن فوكو وإن تناول هذا النوع من الطرح المتعلق بالأطفال بصورة عامة فى القرن التاسع عشر فمن الواضح فى الحقيقة أنه يقصد الأطفال الذكور دون غيرهم. أما الأطفال الإناث فاعتبرن عديمات الجنس بمعنى من المعانى من خلال هذا التركيز على كبت ممارسات الاستمناء الأوضح لدى الأطفال الذكور، وهى نقطة لا يتطرق إليها فوكو.

(2) Althusser, 1984.
(3) Foucault, 1979e: 38.

للسلطة من أعلى لأسفل لها أهميتها، من حيث أنها تعيننا على رؤية السلطة على أنها علاقة لا مجرد عبء ثقيل. وتنطوى هذه العلاقة على أوضاع دور ممكنة أكثر من مجرد وضع السادة والعبيد المفترض سلفا فى نموذج سلطة الدولة؛ كما تنطوى على تحليل لدرجات السلطة التى تنطوى عليها العلاقة بدلاً من افتراض أن أية علاقة سلطة قوامها طرف قوى وآخر بلا قوة.

يقف فوكو بكل قوة ضد فكرة فرضية الكبت كما سبق بيانها، فمن الواضح عنده أن السلطة تتوزع فى المجتمع وليست حكرًا على جماعة واحدة. والسلطة لا تُحتوَى بسهولة. والسلطة نمط سلوك أو علاقة بين الناس تتداول فى كل تفاعل ولا تَثبُت ولا تستقر أبدا. وإذا كان فوكو لا يحط من شأن سلطة الدولة فهو يذهب إلى أن السلطة تعمل من خلال الشبكات التى تنشأ حول مؤسسات الدولة؛ وفى بعض الجوانب تتوزع السلطة فى المجتمع دائما بصورة أدق مما هو مُدرك. فالتحليل الماركسى للسجون مثلاً يتناول قهر السجناء وسوء معاملتهم ويركز على الحد من حقوقهم وحريتهم، وقد يركز على الطرق التى يقاوم بها السجناء النظام العقابى. ويركز تحليل نظرية الخطاب على البنى التى تتجلى من خلالها علاقة السلطة فى السجن. فيصف فوكو مثلاً التنظيم المعمارى للفراغ فى السجن بحيث أن كل سجين يشعر بأنه مراقَب حتى حين لا يكون كذلك(١). كما يصف العملية التى تحدد بها هذه البنى التنظيمية الطريقة التى تتوزع بها سائر علاقات السلطة فى السياقات الأوسع كالمدارس والكنائس والمؤسسات العسكرية، بحيث يتعلم الأفراد النظام بأنفسهم أو يتعلمون الانضباط عبر فكرة أنهم قد يكونوا مراقَبين.

ويهتم فوكو بالسبل التى يوزع بها الناس علاقات السلطة ولا يفترض أن صاحب السلطة فى علاقة نظامية يعتبر ذا قدرة شاملة. ففى العمل مثلاً أوليت

(1) Foucault, 1979a.

انتباهى للطريقة التى تتحدث بها السكرتيرات باسم مدرائهن، واكتشفت عدم وجود فارق حاسم بين الحديث الذى يتسم بالسلطة من ناحية والحديث الخالى من السلطة من ناحية أخرى.ومن ليسوا فى مواقف قوية اقتصاديا يمكن لهم أن يتفاوضوا على مواقف قوية لأنفسهم فى الترتيب الهرمى ببراعتهم الكلامية واستخدامهم اللغة[١].

وتبين ثورنبورو (٢٠٠٢) فى تناولها نظرية الخطاب عند فوكو أن من هم فى مواقف أدنى مكانة يصوغون الطريقة التى يتم بها التفاعل. وفى تحليلها لقاعات أقسام الشرطة تبين أن المشتبه بهم لا يمتثلون بسهولة، لكن مداخلاتهم توجه الأسئلة التى يشعر ضباط الشرطة أن بوسعهم أن يطرحوها عليهم. كما يبين مانك[٢] أن تلاميذ المدارس لا يطيعون معلميهم بصورة سلبية، بل يتحدون مكانتهم وحقوقهم فى الكلام، حيث إن لهم أولويات تختلف عن أولويات المدرسين، حيث يهتمون بالمرح والحديث إلى رفاقهم. ويرى مانك أن المدرس والتلميذ فى المدرسة يدرك كل منهما أولويات الآخر، ومع أن المعلم هو المسيطر فى النهاية فإن احتياجات التلميذ هى التى تحدد طريقة سير الحصة.

كما أن من هم فى أوضاع سلطة قد يتحتم عليهم أن يحذروا فى طريقة تقنينهم سلطتهم، وقد يكون عليهم أن يخففوا من وقع الأوامر المباشرة التى يصدرون. فمن المشاهد النمطية لعلاقة السلطة بين السكرتيرة والمدير ما قد يفرز تفاعلاً كالآتى:

المدير: أريد هذا الخطاب مطبوعاً ضمن بريد بعد الظهر.

السكرتيرة: بكل تأكيد.

(1) Mills, 1992a, 1996d.
(2) Manke, 1997.

هنا يثبت المدير فى كلامه أنه فى وضع متفوق اقتصاديًا ومؤسسيًا فى علاقته بالسكرتيرة وبالتالى فهو قادر على أن يصدر لها أوامر مباشرة (أو فى هذه الحالة يعبر عن احتياجات تفسرها هى باعتبارها أوامر). كما ستومئ السكرتيرة لمديرها باعترافها بوضعها الأدنى بامتثالها لأوامره[١]. ومع ذلك ففى أغلب التفاعلات بين المدراء والسكرتيرات والتى حللناها نادرًا ما يَرِد هذا النوع من البنى الشفاهية للقوى والضعيف. والأكثر شيوعًا أن يبدى المدير للسكرتيرة الاحترام والتردد (علامتان تقليديتان للضعف) وأن تكون السكرتيرة شديدة المقاومة أو الرضوخ لطلبات المدير (علامتان تقليديتان لوضع سلطوى). وفيما يلى مثال على أحد التفاعلات التى سجلناها:

المدير: يا ترى ... لو ... إن أمكن لكِ ... تعرفين، هذا الشيء ... التقرير ... هل يمكن ... يعنى ... إرساله // بعد ظهر اليوم

السكرتيرة: // حسنٌ. عندى عمل كثير /// لكنى أظن ...

المدير: // أقدر جهدك، شكرًا[٢].

هنا يبدى المدير كل أمارات الضعف – التردد والتحفظ (استعمال عبارات من قبيل "يعنى"، "هذا الشيء"، "يا ترى"، "إن أمكن لكِ" بدلاً من الأمر المباشر) – بل إنه يتحاشى التعبير صراحةً عن صيغة الأمر، ويكتفى بالسؤال عما إن أمكن إرسال التقرير أم لا: وما إذا كان يمكن لسكرتيرته أن تجرى التعديلات اللازمة قبل إرساله. ولا ترد السكرتيرة بالتوكيد؛ بل تبلغ المدير بانشغالها والتعبير ضمنًا

---

(١) لرؤية نمطية للتأدب وعلاقات السلطة انظر Brown and Levinson (١٩٧٨)، وللمزيد عن التأدب فى علاقته بالنوع والسلطة انظر Holmes (١٩٩٥) و Mills (2003a).

(٢) Mills, 1996d: 10 ... تدل على التوقف؛ // تنم عن الحديث العفوى.

عن عدم قدرتها القيام بالأمر. ولكن ما أن تقول «ولكن» يدرك المدير أنها ستقوم بالعمل ويشكرها. وحتى فى تلك الحالة لا تقول السكرتيرة إنها ستؤدى العمل عن طواعية، إذ تكتفى بقول «أظن [أنى سأتولى الأمر]». من الواضح أن السكرتيرات لا يرفضن تولى مهام يسندها المدراء إليهن، ولكن يمكن لهن أن يوضحن لمدرائهن أن كل طلب يطلبونه لا بد أن يُعرب عنه بلغة مهذبة تنم عما تتطلبه المهمة من جهد. وليس معنى هذا أن السكرتيرات يكنّ فى موقع القوة فى كل التفاعلات بين المدراء والسكرتيرات؛ بل يوحى بالسبل التى يتفاوض بها من كانوا فى وضع ضعيف نسبيًا ضمن نسق تراتبى مع ذلك الوضع، ويكتسبون لأنفسهم قوة من خلال استخدام أساليب لغوية قوية فى ظاهرها ويتحتم على من هم فى وضع السلطة أن يستخدموا صيغًا من اللغة مهذبة فى ظاهرها حتى يحملوا غيرهم على أداء أعمال لهم(١).

وفى تنظير الإيديولوجيا يوجه تركيز شديد إلى قلب علاقات السلطة القمعية بينما يصبح من الصعب على صعيد نظرى تعليل حقيقة أن الثورات تحدث. فالتوكيد فى النظرية الماركسية على طبيعة علاقات السلطة القمعية، وفى حين أن فكرة التابع الثورى محورية فى هذه العملية نظرًا لوصف السلطة بالقمعية فمن الصعب أحيانًا فهم الطريقة التى يكتسب بها التوابع وعيًا ثوريًا، وكيف يقاومون القهر. يرى فوكو أن المقاومة مدرجة فعلاً ضمن مفهوم السلطة: «حيثما وجدت القوة وجدت المقاومة» حسب تعبيره. وهذه فكرة شديدة الجاذبية (ولكنها فى النهاية تثير الجدل)، إذ ما من علاقة قوة تعد علاقة هيمنة تامة عند فوكو. فهذه العلاقة تنطوى على القوة التى قد تتحداها وقد تطيح بها. وفكرة المقاومة هذه الماثلة دومًا ضمن علاقات السلطة لها فائدة خاصة عند عديد من مفكرى النظرية النسوية وتساعد على النأى بالنظرية عن الانشغال بنماذج الهيمنة بين الظالم والضحية والتى كانت سائدة فى الفكر النسوى الأول. كما أعانت العديد من المفكرين فى

---

(1) Diamond, 1996.

الفكر بعد الاستعمارى حيث ركزت الاهتمام فى مسألة تحليل مقاومة الحكم الاستعمارى بدلاً من الاكتفاء بتحديد معالم السلطة الاستعمارية[١]. ومع ذلك تقول مكدونل: «إذا كانت السلطة موجودة دوماً، وإذا كان كل موقف سلطة متأصلاً فى ذاته، فلماذا تكون هناك مقاومة؟ من أين تأتى المقاومة، بل كيف تصبح ممكنة؟»[٢] هذا نقد أساسى، وسنتطرق إليه تفصيلاً فى الفصول التى نتناول فيها الحركة النسوية ونظرية الخطاب الاستعمارى. أما هنا فلا بد من التوكيد على أن مفهوم فوكو عن السلطة يساعدنا على رؤية تعقيدات السلطة.

تلك السلطة ليست مجرد تكليف. فللتعامل مع قضايا السلطة (وهى محورية بالنسبة لكل من النظرية النسوية والنظرية بعد الاستعمارية) لا بد من تعديل رؤية فوكو بحيث يمكن تعليل خيار التابعين الفرادى أن يقاوموا القهر.

اللغة والخطاب والإيديولوجيا

يدفعنا مفهوم فوكو عن السلطة إلى إعادة النظر فى دور اللغة/ الخطاب/ النصوص فى عملية نشأة الذوات ضمن تراتبية علاقات. ومن المفكرين الماركسيين من يميلون للنظر للغة كأنها أداة يضطر بها الناس للإيمان بأفكار غير صحيحة أو فى غير صالحهم، إلا أن اللغة فى نظرية الخطاب هى الساحة التى تدور فيها هذه الصراعات؛ يقول فوكو: «كما يعلمنا التاريخ على الدوام فالخطاب ليس ما يترجم الصراعات أو أنساق الهيمنة، بل هو ما يدور الصراع حوله وبه»[٣]. ومن الأمثلة الجيدة على التناقض بين المفكرين ممن يقيمون أعمالهم على أساس مفاهيم الإيديولوجيا ومن يعتمدون على نظرية الخطاب السجالات حول

---

(١) انظر Guha and Spivak, 1988.

(2) Macdonnell, 1986: 122.
(3) Foucault, 1981: 52-53.

الغيرية/الجنسانية السياسية[١]. والتحيز الجنسى عند كلا الفريقين من المفكرين قوامه عبارات ومعتقدات تضع فروقًا غير ضرورية بين الناس على أساس النوع[٢]. فالإشارة مثلاً إلى المذيعة التليفزيونية سوزان شارلتون باعتبارها "مذيعة نشرة جوية" وإلى مايكل فيش على أنه "مذيع نشرة جوية" تعتبر تحيزًا جنسيا، لأن فيش أسندت إليه مكانة البالغين وأطلقت على شارلتون التسمية التى تسند فى العادة لطفلة؛ وهذه استراتيجية شائعة فى التحيز الجنسى حيث توضع المرأة فيها فى مكانة أضعف حتى حين تكون فى موقع مساوٍ لموقع الرجل. وكذلك القول إن «المرأة لا تبرع فى قيادة العربات» يعد تحيزًا جنسيًا، لأنه يفترض أن كل النساء يفتقدن الكفاءة ويجعل ذلك جزءًا من طبيعة الأنثى. من ثم فالعبارة تعد تحيزًا جنسيًا لأنها توكيد تعميمى يربط بين عناصر ليس لها رابط فعلى بحالة الأنثى[٣].

قد يتفق النقاد الإيديولوجيون ومفكرو الخطاب على أى العبارات تعد تحيزًا جنسيًا. إلا أن التحيز الجنسى فى أية رؤية إيديولوجية قد يعد من صور الوعى الزائف، طريقة تستجوب بها الذوات بالمفهوم الألتوسرى، أى تُدعى لتعتبر نفسها صورًا بعينها من ذوات متمايزة جنسيًا[٤]. وبقبول التحيز الجنسى فى اللغة تُدعى الذوات لتتخذ وضعًا ضمن نسق تراتبى من التمايز الجنسى؛ وهكذا فالتحيز الجنسى يدفع الذوات لقبول الأمر الواقع وتقبل الرؤى السائدة بأن المرأة أقل شأنًا من الرجل والرجل أعلى مكانة وهو المسيطر وما إلى ذلك. وتحليل ديل سبندر الإيديولوجى للتحيز الجنسى باعتباره مؤشرًا على سيطرة الرجل على المرأة كجماعة ودليلاً على الطبيعة النظامية للذكورة[٥]. إلا أن هذه وإن كانت مرحلة أولى مفيدة فى

---

(١) للمزيد انظر Dunant, 1994; Sunderland, 1994; Mills, 1995a.

(2) Vetterling Braggin, 1981.

(٣) انظر Mills, 1995a للاطلاع على مناقشة مستفيضة.

(4) Spender, 1980; Altusser, 1984.

(5) Spender, 1980.

تحليل التحيز الجنسى وتساعد على إدراك العملية التى يصبح بها التحيز الجنسى "طبيعيا" أو سائدًا فى ثقافة ما فهى لا تعطينا أى شعور حقيقى بطريقة يمكن بها التدخل لتغيير تلك العملية. فترى سبندر أن المرأة ضحية القهر الذكورى وأنها متجانسة كجماعة وعاجزة عن التدخل فى عملية قهرها. وأى منظور لنظرية الخطاب يساعدنا على التساؤل عما إذا كان التحيز الجنسى ليس إلا مسألة فرض مجموعة من المعتقدات على مجموعة من الذوات. وما الجدل حول التحيز الجنسى إلا صراع من أجل تغيير كلمات، صراع على اللغة فى الوقت نفسه الذى يعد فيه صراعًا على الشرعية وعلى من له حق تحديد استخدام اللغة ومن له حق تقرير ما يدرس فى المدارس والجامعات. ومع أن كثيرًا من هذا الجدل شوشته آراء عن حرية التعبير والحد من الحريات فإن الصراع نفسه أبرز الخلافات والتوترات القائمة فى المؤسسات التعليمية لا سيما حول وصول المرأة والأقليات العرقية إلى مناصب سلطوية[1]. ولعل من النتائج الكبرى للحملات المتعلقة باللغة المتحيزة جنسيًا فى المؤسسات التعليمية ليس تغيير اللغة (ولو أن من الواضح أن هذا حدث فعلاً)، بل إماطة اللثام عن ممارسات وبنى استثنائية متحيزة جنسيًا وعنصريًا. وأدت هذه الحملات إلى وضع لا يمكن البقاء فيه على الحياد؛ وأفضت قضايا استخدام اللغة إلى أفعال سياسية أوسع نطاقًا. يقول فوكو:

«إن لغات الخطاب لا تخضع للسلطة بشكل حاسم وليست مستنفرة ضدها. وعلينا أن نسمح بالعملية المعقدة وغير المستقرة التى يمكن للخطاب أن يكون بها أداة للقوة ونتيجة لها فى آن، بل حجر عثرة ونقطة مقاومة ومنطلقًا لاستراتيجية مضادة. والخطاب ناقل للسلطة ومنتج لها؛ إنه يفرضها فرضًا، ولكنه يضعفها أيضًا ويفضح زيفها ويجعلها هشة ويساعد على إبطال مفعولها»[2].

(1) Matsuda et al., 1993.
(2) Foucault, 1978: 100-1.

وهكذا ففى حين أن التحيز الجنسى من منظور إيديولوجى استراتيجية قهر يلجأ إليها الرجل لدعم قوته فالتحيز الجنسى فى نموذج لنظرية الخطاب هو مجال السجال: هو الساحة التى تشهد إقرار بعض الذكور فى مساعيهم للتفاوض حول موقع سلطة لأنفسهم فى علاقتهم بالنساء، ولكنه أيضا الموقع الذى يمكن للمرأة فيه أن تتحدى تلك التحركات أو تتعاون مع الخصم. أما مسألة بذل جهود قوية من جانب كثير من المحافظين لتصنيف الصراع حول اللغة المتحيزة جنسيًا وعنصريًا فهى مجرد تدقيق سياسى - مصطلح سلبى فى مضمونه - وينم سعى أنصار الحركة النسوية ومناهضى العنصرية لمقاومة تلك التسمية عن أن الصراع حول اللغة أكثر من مجرد فرض رؤية بعينها على أناس بلا قوة من جانب أناس لديهم القوة[١]. تقول دبورة كامرون:

«إن التحرك من أجل ما يعرف بلغة "دقيقة سياسيًا" لا يهدد حريتنا فى الكلام كيفما نشاء فى الحدود التى يفرضها أى شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى والعام. وهو لا يهدد إلا حريتنا فى تصور أن اختياراتنا اللغوية تافهة أو أن نفترض أن أية جماعة من الناس لها حق ثابت فى فرضها»[٢].

وهكذا ففى حين أن كلا الموقفين يريان فى التحيز الجنسى عرَضًا لفروق فى القوة مجازة اجتماعيًا فهناك تحليل إيديولوجى يُفرض بسبب رؤيته للقوة لوصم الذات الأنثوية بالضعف. وهناك رؤية لنظرية الخطاب تصم الذوات بأنها تشارك فى تكوين نفسها، فتذعن للأدوار المسندة لها أو تتحداها. ومن المفكرين من لا يفصلون بين الخطاب والإيديولوجيا بالحدة التى فصلنا بها بينهما فى هذا الفصل، ومنهم من يواصلون الاستعانة بالإيديولوجيا بوصفها مصطلحًا بينما يضعون أنفسهم

---

(١) للاطلاع على مناقشة مستفيضة حول هذه القضية انظر العدد الخاص من **Discourse and Society, vol. 14 (1), 2002** عن المناقشات التى تتناول فكرة التدقيق السياسى.

(2) Cameron, 1994: 33.

فى إطار نظرية للخطاب[١]. ويرى البعض فى الخطاب المصطلح الأوسع الذى يحوى فى داخله كمًا من الإيديولوجيات المختلفة، بينما يرى غيرهم أن الإيديولوجيات تتضح من خلال مجموعة من لغات الخطاب المختلفة[٢]. ويحاول إيجلتون فيما يلى أن يلخص هذه الصلة الممكنة:

«قد يفيدنا أن ننظر إلى الإيديولوجيا باعتبارها مجموعة من لغات الخطاب لا بوصفها مجموعة من الآثار المترتبة ضمن لغات خطاب. والإيديولوجيا البرجوازية تشمل هذا الخطاب الخاص على أرضها، وتلك الطريقة فى الحديث عن الروح وهذا المقال عن الفقه وما يسمعه المرء فى المقاهى حيث يرتدى المالك رباط عنق عسكريًا. و"البرجوازى" فى هذه الحفنة المختلطة من العبارات الاصطلاحية ليس نوع اللغات التى يمثلها بقدر ما هى الآثار التى تنتجها: آثار الإنهاء مثلاً حيث تُستبعد بعض أشكال المعنى فى صمت، ودوال بعينها "تثبَّت" فى وضع أمامى»[٣].

وبينما توحى رؤية إيجلتون بطرق يعمل بها مصطلحا خطاب وإيديولوجيا ترادفيًا فى التحليل فمن المفيد فى هذا الكتاب أن نعتبر هذين المصطلحين منفصلين حتى نحدد معالم استخدام الخطاب. وجزء من تاريخ استخدام مصطلح خطاب أنه نشأ فى رد فعل للمعانى المرتبطة بمصطلح إيديولوجيا، وأن الصــراع مع مفهــوم الإيديولوجيا لايزال جزءًا من مجموعة معانيه.

---

(1) Fairclough, 1989; Hennessy, 1993; Zizek, 1997.
(2) Eagleton, 1991: 193-219.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٤.

(٣)

البنى المنطقية

كان التحليل البنيوى يركز إلى حد كبير على تحديد القواعد التى تحكم إنتاج النصوص وأنساق التعبير؛ وكان مفكرون من أمثال رولان بارت وميشيل فوكو يهتمون بالبنى التى تتواجد فى أدوات ثقافية كالنصوص وأيضًا بالبنى الأوسع نطاقًا والتى يمكن الرجوع بها إلى الخطاب نفسه. ومن التوكيدات المهمة لميشيل فوكو فى كتابه "علم آثار المعرفة" (١٩٧٢) أن لغات الخطاب ليست مجرد تجمعات من الكلام تتبلور حول موضوع أو قضية، ولا هى مجرد مجموعات عبارات تنشأ من إطار مؤسسى بعينه، بل هى تكتلات شديدة الإحكام من الكلام أو العبارات لها قواعد داخلية تخص الخطاب نفسه. ولا بد أيضًا من مراعاة أن لغات الخطاب تحكمها علاقتُها بغيرها من لغات الخطاب. يقول جوليان أنريك:

لا تنحصر القواعد فى قواعد الخطاب الداخلية، بل تشمل قواعد الامتزاج بغيره من لغات الخطاب، تلك القواعد التى توجِد الفروق عن سائر تصنيفات الخطاب (كالعلمى فى مقابل الأدبى،... إلخ)، قواعد إنتاج عبارات ممكنة. والقواعد تحدد ما يقال. لكنها ... لا تتضمن نهاية. ويشمل الطابع النظامى للخطاب ارتباطه بغيره من لغات الخطاب. وعمليًا تحدد لغات الخطاب ما يقال بينما توفر الفراغات – المفاهيم والمجازات والنماذج وأوجه التشابه لعمل عبارات جديدة ضمن أى خطاب ... كل خطاب محصلة لعملية إنتاج مادية ومنطقية ومعقدة وتتحدد دائمًا فى علاقتها بغيرها من عمليات إنتاج الخطاب. وكل خطاب جزء من مركب منطقى؛

وهو حبيس فى شبكة معقدة من العمليات مع الأخذ فى الاعتبار أن كل عملية فى هذا السياق منطقية ومادية»[١].

نتناول فى هذا الفصل "شبكة العمليات" هذه - مكونات الخطاب نفسه - والعنصر الأكثر تجريدًا والذى تنتج فى داخله لغات خطاب بعينها. والخطاب فى مجمله يتألف من لغات خطاب مقننة. والقواعد والبنى المنطقية لا تنشأ من عوامل اجتماعية-اقتصادية أو ثقافية، ولو أنها قد تتشكل وفق هذه العوامل؛ بل هى من سمات الخطاب نفسه وتشكلها آليات الخطاب الداخلية والعلاقات بين لغات الخطاب. ويبتعد كل من بارت وفوكو فى أعمالهما اللاحقة عن هذه الفرضية الأصلية، ولكن يظل من المهم الإبقاء على فكرة أن الخطاب تحكمه قواعد ويُبنى داخليا[٢]. وهكذا فدراسة الخطاب ليست مجرد تحليل الكلام والعبارات؛ بل هى أيضًا اهتمام ببنى الخطاب وقواعده. هذه البنى والقواعد محور هذا الفصل. ويطلق فوكو على هذا النوع من تحليل البنى المنطقية "علم الآثار". وعلم الآثار عنده:

«لا يتضمن البحث عن بداية؛ ولا يمت للحفر الجيولوجى بصلة. بل يشير إلى الموضوع العام لتوصيف يضع ما قيل موضع التساؤل على مستوى وجوده، والوظيفة البيانية التى تعمل بداخله، والتكوين المنطقى ونسق السجلات العام الذى ينتمى إليه. وعلم الآثار يصف لغات الخطاب باعتبارها عمليات تتحدد فى عنصر السجلات»[٣].

هذا الوصف للتحليل الأثرى قد يبدو عصيًا لأول وهلة؛ والحقيقة أن فوكو يحاول ببساطة لأن يؤكد أن السبب الرئيس لإجراء تحليل لبنى الخطاب ليس تعرية الحقيقة أو أصل عبارة ما، بل كشف آليات الدعم التى تسمح بقولها والإبقاء عليها

---

(1) Julian Henriques نقلاً عن Kendall and Wickham, 1999: 41.
(2) Moss, 1998.
(3) Foucault, 1972: 131.

فى مكانها. وآليات الدعم هذه متأصلة فى الخطاب نفسه وفى الوقت نفسه فائقة المنطقية بمعنى أنها اجتماعية-ثقافية. وهكذا فاهتمام فوكو فى هذه الفقرة ينصب على وضع العبارات فى أطرها المنطقية؛ من ثم فالعبارات لا وجود لها منعزلة لأن هناك مجموعة من البنى تجعل لهذه العبارات معنى وتعطيها تأثيرها.

وقبل الشروع فى وصف البنى المنطقية لا بد من وصف الصلة بين الخطاب والحقيقى. ينصب تركيز فوكو فى كتابه "علم آثار المعرفة" على صلة النصوص ولغات- الخطاب بالحقيقى، وبناء الحقيقى بالبنى المنطقية. وهناك شعور قوى يتميز الحقيقى فيه باعتباره مجموعة من المفاهيم تنشأ من خلال الخطاب. والحقيقى نفسه لا يجد تعريفًا لدى فوكو، فهو يرى أننا لا سبيل أمامنا للوصول إلا للبنى المنطقية التى تحدد إدراكنا للحقيقى. يقول جون فرو: «المنطقى واقع ينشأ اجتماعيًا وينشئ كلاً من الحقيقى والرمزى والفارق بينهما. وهو يحدد للحقيقى بنيته بينما هو فى الوقت نفسه من نواتج البنى الحقيقية ولحظة منها[1]. وهناك قدر كبير من الجدل العقيم عما إذا كان فوكو ينكر وجود الحقيقى حين يؤكد على قوى الخطاب التكوينية، وتعرض لهجوم المؤرخين بصفة خاصة لإنكاره وجود أحداث التاريخ[2]. ولكن قد يكون من الأجدى أن نتعرف على آراء فوكو عن الصلة بين الخطاب والحقيقى فى المصطلحات التالية كما يعرّفها لاكلاو وموف:

«إن مسألة أن كل شيء ينشأ مفعولاً للخطاب لا صلة لها بما إذا كان هناك عالم خارجى بالنسبة للفكر أو بالتضاد بين الواقعية والمثالية. فحدوث زلزال أو سقوط حجر حدث قائم فعلاً، بمعنى أنه يحدث هنا والآن وبمعزل عن إرادتى. أما تعريفهما على أنهما شيئان بمعنى "ظاهرتان طبيعيتان" أو "تعبيران عن غضب الله" فيتوقف على بناء حقل منطقى. فما يُنكر ليس أن مثل هذين الشيئين موجودان

---

(1) Frow, 1985: 200.

(٢) انظر Taylor, 1986 للمزيد.

خارج الفكر، بل التوكيد المختلف نوعا بأنهما قد يشكلان نفسيهما باعتبارهما شيئين خارج أية حالة منطقية للظهور»[1].

وهكذا ففوكو لا ينكر وجود الحقيقى؛ بل على العكس، إذ يؤكد أن ما نعتبره مهمًا وطريقة تفسيرنا الأشياء والأحداث ووضعها فى أنساق للمعنى يتوقفان على البنى المنطقية. وهذه البنى المنطقية عند فوكو هى ما يجعل الأشياء والأحداث تبدو لنا حقيقية أو مادية أو مهمة. إلا أن هذه الرؤية عن مادية البنى المنطقية وُضعت موضع الشك من جانب عديد من المفكرين أبرزهم تيرى لافيل حيث تنقد هذه الرؤية الحتمية ذاتها فتقول: «لا يُسمح للعلامات أن تبتلع مرجعياتها فى سلسلة لا تنتهى من المعانى تشير فيها كل علامة دائمًا إلى علامة أخرى؛ والدائرة لا يكسرها تدخل ما تشير إليه العلامة»[2]. ولكن فى حين يرى فوكو أن لغات الخطاب تكوّن شعورنا بالواقع فهو لا يرى هذه الأنساق مجردة أو مطوقة. وهو يهتم بأن لغات الخطاب تدل على أننا لا نستطيع أن نفكر ونتصرف إلا ضمن معاملات بعينها فى كل وضع تاريخى. وهكذا فمع أنه يرى أن الحقيقى ينشأ عبر ضغوط منطقية، فهو على وعى تام بتأثير هذه "الحقيقية" على الفكر والسلوك.

إن إدراكنا الأشياء عند فوكو يتكون فى حدود القيود المنطقية: ويتسم الخطاب بـــ «تحديد مجال للأشياء، تحديد منظور شرعى لعامل المعرفة، وتحديد معايير تطوير المفاهيم أو النظريات»[3]. ولنحلل التوكيدات الثلاث الواردة فى تلك العبارة بالتفصيل. أول ما يلاحظ أن الخطاب عند فوكو يؤدى إلى تضييق مجال الرؤية عند المرء، واستبعاد كم كبير من الظواهر من اعتبارها حقيقية أو تستحق الانتباه أو موجودة أصلاً؛ وبالتالى فتحديد المجال أول مرحلة فى إقرار مجموعة

---

(1) Laclau and Mouffe, 1985: 108.
(2) Lovell, 1980: 16.
(3) Foucault, 1977a: 199.

من الممارسات. إذن فتنشيط خطاب أو شيء أو إيجاده لا بد للعارف أن يقر لنفسه حقًا في الكلام. وهكذا فالدخول في الخطاب يعتبر مرتبطًا بشكل معقد بمسألتي السلطة والشرعية. وأخيرًا فكل فعل يحدد معالم الاستخدامات الممكنة لتلك العبارة (ولو أن هذا ليس بالضرورة ما يحدث له بالطبع). وتؤدي كل عبارة إلى غيرها، ولا بد لها بصورة ما أن تتضمن في داخلها معاملات الطرق التي يمكن بها صنع العبارات في المستقبل. والخطاب عند فوكو يشكل الأشياء لنا. ومن استشهادات فوكو الأشهر عن تشكيل الأشياء ما يلي: «علينا ألا نتصور أن العالم يدير نحونا وجهًا مقروءًا ما علينا إلا أن نفك رموزه. فالعالم ليس الشريك المساهم في معرفتنا؛ وليست هناك عناية قبل منطقية تنظم الدنيا لصالحنا»(١). أي ليس ثمة نظام ذاتي في الدنيا نفسها إلا ما نفرضه عليها نحن من تنظيم من خلال توصيفنا اللغوي لها. ومن الأمثلة على تشكيل الأشياء من خلال الخطاب التغيرات في الطريقة التي رُسم بها الخط الفاصل بين الحيوان والنبات في مختلف حقب التاريخ. ففي القرن التاسع عشر وضعت البكتيريا ضمن نوع "الحيوان" بينما تصنف الآن ضمن نوع مستقل. وهناك كائنات عديدة نقلت من نوع لغيره، منها الطحالب والليشنيات والفطريات وكثير من العضويات المجهرية. والحقيقة أن تصنيفي "حيوان" و"نبات" يعاد تعريفهما باستمرار وكذلك توزيع الكائنات الحية في كل منهما – نسق تصنيف منطقي بدلاً من النسق الذي تحدده الطبيعة "الفعلية" للنبات والحيوان. فهناك في الحقيقة عناصر عديدة مشتركة بين النبات والحيوان، إلا أن فصلنا لها في فئتين معناه أننا نركز على الفروق التي نراها بين هذين الصنفين لا على السمات المشتركة بينهما. ويدل تغير الحدود الفاصلة على عدم وجود حد فاصل طبيعي جاهز بين حياة الحيوان والنبات، وأن الإنسان وجد أن من الضروري أن يضع حدًا يفصل بينهما. وقد يكون من الأجدى أن نفكر في الفارق

(1) Foucault, 1981: 67.

بين الحيوان والنبات على أساس متسلسل، ولكن فى أنساق الفكر الراهنة لا بد فيما يتصل بهذا الموضوع من تصنيف الحياة الحيوانية والنباتية باعتبارها نوعين منفصلين. وقد يعزى هذا إلى انتقالنا من تعدد الثقافات فى القرن التاسع عشر إلى تعدد أفرع المعرفة؛ فأصبح علم النبات وعلم الحيوان حاليًا علمين مستقلين لكل منهما قسم مستقل فى الجامعات ومناهج بحث ومجالات اهتمام مستقلة.

ومثال آخر على أن الحدود المنطقية هى التى تحدد ما نعتبره تصنيفات فعلية مبحث تصنيف النبات. فعندما سافر علماء النبات فى القرن التاسع عشر إلى بلدان خارجية لدراسة أنواع النبات حملوا معهم نظام تصنيف وضعه لينايوس لتصنيف نباتات أوروبا. وتوضح مارى لويس برات أن هذا كان معناه أن النباتات التى "اكتشفها" الأوروبيون فى الهند وأفريقيا صُنفت ضمن نظام تصنيف أوروبى يهدف لأن يكون نظامًا عالميًا[1]. فاجتزئت النباتات من نظام التصنيف الذى وضعه الرعايا المحليون لتوصيف خصائصها واستخداماتها ومواطنها، وأصبحت جزءًا من مشروع استعمارى أكبر يهدف لإيضاح التأثير "الحضارى" للحركة الاستعمارية. وهكذا لم تعد النباتات تُرى من منظور نظام تصنيفها الأصلى والذى كان يرتبط فى الغالب باستخداماتها الطبية وقيمتها الغذائية وصلتها بسائر العناصر فى نظام بيئى خاص ووضعها فى نظام كونى ورمزى، وأصبح يُنظر لها خارج سياقها من منظور تشابه مكوناتها أو اختلافها (بنية النبات) عن أنواع نباتات أوروبا. وعندما "اكتشف" الأوروبيون أنواع النبات غيروا أسماءها المحلية إلى تصنيفات وضعها نظام لينايوس (أى بالمقارنة بالمسميات اللاتينية السابقة) وغالبًا ما سميت بأسماء "مكتشفيها" الأوروبيين. وهكذا فإن هذا العلم المركزى الأوروبى لم يكتف بإعادة تسمية بعض أنواع النبات، بل محا العلم المحلى وأحال العلم بالنبات فى الدول غير الأوروبية إلى علم استعمارى[2].

---

(1) Pratt, 1992.
(2) Mills, 1994b.

والخطاب لا يبنى الأشياء المادية، كفئات بعينها من النباتات؛ كما يبنى الخطاب بعض الأحداث وتسلسلات الأحداث فى سرديات تعتبرها ثقافة ما أحداثًا حقيقية أو مهمة. فالإجهاض فى الثقافة الغربية مثلاً يعد مجرد حمل فاشل لا موت جنين. وبالتالى فليس ثمة بنى ذات طابع روحى كالجنائز يمكن لمن مرت بتجربة الإجهاض أن تتعامل بها مع مأساتها. فمن خلال الخطاب ينشأ الإجهاض باعتباره حدثًا فاشلاً لا حدثًا حقيقيًا فى حد ذاته. وبصورة مشابهة فالعلاقات التى لا تؤدى إلى عيش الشاب والفتاة معًا أو زواجهما يرى كثير من الناس أنها غير "جادة". وهكذا ليس هناك إلا سرد واحد مقبول فى خطاب الحب الرومانسى، وهو أن هناك سبلاً أخرى عديدة يدير بها الأفراد علاقاتهم بغيرهم، أما التسلسل السردى الذى ينتهى بارتباط رسمى من نوع ما فيستبعد أنماطًا بعينها من العلاقات من أن تعد حقيقية[1].

وموقف فوكو الذى يرى أن الأشياء والأفكار يوجدها الناس والمؤسسات وأن هذا ما يمثل الواقع بالنسبة لنا تعرض للنقد لأنه يرى ألا شىء غير منطقى وخارج الخطاب. لكن فوكو لا ينكر أن هناك واقعًا يسبق فى وجوده البشر، كما لا ينكر مادية الأحداث والتجربة كما زعم بعض نقاده؛ وهو السبيل الوحيد أمامنا لكى نفهم الواقع من خلال الخطاب والبنى المنطقية. وضمن عملية الفهم نصنف التجربة والأحداث ونؤولها وفقًا للبنى المتوفرة لنا، وضمن عملية التأويل نضفى على هذه البنى قوة بحيث يصعب التفكير خارجها. وفوكو لا يعتبر هذه البنى من ابتكار مؤسسات أو جماعات قوية من الناس كما يرى بعض المفكرين الماركسيين فى صوغهم مفهوم الإيديولوجيا، ولا يفترض أنها تجريدية أو عشوائية. بل يرى أن هناك قوة مختلطة من الضغط المؤسسى والثقافى ترتبط بالبنية الجوهرية للخطاب تؤدى بنا إلى تأويل الحقيقى من خلال بنى منطقية متصورة سلفًا.

---

(1) Mills and White, 1999.

يمكن اعتبار تحليل رولان بارت للبنى المنطقية فى كتابه بعنوان "شذرات: خطاب المحب" (Fragments: Lover's Discourse, 1990) مكملاً لجهد فوكو فى أنه هو أيضًا مهتم بتوصيف البنى التى يقع فيها المحبون تحت رحمة المجازات والحالات النفسية والأحاسيس والإيماءات ونبرات الصوت التى يحددها خطاب المحب لهم. يرى بارت كل هذه العناصر المبتناة تشكل ما يطلق عليه "شذرات" والتى تكوّن الخطاب فى مجمله، إذ يقول:

«فى أية علاقة حب ترد الصور على خاطر المحب بدون أى ترتيب، فهى فى كل مناسبة تعتمد على حادث (داخلى أو خارجى؟) ... والفاعل المحب يعتمد على احتياطى (المسرد؟) صوره ... والصور لا تركيبية ولا سردية»(١).

ونبرة التساؤل التى يتخذها بارت فى هذه الفقرة رمزية فى تحليله البنى المنطقية فى مجملها – فيود أن يتمكن من توصيف الطريقة التى تحدد بها هذه الصور المشاعر والحالات التى يمر بها العاشق دون أن يكلف نفسه عناء تفسير هذه الصور أو اكتشاف مصدر لها. وهكذا يقدم للقارئ قائمة بشذرات مرتبة أبجديًا تمثل بالنسبة له خطاب العاشق؛ وهذه الصور ذات نطاق واسع يشمل أوصاف حالات من انتظار وخداع وغياب إلى تحليلات لنوعية اللغة التى يستخدمها العاشق. وهى ليست محاولة لوضع "قواعد" خطاب العاشق بقدر ما هى اختبار لحدود الشخص داخل الخطاب. ومن الواضح أنه اختار تحليل خطاب العاشق لأنه فى الوقت نفسه التجربة التى تبدو الأكثر شخصية لأغلب الناس، ولكنه أيضًا المركب بالصورة الأكثر منطقية. وقد يرتبط هذا التأرجح بأن التجربة أكثر ما يختبر قوى التعبير لدى المرء؛ يرى بارت أنه يبدو كأنه «نهاية اللغة» حيث يكرر المرء دون توقف قوله «أحبك لأنى أحبك»(٢). وتجربة بارت فى توصيف البنى

---

(1) Barthes, 1990: 6-7.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١.

المنطقية للحب لها تأثيرات أكبر على تحليل الخطاب في مجمله. والشذرة باعتبارها جزءًا من الخطاب تعد طريقة موحية لتحديد معالم هذه البنى.

مع ذلك فلكى نتفحص بعضًا من مكونات الخطاب بشيء من التفصيل نعود الآن إلى فوكو لأن أعماله قد تكون أكثر "قاعدية" وبمعنى من المعانى أسهل تطبيقًا على سياقات أخرى. فنتفحص البنى التى يرى فوكو أنها جوهرية بالنسبة للخطاب، ولا سيما المعرفة والعبارة والخطاب والسجلات. وللحدود أهمية بالغة فى توظيف هذه المقولات والبنى، وبالتالى نواصل تتبع السبل التى تكون فيها البنية الأهم فى الخطاب ليست عناصره المكونة له بل وظيفة الاستبعاد. وانطلاقًا من هنا نشرع فى تتبع السبل التى يجرى بها تداول بعض لغات الخطاب والإبقاء عليها فعليًا.

المعرفة

يعد مغزى عالم الأشياء ونشأته من قبل مؤسسات ضمن فئات اجتماعية ومن خلال اللغة بصفة خاصة محط اهتمام عدد كبير من المفكرين واللغويين بعد البنيويين. إلا أن فوكو ربما كان المفكر الوحيد الذى سعى بكل جدية لفحص ما طرأ على هذه الأنساق المنطقية من تغيرات بمرور الزمن وما أدت إليه بدورها من تغيرات فى رؤى هذه الثقافات للواقع. ففى كتابه "علم آثار المعرفة" (١٩٧٢) يحاول فوكو بيان هذه التغيرات بصورة منتظمة بحيث يتمكن من بيان الحدود المنطقية لفكر ما، أى مجموعات البنى المنطقية فى مجملها والتى تصوغ أية ثقافة أفكارها فى داخلها[١]. وتشكل مجموعات لغات الخطاب بنى فكر، والبنية الفكرية كما تقول مكدونل «يمكن اعتبارها أساس الفكر الذى تعتبر فيه بعض العبارات –

---

(١) كلمة episteme ينطقها المفكرون "إبيستيميه" لكى يبينوا إلمامهم بأصلها الفرنسى épistémé، إلا أن أغلب المتحدثين بالإنجليزية يلفظونها "إبيستيم".

دون غيرها – فى وقت ما معرفة»[١]. هذه المجموعات من الوحدات المنطقية لا تشكل رؤية للعالم، إذ إن هذا يوحى بوجود تماسك يميز مجموعة الأفكار. لذا فقد نناقش "رؤية العالم الرومانسية" أو "رؤية العالم الإليزابيثية"، وهى الركيزة الفلسفية والثقافية لفئة ما من الناس. فى حين أن مجموعة الأفكار (episteme) تتألف من مجموع البنى المنطقية التى تنشأ نتيجة تفاعل مجموعة من لغات الخطاب متداولة ومجازة فى ذلك الوقت دون غيره. من ثم فمجموعة الأفكار تشمل مجموعة المناهج التى تقوم عليها ثقافة ما باعتبارها بدهيات لكى تتمكن من التفكير فى ذوات بعينها. ويبين فوكو أن بعض الفترات تشهد اتجاهًا لبناء التفكير فى موضوع ما بطريقة بعينها ولوضع أسس بعينها للتفكير. ففى الحقبة الفيكتورية مثلاً كان التفكير العلمى يتميز بميل نحو وضع جداول مفصلة وتصنيف مواد تبدو متباينة الخواص فى أنساق تصنيف شديدة الصرامة. ولننظر فى الجدول التالى من كتاب "أعراق بنى الإنسان" لبراون:

جدول تشودى للتهجين البيروفى يوضح الطابع الهجين لسكان بيرو الأمريكيين الإسبان

الأبوان	طفل
أب أبيض وأم زنجية	خلاسى
أب أبيض وأم هندية	مهجن
أب هندى وأم زنجية	مغولى (chino)
أب أبيض وأم خلاسية	كوارتيرون
أب أبيض وأم مهجنة	كريولى (بشرة سمراء شاحبة)

(1) Macdonnell, 1986: 87.

أب أبيض وأم مغولية	مغولى أبيض
أب أبيض وأم كوارتيرون	كينتيرو
أب أبيض وأم كينتيرا	أبيض
أب زنجى وأم هندية	قزم زنجى
أب زنجى وأم خلاسية	زنجى أسود
أب زنجى وأم مهجنة	خلاسى داكن البشرة
أب زنجى وأم مغولية	قزم زنجى مغولى
أب زنجى وأم قزمة زنجية	قزم زنجى أسود (أسود خالص)[١]

ويستمر الجدول ليشمل اثنين وثلاثين هجينًا من البيض والهنود و"الزنوج".

كان هذا الأسلوب فى التفكير فى العالم يبدو للناس فى العصر الفيكتورى الأسلوب "الطبيعى" لوصف الاختلاف العرقى، فى حين أننا حين ننظر إلى تصنيفات القرن التاسع عشر هذه للفروق العرقية فإنها تبدو مرَضية فى تفصيلها وصرامتها المفرطين. وما ينفرنا هنا أن الناس يصنفون كما تصنف الكلاب أو الخيول حسب سلالاتها و"نقاء" نسبها. فانتقل نسق التصنيف بغرض التهجين بالنسبة للنبات والتلقيح التهجينى فى الحيوانات كما يبين يانج إلى توصيف السكان المحليين[٢]. لكننا أيضًا ضمن هذا الاهتمام بالجدولة بهذا التفصيل الشديد نستبعد عناصر مجال معرفى، لأن هذا الأسلوب فى التفكير أبطلته طرق أخرى لتنظيم المعارف والمعلومات. ففى الفكر الغربى بأواخر القرن العشرين لا يفترض أنك

(١) نقلاً عن Young, 1995: 176.

(2) Young, 1995.

ستقف على جوهر موضوع، هو الاختلاف العرقى فى هذه الحالة، بمجرد جمع كم كبير من البيانات المتصلة بالموضوع وترتيب هذه المادة على شكل جدول.

يرى فوكو أن هناك انقطاعات معرفية، أى أن هناك فى بعض اللحظات فى ثقافة ما تطورات متقطعة فى البنى المنطقية، فكان العرض الجدولى للواقع يبدو طبيعيًا تمامًا للناس فى العصر الفيكتورى، فى حين أن هذه الطريقة فى العرض بدت غير مألوفة فى القرن العشرين. ويقدم فوكو مثالاً آخر هو ما كان يضفى على الأحداث من مغزى فيما يتصل بالدينى. ففى المرحلة الأولى من أوروبا الحديثة كان كل حدث يفسر وفق نسق فكرى يربط الدنيوى بالغيبى أو الدينى. فما يصنف الآن بأنه ظاهرة طبيعية كالعواصف الهوجاء كان يصنف حينذاك من حيث مغزاه فى هذا النسق الرمزى الأكبر، فربما كان يعد نذيرًا أو علامة على الغضب الإلهى. فكانت الأحداث تستمد معناها من مكانتها ضمن هذا النظام الكونى، فى حين لم يعد ثمة مغزى غيبى أكبر يعزى للعواصف فى أوروبا القرن العشرين. فتغيرت عناصر هذا النمط من المعارف؛ وبينما نرى نحن أن هذا يرجع إلى تقدم الفكر العلمى والدنيوى يرى فوكو أن نظم معارفنا التى تكوّن البنى الفكرية الحالية ستبدو مفتعلة ومستغربة لدى أجيال المستقبل. ومن الأسهل فحص البنى الفكرية التى كانت حالية فى حقب ماضية وثقافات سابقة لأن آلية التفكير فى الثقافة المعاصرة بسيطة للغاية.

كانت فكرة انقطاع الخطاب هذه عونًا لفوكو فى مواجهة فكرة تقدم الثقافات؛ فبدلاً من رؤية تاريخ أوروبا باعتباره تطورًا من جهالة لحقيقة أكبر حيث يتعذر رؤية المراحل السابقة على الطريق نحو الحاضر إلا فى صلتها بالحاضر المتطور يرى أن تاريخ الفكر ينبغى اعتباره سلسلة من التخبطات من نسق تصنيف وعرض لغيره. وبهذا المعنى يختلف فوكو فى تفكيره عن التفسيرين المحافظ والماركسى للتاريخ والقائمين على فكرة التطور والتقدم؛ فالمعرفة العلمية الأكبر عند المحافظين

تعود على البشرية بتطور محتوم؛ والتغيير الثورى عند الماركسيين لا يأتى إلا بتحسين ظروف الطبقات العاملة[١]. ولعل هذه النقطة تمثل التأثير الأكبر لفوكو على الفكر بعد الحديث، فهذه الفكرة المثالية عن التاريخ مغروسة تمامًا فى أنماط الفكر. وعندما حاولت كاثرين بلزى أن تعلل ابتعادها عن موقف نسوى ماركسى إلى ما يعرف بموقف نسوى مادى، فإنها فعلت ذلك من منظور فوكوى؛ فنظرًا لصعوبة رسم صورة المثل الممكنة والأهداف الواضحة التى يمكن أن تحققها الحركة النسوية، ونظرًا لغياب الإجماع على كنه هذه الأهداف، قررت بزلى ضرورة نبذ نموذج التاريخ – السرد الأكبر –الذى يمثل جوهر الفكر الماركسى[٢]. وعندما تأملت ما تحقق من تقدم على مدار العشرين سنة الماضية فيما يتصل بحقوق المرأة أدركت ضرورة إيلاء قدر من الاهتمام أيضًا بالمجالات التى تدهورت فيها حقوق المرأة. ونموذج التقدم المتصل للأحداث نحو مستقبل أفضل يحول دون أخذ مثل هذا التدهور فى الاعتبار. والنموذج الفوكوى المتقطع للتاريخ يبين ما يطرأ على آلية التفكير من تحولات.

الجملة الخبرية

تتألف البنى الفكرية من مجموعات من الجمل الخبرية مصنفة فى لغات خطاب أو أطر منطقية مختلفة. ولنر الآن ما الجملة الخبرية باعتبارها وحدة البناء الأولية لأى خطاب. يقول دريفوس ورينبو: «الجملة الخبرية ليست كلامًا ولا افتراضًا، ليست كيانًا نفسيًا ولا منطقيًا، ليست حدثًا ولا شكلاً مثاليًا»[٣]. فالجملة

---

(1) Cliff, 1984.
(2) Belsey, 1992.
(3) Dreyfus and Rainbow, 1982: 45.

الخبرية ليست كلامًا بمعنى أن جملة واحدة قد تعمل عمل جمل خبرية مختلفة عدة حسب السياق المنطقى الذى تنشأ فيه. يقول فوكو:

«على مقياس ما من التاريخ المصغر قد يعتبر المرء أن توكيدًا من قبيل "الأنواع تتطور" تمثل الجملة الخبرية نفسها لدى داروين ولدى سيمبسون؛ وعلى مستوى أدق وفى مجالات استخدام أكثر محدودية (الداروينية الجديدة فى مقابل المنظومة الداروينية نفسها) نصبح أمام جمل خبرية مختلفة. ثبات الجملة الخبرية واحتفاظها بهويتها من خلال أحداث البيان الفريدة ينشأ تكرارها من خلال هوية الأشكال بأداء مجال الاستخدام الذى وضعت فيه لدوره»(١).

ويستطرد دريفوس ورينبو قائلين: إن العبارات المختلفة العديدة قد تشكل جملة خبرية واحدة، كما فى حالة مضيف الرحلة الجوية حين يكرر الإعلان الواحد بلغات مختلفة عدة. ويواصلان فيقولان:

«الخرائط قد تمثل جملاً خبرية لو كانت تجسيدًا لمنطقة جغرافية، وحتى صورة لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة قد تمثل جملة خبرية لو ظهرت فى دليل مستخدم باعتبارها تصويرًا لطريقة الترتيب القياسى لأحرف لوحة المفاتيح»(٢).

ويبدو أن الجمل الخبرية تشبه إلى حد بعيد أفعال الكلام كما يصفها جون سيرل (١٩٧٩) وجون أوستن (١٩٦٢) ولو أن أصحاب نظريات أفعال الكلام أكثر اهتمامًا بتأثير الكلام وطريقة فهم الكلام والعمل به من فوكو(٣). والجمل الخبرية عنده هى الكلام الذى له قدر من التأثير المؤسسى وبالتالى يدعمه نوع من الحجية – الكلام الذى يصنف عنده بأنه "داخل دائرة الصدق". فيقول: «من الممكن دائمًا أن

---

(1) **Foucault, 1972: 4.**
(2) **Dreyfus and Rainbow, 1982: 45.**
(٣) لا يهتم فوكو بهذا الفهم العملى للكلام الفردى؛ بل ينصرف اهتمامه إلى القواعد التى تحكم إنتاج الكلام بصفة عامة وحدود ما يمكن التعبير عنه (انظر **Searle, 1979**).

يصدُق المرء فى فراغ؛ ولكن لا يمكن أن يكون داخل دائرة الصدق إلا إذا أطاع قواعد "شرطة" منطقية ما لا بد من إعادة تنشيطها كلما تكلم»[1]. والكلام والنصوص التى تشكل نوعًا ما من ادعاء الصدق (وكم منها لا يدعيه؟) والتى أقرت باعتبارها معرفة يمكن تصنيفها بأنها جمل خبرية[2]. وبصورة ما قد تعد الجمل الخبرية أفعال كلام "جادة"[3]. ويركز تحليل فوكو الأثرى على نظم الدعم التى تحكم إنتاج هذه الجمل الخبرية وترتيبها، والأهم من ذلك النظم التى يستبعد بها سائر الكلام من "دائرة الصدق " وبالتالى تصنيفه بأنه جمل خبرية.

الخطاب/لغات الخطاب

كما حاولت أن أوضح فى هذا الفصل، هناك فارق مهم فى كتاب فوكو بين الخطاب فى مجمله، وهو مجموعة القواعد والإجراءات اللازمة لإنتاج لغات خطاب بعينها، ولغات الخطاب أو مجموعات الجمل الخبرية نفسها. فلغات الخطاب مجموعات مجازة لها بعض التأثير المؤسسى، ما يعنى أن لها تأثيرًا قويًا على الطريقة التى يتصرف بها الأفراد ويفكرون. وما يمثل حدود خطاب ما يعد غامضًا تمامًا. ولكن يمكن القول إن لغات الخطاب هى مجموعات الجمل الخبرية ذات التأثير المتشابه – أى إن ما يجمعها معًا ضغط مؤسسى ما، أو تشابه الأصل أو السياق، أو أنها تعمل بطريقة متشابهة. من ثم فخطاب إناث الطبقة الوسطى فى القرن التاسع عشر كان

---

(1) Foucault, 1972: 224.

(٢) كتاب نورمان فيركلو عن التغيير فى البنى المنطقية له أهميته فى هذا الصدد حيث يقدم بيانًا مفصلاً عن التغيير المحدود للبنى الفكرية الحالية (**Fairclough, 1992b**). وكتاب جوناثان بوتر (١٩٩٦) عن المطلوب فى الشيء حتى يحسب حقيقة له أهميته هنا أيضًا.

(3) Dreyfus and Rainbow, 1982: 48.

يتكون من مجموعة من الجمل الخبرية المتباينة الخواص (أى العبارات والنصوص والإيماءات والتصرفات التى كانت مقبولة باعتبارها تصور جوهر الأنوثة فى العصر الفيكتورى: التواضع والحنو والإيثار) وكانت تمثل العوامل المتغيرة التى يمكن لامرأة الطبقة الوسطى أن تحقق بها ذاتها. وكانت هناك لغات خطاب أخرى تتحدى هذه المعرفة (لغات خطاب الحركة النسوية مثلاً)، إلا أن خطاب الأنوثة هذا كان نوع المعرفة المجاز لدى عديد من المؤسسات فى العصر الفيكتورى - الكنيسة ونظام التعليم وما إليهما - والتى تضافرت لتنتج حدود الأنماط الممكنة لأنوثة الطبقة الوسطى. وهذا الاهتمام بمكونات لغات الخطاب هو ما حظى بالتركيز الأكبر وربما كان الأجدى بالنسبة للمفكرين كما سنبين فى الفصلين الرابع والخامس ضمن حديثنا عن النظرية النسوية والنظرية بعد الاستعمارية. وفوكو نفسه أقل اهتمامًا بالجمل الخبرية فى حد ذاتها منه بالطرق التى تتحد بها لتشكل لغات خطاب أو صيغًا منطقية وتستمد بعضًا من قوتها من هذه التجمعات.

السجلات

هناك بنية منطقية أخرى يتناولها فوكو هى السجلات، ويصفها فيما يلى:

«أعنى مجموعة القواعد التى تحدد: ١) حدود القدرة على التعبير وصورها؛ ٢) حدود البقاء وصوره؛ ٣) حدود الذاكرة وصورها؛ ٤) حدود الإحياء وصوره»[1].

بهذا المعنى قد يُنظر لفكرة السجلات كأنها تعمل بحذو فكرة البنية الفكرية، وربما أمكن الوقوف عليها بتحليل ما ورد لدى فوكو فى مقاله "نسق الخطاب" الذى

(1) Foucault, 1978: 14-15.

سنتطرق إليه فيما بعد. يمكن اعتبار السجل مجموعة الآليات المنطقية التى تحدد ما يمكن أن يقال وشكله وما يستحق أن يُعرف ويُذكر. وهو نوع من التحديد أو الاستبعاد أود أن أتناوله الآن بشيء من التفصيل لما له من أهمية فى فهم نشأة البنى المنطقية.

المستبعد من الخطاب

إلى جانب سعيه لبيان الطريقة التى تحدد بها البنى المنطقية ما يمكن أن نقول وما نعتبره معرفة مشروعة يتناول مقال فوكو بعنوان "نسق الخطاب" (١٩٨١) صعوبات إقحام المرء نفسه فى خطاب. وكان مقال "نسق الخطاب" فى الأصل محاضرة مفتوحة ألقاها فى كوليج دى فرانس المرموقة التى كان فوكو يلقى بها محاضرة عامة سنوية. يقول فوكو:

«أظن أن كثرة من الناس لديهم رغبة واحدة فى التخلص من الالتزام بالبدء، رغبة واحدة فى أن يكونوا على الجانب الآخر من الخطاب من البداية دون أن يضطروا للتفكير من الخارج فيما قد يكون غريبًا ومخيفًا وربما شريرًا فيه. وترد المؤسسة على هذه الرغبة العامة بالسخرية، فهى تحتفى بالبدايات وتحيطها بدائرة من الاهتمام والصمت وتفرض عليها صيغًا طقسية لكى تجعلها تبدو أكثر ألفة من بعيد»[(١)].

تتميز بداية أية محاضرة فى هذا الجو المرموق بمقدمات وذكر مؤهلات المحاضر والثناء عليه وأهليته للحديث ولأن يصغَى له والحق فى إسكات كل صوت آخر. إلا أن ما يركز عليه فوكو هنا هو أنه حتى حين تضفَى سمات الطقوس على الدخول فى الخطاب بهذه الصورة يصعب التغلب على الطريقة التى

---

(1) Foucault, 1981: 51.

يتحاشى بها الخطاب محاولات ضبطه. وفى "نسق الخطاب" يتناول فوكو الطريقة التى يضبط بها الخطاب من جانب المؤسسات بغرض صد بعض أخطاره. ويصف عمليات الاستبعاد التى تجرى على الخطاب للحد مما يمكن أن يقال وما قد يعد معرفة. وأول إجراءات الاستبعاد يسميها "الحظر" أو التحريم: هناك موضوعات يصعب مناقشتها داخل مجتمعات الغرب كالموت والجنس. وفى داخل الثقافة البريطانية يلاحظ كثير من الناس أنهم يتعرضون للعزلة والتحاشى من أقرب أصدقائهم إذا مات عنهم أزواجهم نظرًا لصعوبة الحديث عن الموت وعدم وجود مفردات فى الإنجليزية يعبر بها المرء عن مشاعره دون تبذل أو رياء أو مبالغة فى التمسك بالشكليات. وفى ثقافات أخرى وفى بريطانيا قديمًا كان الموت موضوعًا يناقش علنًا وكان له كثير من الركائز، أى العادات والطقوس والأدوات مما يجعل الحديث عنه ممكنًا. وفى بعض الثقافات كالمكسيك نجد وفرة من لغات الخطاب حول الموت. وفى بريطانيا فى العصر الفيكتورى كان هناك كثير من العادات والعبارات والأدوات مما يعد الآن كئيبًا وحساسًا ولكنه كان يسمح بالحديث علانية وصراحة عن الموت والحداد.

كان من الصعب فى بريطانيا فى العصر الفيكتورى أن يتحدث المرء عن الجنس فى العلن ويظل محتفظًا باحترامه. فكانوا يتحاشون الموضوعات الجنسية بأى ثمن فى الدوائر "المتحضرة" والتجمعات المختلطة. وبعض الثقافات التى واجهها الرعايا البريطانيون فى المناخ الاستعمارى كانت بها آراء مختلفة تمامًا عن الجنسانية؛ ففى الهند مثلاً كما يقول مكميلان:

«بعض المعابد كانت عليها نقوش إباحية (أو حسية، حسب وجهة نظرك). وكانت سيدات رجال الدولة الإنجليز فى الهند حين كنّ يخرجن لزيارة المعالم الأثرية يحرص مرافقوهن على إبعادهن عن هذه الرسوم؛ بل إن هناك دليلاً سياحيًا

شهيرًا من القرن التاسع عشر ينصح المرشدين المحليين فى أحد المعابد المعروفة ألا يوجهوا الانتباه للمشاهد الصادمة»[١].

ليس فى هذه الموضوعات شيء جوهرى يجعل من الصعب الحديث عنها، ولكن فى الثقافة البريطانية لا سيما فى العصر الفيكتورى كان من الواضح أن هذه كانت موضوعات صعبة بقدر ما هو من السهل حاليًا الحديث عن الجنس والحياة الجنسية فى الغرب[٢]. إنه مجرد قيد منطقى ومؤسسى يصبح عادة فى ثقافات بعينها فى بعض العصور. وما أن يدخل موضوع ما حيز المحرمات تبدأ هذه الحالة فى الظهور تلقائيًا.

هناك استبعاد ثانٍ لما يمكن أن يقال يدور حول خطاب من يُنظر إليهم باعتبارهم مجانين. يرى فوكو أن الحديث عن الشخص المجنون كان فى مختلف عصور التاريخ يعد إما على مستوى البصيرة الدينية أو خلوًا من أى معنى[٣]. وفى بريطانيا القرن العشرين لا يعول كثيرًا على لغة الفصاميين مثلاً، فإذا تحدث من يبدو عليهم "الجنون" لا يُلتفت لهم؛ وإذا طلبوا معاملة خاصة لا يحبذها أولو الأمر يتم تجاهلهم بصفة عامة. أما آراء "العقلاء" كالأطباء وموظفى الخدمة الاجتماعية فيفترضان لها ثقلاً أكبر[٤].

والاستبعاد الثالث الذى يحدد ما قد يعد جملة خبرية وبالتالى جزءًا من إطار منطقى هو التقسيم إلى معرفة تعد صادقة وأخرى زائفة. يبين فوكو تاريخ هذا

---

(1) Macmillan, 1988: 105.
(2) Bhattacharya, 2002.
(3) 1989 [1961].

(٤) من هنا كان التشريع الحكومى الأخير فى بريطانيا الذى يسعى لفرض العلاج على من تشخص حالاتهم بالمرض العقلى (للمزيد عن هذا الموضوع انظر العدد الخاص رقم ٦٨ (٢٠٠١) من مجلة Feminist Review عن المرأة والصحة العقلية).

التقسيم ويقول إن فحوى العبارة عند الإغريق فى القرن السادس لم يكن يضمن صحتها؛ بل كانت الأهمية الأولى للظروف التى قيلت فيها: «أتى يوم أقصيت فيه الحقيقة عن المؤثر المقدس وفعل البيان إلى المقولة ومعناها وصيغتها ومفعولها وصلتها بمرجعها»[(١)]. ويطلق فوكو على هذا التحول نقلة باتجاه "رغبة فى الحقيقة" «التى فرضت على الفاعل المدرِك وقبل أية تجربة وضعًا بعينه ونظرة بعينها ومهمة بعينها (تراها ولا تقرأها، تصدق عليها ولا تعلّق)» [(٢)].

قد نجد صورة لهذا التحول فى ثقافات الغرب فى أعمال لينارد دافيز الذى بين أن القرن الثامن عشر شهد تحولاً من قدر من التهاون نحو تفرقة بين الحقيقة والخيال وبين الصدق والزيف، نحو تمييز مفرط ومشروع للتفرقة نفسها[(٣)]. ومع بدء إنتاج "الأخبار"، أى النصوص التى يوحَى بأنها صور حديثة ودقيقة لأحداث مهمة لا صور لأحداث ذات أهمية أخلاقية أو رمزية أو دينية أوسع نطاقًا نشأت تفرقة بين الصدق والزيف داخل النطاق العام لقيت الدعم وشرّعت بتدخل حكومي وبسن قوانين التشهير وفرض رسوم على أنواع بعينها من المطبوعات. وكان هذا ذا أثر بعيد المدى على نشر النصوص بعامة، وفى ذلك الوقت بدأت التفرقة بين الروايات والحكايات "الحقيقية". ويوضح فوكو أن هذه الرغبة فى الحقيقة ساندها عديد من المؤسسات: جهات تعليمية ودور نشر ومؤسسات تشريعية ومكتبات وغير ذلك، إلى حد صار من المستحيل معه الشك فى هذا الهوس بالحقيقة والحقيقى. ونحن نفترض أن هذه بالضرورة تفرقة يجب أن تحكم تفكيرنا. ويبين فوكو كيف أدى ذلك فى الأدب فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إلى الهوس بما يبدو حقيقيًا (**vraisemblance**)، وإلى بيان أن ما يُكتب كان "نسخة" من واقع خارجي. وهذا الاهتمام بإنتاج صور

---

(1) Foucault, 1981: 54.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٥.

(3) Davis, 1983.

"حقيقية" يبدو بدهيًا بالنسبة لكثيرين، والبحث عن "الحقيقة" يبدو للبعض هدفًا ضروريًا للدرس العلمى. وإذا كنا كثيرًا ما نمر بهذه الرغبة فى الحقيقة باعتبارها ثراء، خصبًا، قوة لطيفة وكونية ... فإننا لا نعى الآلية المذهلة المعدة للاستبعاد[1]. فالاستبعاد فى جوهره من أهم طرق إنتاج الخطاب.

تداول لغات الخطاب

إلى جانب هذه العمليات الإقصائية يشير فوكو إلى أن نشأة لغات الخطاب لها أيضًا آليات داخلية وخارجية تبقى على بعض لغات الخطاب قائمة. أولى هذه الآليات الدوارة التعليق. فلغات الخطاب التى يعلق عليها الآخرون هى تلك التى نعتبر أن لها شرعية وقيمة:

«قد نرتاب أن فى المجتمعات كلها هناك نوع من التدرج فى لغات الخطاب: فمنها ما يقال فى المسار الاعتيادى للأيام وفى المعاملات العادية، ومنها ما يختفى بمجرد نطقها، ومنها ما يوجد عددًا من أفعال كلام جديدة تسمو بها أو تنسخها أو تتحدث عنها، أى أن لغات الخطاب التى تقال بشكل غير محدد تظل مقولة وتقال مرة أخرى»[2].

قد يعتبر الكتاب المقدس نصًا من هذا النوع، كُتبت عليه تعليقات وشروح وستظل تُكتب؛ وهذه التعليقات تبقى الكتاب المقدس موجودًا وتضمن بقاءه وتداوله باعتباره معرفة مشروعة. والتعليق يضفى ثراء وكثافة واستمرارية على النص فى اللحظة نفسها التى يوجد فيها تلك القيم بفعل التعليق. لكن هذا ليس فعلاً غيريًا تمامًا:

---

(1) Foucault, 1981: 56.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٧.

«دور التعليق ... أن يقول أخيرًا ما كان يقال فى صمت "فيما وراء" النص. وفى تناقض ظاهرى يزيحه دائمًا ولكنه لا يفلت منه قط،لا بد للتعليق أن يقول لأول مرة ما سبق أن قيل وأن يعيد دون كلل ما لم يقل من قبل»(١).

يذكرنا هذا بضروب الاستراتيجيات التى يتخذها نقاد الأدب المحافظون فى محاولتهم التعبير عن المعنى "الحقيقى" لنص أدبى ما. فأحس "النقاد الجدد" مثلاً بأن عليهم أن يوجدوا تأويلاً جديدًا أفضل وأشمل للنص الأدبى، وقالوا فى الوقت نفسه إن هذا المعنى موجود بالفعل فى النص فى انتظار أن يكتشفه قارئ بارع أو ناقد ماهر. وعملية محاولة "اكتشاف" المعنى "الحقيقى" للنص هى مجرد عملية وهمية تبقى على النص فى حالة تداول.

هذه العملية التى تظل النصوص فى حالة تداول بالتعليق عليها لا بد من تأملها فى مجال النقد الأدبى فى الجامعات والمدارس. من ثم فالتحليل النقدى من جانب المفكرين ليس مجرد فعل بحثى، بل له أثر كما يرى مفكرو الحركة النسوية على أى النصوص يعتبر أهلاً للنشر وأيها يظل بالتالى متداولاً. وكل الباحثين فى الدراسات الأدبية يدركون أن المرء يحقق مكانته بالعمل على نصوص قيمة، أى نصوص دينية أساسية أو أعمال نظرية عويصة. ونظرًا لهذا الميل لتناول النصوص الدينية فإن النصوص المستبعدة من الدين لا تعد أهلاً للتحليل. لذا فإن نقاد الحركة النسوية فى ستينيات القرن العشرين كانوا يجدون صعوبة فى التوصل إلى نصوص قديمة كتبتها نساء وفى إقرار مشروعية هذا المجال(٢). والنصوص غير الدينية غير مطبوعة فى الغالب وبالتالى فمن الصعب أن يتوصل إليها الطالب أو الباحث، ويحجم المحاضرون عن ضمها لقائمة القراءات. وهكذا فالتعليق يساعد

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٨.

(2) Showalter, 1977.

على ضمان أن تظل نصوص بعينها مطبوعة دائمًا وتدرَّس دائمًا فى المؤسسات التعليمية ويتناولها الباحثون بالدرس دائمًا، كما يجعل من الصعب إجازة تحليل النصوص التى لم يُكتب عنها إلا القليل.

وهناك ضابط داخلى آخر للخطاب يتمثل فى مفهوم المجال العلمى، وهو تصنيف منطقى أكبر يحدد ما يمكن أن يقال وما يعتبر حقيقيًا فى مجال ما. وهكذا فإن كل تخصص يحدد أى المناهج وصيغ الافتراضات والمناقشات ونطاق الأشياء يعد صحيحًا. وهذه المجموعة من البنى تسمح بالتقدم بافتراضات جديدة ولكن فى حدود منطقية معينة. ويرى فوكو أن بنى التخصصات تستبعد من الافتراضات أكثر مما تقبل. وحتى لو كان عملك البحثى دقيقًا أو واعدًا فإنه عرضة لأن يُهمل إن لم يتفق وشكل تخصصات بعينها ومضمونها، أو أن يعد غير علمى أو ضعيف. والتخصصات تسمح للناس بأن يتكلموا "فى الحقيقى"، أى فى نطاق ما يعتبر حقيقيًا ضمن هذا التخصص، لكنهم أيضًا يسقطون من اعتبارهم سائر المعارف الممكنة. فإذا كتب أحد الآثاريين بحثًا علميًا على سبيل المثال فنظرًا لبناه التخصصية تتركز دراسته بالضرورة على المجتمع البشرى والتغير؛ إلا أن الآثاريين ينقبون فى الغالب عن بيانات يمكن اعتبارها ناجمة عن تغير بيئى لا عن أفعال بشرية. وإذا وجد الآثارى نفسه فى موقع به ما يدل على تآكل فى التربة أو تضرر بفعل النار فقد يأول هذه الشواهد على أنها دليل على نشاط بشرى: فالإنسان من زرع المحاصيل وأدى بالتربة للتآكل؛ والإنسان من استعان بالنار فى إخلاء المكان من الشجر. وإذا واجه أحد باحثى الجغرافيا الطبيعية هذه الشواهد نفسها فى موقع فالأرجح أن يرى فيها دليلاً على نشاط بيئى: فالأنهار نحتت التربة؛ والموقع تعرض لأضرار نتيجة حريق غير عمد. وهكذا فالتخصص فى هذه الحالة يحدد طريقة تصنيف هذه البيانات. والبنى التخصصية لا تكتفى برسم حدود أنواع من

المعارف وتدخلها فى مجالات بعينها، بل تؤدى أيضا إلى نشأة مناهج مستقلة للتحليل، وفى داخل الحرم الجامعى إلى تخصيص مبانٍ لهذا التخصص، بحيث إن دارسى الفلسفة وباحثى علم النفس وعلماء اللغة وعلماء السيميوطيقا الذين يدرسون شيئًا واحدًا هو اللغة قد لا يعلم كل منهم شيئًا عن عمل غيره.

وأخيرًا يركز فوكو فى كتابه "نسق الخطاب" على خلخلة الخطاب باعتباره قيدًا منطقيًا داخليًا. وما يقصده بالخلخلة هو أن الكلام الصادر عن شخص واحد لا نهاية له نظريًا ولكنه متكرر بشكل لافت وبظل قيد حدود متفق عليها اجتماعيًا. فمن حيث المبدأ يمكن لأى امرئ أن يقول ما يشاء، إلا أن الناس أولاً يميلون فى اختيار موضوعات حديثهم وفى اختيار كلماتهم للتقيد بمعايير المجتمع والمعايير الشخصية، ويميلون ثانيًا للبقاء مقيدين فى التعبير عن رغباتهم واحتياجاتهم. وهكذا فما نجد فى أنفسنا رغبة فى قوله يدخل ضمن مجموعات مقيدة ومتوقعة من المعاملات. وقد نجد فى عالم الأزياء صورة نقرب بها المعنى. فليس أمامنا إلا كم محدود من أشكال الأزياء والأقمشة والألوان فى الحوانيت لنبتاعها. فنبنى رغباتنا عن الصورة التى نود أن نظهر بها فى حدود المتاح أمامنا. ومع ذلك فنحن "نشعر" بأن اختياراتنا فى الثياب شخصية. يرى فوكو أن هذه القيود تفرضها الحدود المنطقية؛ فنحن نتكلم ونتصرف فى نطاق ما تفرضه لغات الخطاب علينا من قيود. فنحن لا نحجم عن ارتداء السراويل مثلاً إلا إذا أقر عدم ارتداء السراويل واعتبر أمرًا مقبولاً وممكنًا. وأى تحليل إيديولوجى لصناعة الثياب سيركز على المصالح التى يخدمها هذا التقييد لإمكانات التعبير، وفوكو واضح تمامًا فى أن القيود المنطقية هى تلك التى تفرضها مؤسسة ما. لكنه أقل اهتمامًا بالمصالح التى تخدمها هذه القيود منه بالآثار المترتبة على التعبير نتيجة لهذه القيود.

والخطاب تقيده العادات التى تحد من عدد من يستطيعون قول بعض العبارات؛ ففى بريطانيا مثلاً لا يجوز عقد الزواج قانونًا إلا لكاهن أو موثق

رسمى؛ ولا يجوز افتتاح المجلس النيابى إلا للملك. ولو تفوه أحد الناس من غير المؤهلين بالعبارات نفسها لا يترتب عليها أى أثر؛ وهكذا فالممثل حين "يتزوج" امرأة على خشبة المسرح فهو لا يتزوجها قانونا. ويتساءل فوكو «ما النظام التعليمى إلا تقييد للكلام، تحديد لأدوار الذوات المتكلمة، تكوين مجموعة عقائدية، توزيع للخطاب بقواه ومعارفه؟»[1] وهكذا فبدلاً من اعتبار النظام التعليمى مؤسسة تنويرية تشجع حرية السعى إلى الحقيقة يرى فوكو فيه مجرد صيغة لتقنين الخطاب. فهناك حقوق مقيدة فى الكلام فى مؤسسات التعليم (فلا يحق لأحد أن يتكلم فى المحاضرة إلا المحاضر، وأى كلام يقوله غيره يعد نشازًا إلا إذا أقره المحاضر)، كما أن هناك قواعد صارمة لما يدخل ضمن المعارف (محاولات التعبير عن فكر لا يقوم على معارف سابقة ولا يعبر عنه بالصيغة المتعارف عليها فى المقال أو الرسالة العلمية توصم بالفشل بصفة عامة).

فى المقابل يصدِّق على أنماط المعارف التى تتفق بدقة وقواعد الخطاب. ومن الأمثلة على ذلك بحث علمى حديث زائف أثار فضيحة عندما نشر، حيث تبين أن البحث لم يكن سوى خدعة. كان عنوان البحث «تجاوز الحدود: نحو تأويلية تحويلية للجاذبية الكمية» وكتبه أمريكى هو الفيزيائى آلان سوكال بجامعة نيويورك. وسلم لدورية **Social Text** التى تعنى بالدراسات الثقافية باعتباره خدعة. كان سوكال يريد أن يثبت خواء الدراسات الثقافية بنشر مقال بلا معنى فى جوهره ولكنه يومئ فى اتجاه الاستشهاد بالمفكرين "المعتمدين" ويسوق الحجج "السليمة" لتتناسب والرأى القويم السائد فى الدراسات الثقافية. وقُبل البحث لأنه فى رأى بيتر جونز «تحدث باللغة المعتمدة. وهذا كل ما يهم. أما تمحيص الحجج فلا معنى له»[2]. وعلى الرغم مما اعتور هذا الحكم من مغالاة فإن البحث قُبل للنشر لأنه امتثل للقواعد المنطقية السائدة فى التخصص.

---

(1) Foucault, 1981: 64.
(2) Jones, 1996: 16.

إن ما يجعل تحليل فوكو للخطاب فى مقاله بعنوان "نسق الخطاب" محكمًا تركيزه على التقيد – عملنا فى الحدود المنطقية – لا افتراض أن الناس أحرار فى التعبير عما يشاءون. وهذا التركيز على التقيد قد يعتبر سلبيًا فى جوهره، ولكن حين يؤخذ مع كتابه اللاحق "تاريخ الجنسانية" (History of Sexuality) والذى سبقت الإشارة إليه فى الفصل السابق يمكن اعتبار هذا الشعور بالتقيد مثمرًا بقدر ما هو مقيِّد. ومن خلال عملية التقيد هذه يمكن إنتاج المعرفة.

وتحليل فوكو للكاتب له أهميته أيضًا فى تحليل بنى الخطاب، فالكاتب يكف عن دور المصدق على معنى النص، ولكنه يستحيل نمطًا تنظيميًا لمجموعات من النصوص. لم يعد المؤلف «الفرد المتكلم الذى كتب نصًا أو قاله، بل... مبدأ لتجميع لغات الخطاب يعد وحدة أصل معانيها»[١]. ويلجأ نقاد الأدب فى الغالب لفكرة المؤلف ليفرضوا شعورا بالنظام ومجموعة من الاهتمامات المحدودة على كم من النصوص لا يجمع بينها إلا القليل. طرح كل من بارت وفوكو "موت" المؤلف، وقالا بتحول عن الانشغال بالمؤلف نفسه إلى اهتمام بدور القارئ فى إنتاج تأويل للنص فى حالة بارت، وبدور ما سماه "مهمة المؤلف" فى حالة فوكو[٢]. ومهمة المؤلف هى ذلك المبدأ التنظيمى الذى يعمل على تجميع نصوص متباينة ليس بينها إلا ما ندر من السمات المشتركة. وهكذا يضفَى على أعمال جين أوستن الكاملة ترابطا منطقيا ويُحكى عنها من حيث التطور من الروايات الأولى إلى الروايات اللاحقة ويستعان بصفات من قبيل "فج" و"ناضج" فى توصيف هذا التطور. وكذلك أعمال شكسبير تجمع معًا وتناقش من حيث سماتها الفنية المشتركة مع أن هوية من كتب بعض المسرحيات والقصائد مشكوك فيها. هذا السرد التطورى وفكرة الأعمال الكاملة هما ما يضعه فوكو موضع التساؤل، إذ يتساءل عما إذا كان هذا

---

(1) Foucault, 1981: 58.
(2) Foucault, 1980b; Barthes, 1986.

نسقًا نفرضه على النص على ضوء فرضياتنا القائمة على معلومات عن حياة الكاتب. ومن ناحية النصوص الأدبية فنقد فوكو للمؤلف عميق إذ يساعدنا على الانتقال من تحليل النصوص على ضوء حياة كاتبها، ما يعد فى نظر فوكو مجموعة أخرى مختلفة من النصوص.

يتناول فوكو مسألة أن بعض لغات الخطاب لها مؤلفون، فى حين يكاد مفهوم التأليف يكون غير ذى صلة عند غيره؛ فالوثيقة الرسمية غير مؤلفة، ذلك أن حجيتها تنبع من المؤسسة أو الحكومة التى تقرها لا من الأفراد الذين كتبوها أو أصدروها. والإعلان ليس مؤلفًا لأنه يعتبر سريع الزوال ووضعه فريق من الناس لا فرد واحد. أما النصوص الأدبية فلعلها نصوص صنفت بوضوح بأنها نصوص مؤلفة وإن كانت ملكيتها الإبداعية مشكوكًا فيها، ذلك أن النصوص الأدبية تصاغ أكثر من غيرها من النصوص فى رد فعل لنصوص أدبية غيرها وضمن قيود فرضتها هذه النصوص الأخرى. ولعل النصوص الأدبية هى الأكثر تداخلاً نصيًا من جميع النصوص بالإحالة إلى نصوص أخرى من حيث التلميح الأدبى، ومن حيث بناها الشكلية (الصوت السردى، الحبكة، الشخصية، وما إلى ذلك)، ومع ذلك فهذه هى النصوص التى يعتقد أن إبداعية كاتب واحد بلغت فيها القمة. والمفاهيم الرومانسية الخاصة بالقرن التاسع عشر عن الفنان المبدع هى التى تغذى مفهومنا عن التأليف الأدبى. تقول دايان مكدونل:

«إن مفهوم "المؤلف" باعتباره مصدرًا مبدعًا حرًا لمعنى كتاب يعزى للأنماط القانونية والتعليمية للخطاب الإنسانى الليبرالى التى نشأت فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر؛ وهو ليس مفهومًا موجودًا ضمن لغات خطاب نشأت حديثًا»[١].

(1) Macdonnell, 1986: 3.

ويطرح فوكو فكرة الإبداع للتساؤل ويقول إن من النادر أن يقال شيء يتسم بالأصالة، وحتى حين تظهر فكرة جديدة فهى تظهر ضمن حدود ما جال بالخاطر من قبل؛ وبالتالى فعندما تنشأ فكرة جديدة فإن فوكو يتساءل عن فكرة الملكية: هناك عوامل أخرى عديدة تدخل فى إنتاج الأفكار الجديدة بغض النظر عن ذكاء الفرد نفسه. وهكذا فإن تحليل فوكو يركز على شروط قبول الأفكار الجديدة وقد يسعى لتحليل أفكار وابتكارات أخرى لم يقرها المجتمع ولم يصنفها ضمن ما هو مقبول فى أطره المرجعية.

من الأمثلة على ذلك المناقشات التى دارت فى العالم الغربى على مر التاريخ حول كيفية إيجاد تقويم دقيق يتوافق مع تعاقب الفصول ومختلف الأعياد المسيحية كعيد الميلاد ولا سيما الفصح[١]. وكان يبدو واضحًا للناس فى الماضى أن التقويم لم يكن يوافق فصول السنة بدقة حيث كان منتصف الصيف يحل أحيانًا فى الخريف، ومع ذلك فحين عرض العالم والراهب روجر باكون على البابا كليمنت فى سنة ١٢٧٢ أن التقويم بحاجة للتعديل وأنه أوجد طريقة أدق لقياس حركة الأرض فى علاقتها الشمس والقمر اتهم باعتناق "بدع مشبوهة"[٢]. ونظرًا لأن دليل باكون الفلكى لم يوافق المعتقد المسيحى السائد آنذاك فإنه أودع السجن ومنعت حلقته الدراسية. ولم يصحح التقويم وفق عقيدة باكون إلا فى القرن الثامن عشر.

إن فوكو لا ينفى وجود أفراد مبدعين؛ بل يقول إن الأفراد جميعًا مبدعون محتملون فى إطار الحدود المنطقية التى تساعد على إنتاج الأفكار والنصوص. وأغلب الناس تهن قدراتهم على الإبداع فى سن مبكرة تحت وطأة ضغوط المجتمع عليهم حتى يتطابقوا من خلال نظام التعليم. ولعله يتساءل عن الفرضية البسيطة التى ترى أن الناس ينقسمون إلى مجموعة شديدة الصغر من العباقرة كأينشتاين

---

(1) Duncan, 1999.

(٢) المرجع نفسه، ص٨.

وشكسبير ودافنشى، وبقية الناس من غير القـادرين علـى التفكـير المبـدع (وهى فكرة تتحدى متغيرات القيود المنطقية).

كل هذه الآليات الخاصة ببناء المعلومة وتقييدها وتداولها لها نتيجة متشابهة، وهى أنها تسفر عن إنتاج الخطاب بيد أنها أنماط معينة من الخطاب دون غيرها. فهى تؤمن قيودًا محدودة للغاية وتحدث فى حدود محددة ومعترف بها بوضوح تام، ما يضمن أن تتسم المعرفة الناتجة فى فترة بعينها بقدر من التجانس. وليس المقصود بذلك أن كل الأفراد فى حقبة ما يتفقون على رؤية واحدة للكون، بل المقصود أن كل المقولات والنصوص المتفق عليها تنشأ داخل قيود منطقية متشابهة.

النتـائـج

ما يمكن أن نخرج به من هذه المرحلة البنيوية من أعمال كل من بارث وفوكو عن البنى المنطقية هو أن الخطاب يتكون من مجموعة من القواعد غير المكتوبة. وقواعد إنتاج الخطاب لا يضعها بالضرورة فرد واحد أو جماعة واحدة من الناس، ولا تنشأ لمصلحة جماعة بعينها، ولو أنها قد تخدم بعض المصالح فى الحقيقة. وعشوائية البنى المنطقية هذه محرجة لكثيرين؛ فلدينا هنا شعور بأن أفكارنا ومقولاتنا لا تنشأ عن إرادتنا الفردية أو ذكائنا؛ بل نرى أن ما نعبر عنه وما نظن أننا نريد أن نعبر عنه مقيد بنظم وقواعد تخرج عن سيطرة البشر بصورة ما. وهى ليست نظمًا ندرك دائمًا كنهها، وليس لنا أن نبدأ فى الوعى بالأطر التى ينشأ فيها الخطاب ونبنى فى داخلها مقولاتنا وأفكارنا إلا من خلال نوعية العمل الأثرى التى بدأها كل من فوكو وبارث. فالنظرية بعد البنيوية وبعد الحديثة قوضت كثيرًا من الدعائم النظرية للبنيوية ووضعت وجود البنى فى مجملها موضع الشك. ومع ذلك فإن هذا العمل المبكر لكل من بارث وفوكو دفعنا دفعًا للتفكير فى أصل الأداة التى نفكر داخل حدودها.

(٤)

النظرية النسوية ونظرية الخطاب

نستكشف فى الفصلين التاليين مجالين بحثيين سعى المفكرون فيهما إلى تعديل ما كتب فوكو عن الخطاب؛ ففى هذين الحقلين (النظرية النسوية فى هذا الفصل، ونظرية الخطاب الاستعمارى وبعد الاستعمارى فى الفصل الذى يليه) سعى المفكرون لأن يجعلوا مفهوم الخطاب يعمل فى خدمة أغراض سياسية، وبالتالى كان عليهم أن يجدّوا لكى يجعلوا بعضًا من الإمكانات السياسية لتنظير الخطاب أكثر وضوحًا مما فعل فوكو. فالنظرية النسوية تعول بشدة على مفهوم نظرية الخطاب عند فوكو. وهناك فى الآونة الأخيرة عدد من الأعمال عن النظرية النسوية يستكشف استخدام مصطلح خطاب لأغراض نسوية[١]. وبدون أن نتورط فى مناقشات نظرية نسوية عن استخدامات كتابات فوكو نهدف فى هذا الفصل إلى تناول استخدامات النظرية النسوية لمصطلح خطاب بعد تحويله عن استخدامه الأصلى عند فوكو. فيناقش هذا الفصل طرق استخدام الخطاب باعتباره مصطلحًا فى التحليل، ويبين إمكانات الخطاب فى التحليل النسوى.

قد يبدو من قبيل المفارقة أن نستخدم كتابات فوكو فى النظرية النسوية، فكتابات فوكو كما ترى ميغان موريس لا يسهل ترجمتها إلى هموم نسوية؛ فكتاباته عن الجنسانية لا تكاد تمس مسألة الاضطراب العصبى النسائى، وهو يقينًا ليس

(1) منها مثلاً Diamond and Quinby, 1988; Smith, 1990; Mills, 1991; Sawicki, 1991; McNay, 1992; Thornborrow, 2002.

المفكر الذى يتناول قضايا النوع فيما يخص المرأة[١]. ونظرًا لصعوبة الخروج بنهج سياسى واضح ضمن رؤية فوكو عن الخطاب فقد يبدو من قبيل المفارقة أيضًا أن هذه الكتابات استغلت على نطاق واسع فى النظرية النسوية. ومع ذلك فنظرية الخطاب تتميز بخصوبة خاصة نظرًا لاهتمامها بقوة التنظير.

يهتم مفكرو النظرية النسوية بصورة عامة بتحليل علاقات السلطة والطريقة التى تفاوض بها المرأة باعتبارها فردًا وباعتبارها عضوًا فى جماعة فى علاقات السلطة. والكتابات النسوية الحديثة ابتعدت عن اعتبار المرأة مجرد فئة مظلومة وضحية لهيمنة الذكر وتسعى لإيجاد سبل لتحليل السلطة بصورتها الظاهرة وما تلقى من مقاومة فى علاقات الحياة اليومية. وكما أوضحنا فى الفصل الثانى عن الخطاب والإيديولوجيا فالطريقة التى يصاغ بها الخطاب تسمح بهذا الشعور بتعقيد علاقات السلطة. ولتحليل فوكو للسلطة تأثير بالغ على مفكرى النظرية النسوية، إذ يبدو ممكنًا وضع نموذج لعلاقات السلطة يتسم بقدر من التعقيد ويمكن أن يتعامل مع متغيرات أخرى كالعرق والطبقة دون أن يعطى الأولوية لأحدها على غيره. وفى حين لا يزال المفكرون الماركسيون المتشددون يعتبرون الطبقة العامل الأهم فى قهر بعض الفئات ويعتبرون النوع أحد صور الاستغلال الثانوى فإن أى تحليل فوكوى سيرى الهموم الطبقية مندمجة مع الهموم المتعلقة بالنوع، ولو أن أحد هذه العوامل قد يبدو مسيطرًا فى لحظة ما. تقول آن مكلينتوك فى تناولها لإمكانية الفصل بين النوع والعرق والطبقة فى وصف علاقات السلطة فى ظل الاستعمار:

«لا سبيل لفهم النزعة الاستعمارية دون نظرية لعلاقات السلطة. فقوة النوع لم تكن الغشاء الخارجى للإمبراطورية أو لمعة زائلة تكسو الآليات القاطعة للطبقة والعرق. بل كانت ديناميات النوع من بدايتها ضرورية لتأمين المشروع الاستعمارى والحفاظ عليه»[٢].

(1) M. Morris, 1979.
(2) McClintock, 1995: 6-7.

وهكذا ينشأ النوع دائمًا من خلال قوى العرق والطبقة ويحدد الطريقة التى تتم بها تجربة العرق والطبقة وتقنن.

أصر أنصار النظرية النسوية منذ ستينيات القرن العشرين على فكرة أن «ما هو شخصى يعد سياسيًا»، وحتى فى هذه اللحظة بعد النسوية أو الموجة الثالثة من النسوية لاتزال العبارة تجد صدى لدى كثيرين[1]. ولا يزال هذا الشعار رائجًا لأسباب عدة، أولها أن النشاط السياسى السائد لم يهتم بما اعتبره ضمن النطاق الخاص إلا مؤخرًا، أى قانون رعاية الطفل والعمالة المنزلية والاستغلال الجنسى والعنف المنزلى وقضايا حقوق الإنجاب. كما أن كثيرًا من أنصار النظرية النسوية أصبحوا ينظرون للنشاط السياسى السائد (أى التصويت والحشد والسياسة الحزبية وطلبات الاستجواب وما إلى ذلك) على أنه غير مجدٍ فى حل المشكلات الملحة فى حياتنا. وأخيرًا فعبارة «الشخصى يعد سياسيًا» تجد صدى لأن المشكلات التى كانت كثرة من النساء تعتبرها من اهتماماتهن أو بسببهن، كالمنازعات حول تحديد مسؤولية رعاية الطفل والأعمال المنزلية، أصبحت تعد مشكلات هيكلية وبالتالى سياسية لا مجرد شؤون فردية تناقش بين الأزواج فى إطار الأسرة. هذا الانشغال بإعادة تحديد نطاق السياسى كان همًا اجتنب فوكو إليه، فيقول:

«إذا قلتَ إن "كل شىء سياسى" فهذا معناه أنك تدرك الوجود الكلى لعلاقات السلطة وملازمتها لمجال سياسى؛ لكن معناه أيضًا أن تكلف نفسك عناء حل هذه المعضلة المعقدة الغامضة»[2].

وهكذا فمراجعة فوكو لنموذج علاقات السلطة مفيدة للغاية بالنسبة لمفكرى النظرية النسوية ممن يسعون لإعادة إدراج "السياسى" فى النطاق الخاص ورسم خارطة للاستراتيجيات الممكنة لتحقيق التغيير فى نظام سلطة يزداد تعقيدًا. هذه

(1) Mills, 2003c.
(2) Foucault, 1979b: 72.

الفكرة عن بنية علاقات السلطة التى تشبه شبكة العنكبوت هى الفكرة التى اعتبرها مفكرو النظرية النسوية مجدية لا سيما وأنها تمكن المرأة من مقاومة الممارسات القهرية فى حياتها اليومية ومن رؤية هذه المقاومة على أنها فعل سياسى. وبدلاً من اعتبار المرأة ضحية فى الحوار مثلاً تمكن أنصار الحركة النسوية من تحدى فكرة أن هناك نمطًا من اللغة يتسم بالقوة مقصورًا على الرجل؛ تقول ثورنبورو:

«نحن بحاجة للتفكير فى صور بعينها من الأفعال الخطابية منها الصمت لتكون موارد تفاعلية متوفرة للمتحدثين فى أوضاع عديدة مختلفة بدلاً من اعتبار بعض أنماط التعبير أقوى فى ذاتها من غيرها أو أضعف. أما أى الموارد يختار المتحدث وأى النتائج التفاعلية يترتب على هذا الاختيار فيتوقف على أى عدد من العوامل الفاعلة فى السياق المقصود. وهذه ستكون دائمًا مسألة "لحظية"»[١].

هذه الفكرة عن استخدام المرأة الموارد المتاحة فى الحوار لمواجهة الغبن فى المكانة أثبتت فعالية بالغة وتصدت للفكرة المشيأة عن السلطة باعتبارها حيازة.

ونود أن نلقى الضوء على بعض مفاهيم استمدها مفكرو النظرية النسوية من كتابات فوكو وغيرت فكرتنا عن كنه الخطاب تغييرًا كبيرًا. ونمطى الخطاب اللذين ميزهما فوكو واستغلا لأغراض نسوية وسنتناولهما فى هذا المقام هما خطاب الاعتراف وخطاب الأنوثة. ونواصل بعد ذلك لنتناول نفاذ المرأة للخطاب، والنزاعات بين البنى الخطابية.

خطاب الاعتراف

الاعتراف من أنماط الخطاب التى تناولها فوكو فيما يتصل بالمجتمع النظامى المهم بالنسبة لمفكرى النظرية النسوية. ففى كتابه "التأديب والعقاب"[٢]

---

(1) Thornborrow, 2002: 33.
(2) Discipline and Punish, 1979a.

يتناول التغيرات التى طرأت على أسلوب إدارة العقاب على مخالفات القانون من العصور الوسطى إلى الآن. فلتشجيع المواطنين على طاعة القانون والحفاظ على الأوضاع فى العصور الوسطى كان العقاب ينفذ فى الأفراد علنًا ليكونوا عبرة لغيرهم- من مغبة الانحراف الاجتماعى. فكان العقاب يُعرض بصورته المادية متمثلاً فى جثة "المجرم" المعذب والمشوه والجثث المتدلية على المشانق والرءوس المعلقة على جدران المدن والتقطيع إلى أربعة أجزاء فى عمليات الإعدام العلنى. ولم يعد هذا النوع من العقاب ينفذ فى ثقافات الغرب الراهنة؛ وبدلاً منه تتخذ إجراءات لإعادة تأهيل من يصنفون مجرمين وإرغامهم على الاندماج فى نظام تأديبى يقوم سلوكهم فى المستقبل[١]. ويرى فوكو أن المحكوم عليهم بأنهم مجرمون ليسوا وحدهم الذين يخضعون لهذه البنى التأديبية، بل الأهالى جميعًا. والنظم التأديبية المطبقة فى السجون امتدت لتطبق فى نطاقات أخرى كالمدرسة ودار العبادة والبيت حتى يستلهم الأفراد النظام ويشرعون فى تطبيقه ذاتيًا.

من الممارسات التى تؤدب بها الذوات الاعتراف. ولعل الخطاب هو ما يصور عمل السلطة فى أجلى صورة. ويصف فوكو الاعتراف فيما يلى:

«الغرب المسيحى اخترع هذا القيد العجيب وفرضه على الجميع، ليقول كل شىء ويمحو كل شىء، ليصوغ حتى الهفوات الطفيفة فى همهمة يائسة لا تتوقف ولا يفلت منها شىء»[٢].

---

(١) مع ذلك تظل هناك دائمًا بقايا من هذه الممارسات القديمة فى لغات الخطاب الراهنة عن القانون والنظام؛ ففى حين ظل الخطاب الإصلاحى سائدًا فى السجون منذ القرن التاسع عشر هناك دعوات تظهر مع تولى الحكومات اليمينية السلطة لجعل بعض العقوبات علنية كنظام الصدمة الحادة القصيرة التى أقرت فى عهد حكومة المحافظين فى ثمانينيات القرن العشرين.

(2) Foucault, 1979c: 84.

فكرة الاعتراف هذه ثبت جدواها بالنسبة لمفكرى الحركة النسوية إذ حللوا أدب السلوك وكتابات المرأة الدينية والصلة بين الاعتراف والامتثال لعلاقة سلطة. ومن اعترفوا وعرضوا أنفسهم باعتبارهم ذوات طيعة بنوا أنفسهم عند فوكو باعتبارهم ذوات طيعة. فالعلاج بالتحليل النفسى مثلاً يبدو عند فوكو مثالاً للتأديب الاعترافي حيث تدمج الذات المشكلة فى نفسها كأنها جزء منها ضمن بوحها لمعالجها بما تعانى من صعوبات. فتتحول الذات إلى "حالة" ضمن إدخال نفسها فى الخطاب الاعترافى التحليلى النفسى. ولاحظ مفكرو الحركة النسوية لبضع سنوات أن المرأة تصنف ضمن المرضى عقليًا ومن يعانون الاكتئاب بأعداد تفوق الرجل بكثير؛ كما أن احتمالات دخول المرأة مصحات الأمراض العقلية تفوق مثيلاتها عند الرجل بسبب مشكلات واحدة[1]. والاعتراف الذى تتحدث المرأة فيه عن مشكلاتها قد يستخدَم وسيلة للتعامل مع هذه المشكلات، مما لا يعد فى صالح المرأة. وهذه المشكلات قد لا تكون المرأة وحدها التى تعانيها، بل قد تعزى للمطالب غير الحقيقية التى يفرضها المجتمع على المرأة. فمطالبة المجتمع للمرأة بأن يكون لها شكل بعينه للجسم وأنواع بعينها من السلوك الطيع قد ينتهى بسلوك مثل فقدان الشهية للطعام والنهم والاكتئاب ونوبات الغضب، وكلها علل قد يصنفها المعالج بأنها اضطرابات عقلية فى "المريضة".

وعملية إنتاج ذوات طيعة ليست بهذه السهولة فى رأى بعض مفكرى الحركة النسوية. وحتى فى أثناء إنتاج المرء ذاته باعتباره شخصًا يعانى صعوبات انفعالية قد تكون هناك مواقع مقاومة تنتج فى الوقت نفسه؛ وبدلاً من اعتبار الصعوبات مسؤولية المرء أو بسببه قد يبدأ المرء فى أثناء العلاج فى اكتشاف أن الصعوبات النفسية قد تتسبب فيها قوى مجتمعية أكبر وأفراد غيره وجماعات اجتماعية أخرى. ففى مقال لها بعنوان "ك مريضة عقليًا" تشير دوروثى سميث

(1) Showalter, 1987; Feminist' Review, 2001.

وهى من مفكرى الخطاب الأنثوى وباحثة فى علم الاجتماع إلى توصيف المرء نفسه بأنه مريض عقليا باعتباره عملية تحددها تقديرات للسلوك تجرى عكس المعايير الخطابية[1]. ونظرًا لأنه إجراء خطابى فهو عرضة للمراجعة وإعادة الصياغة. فالتأويل كسائر النصوص يتوقف على السياق الذى يجرى فيه الاعتراف. وحين يتم العلاج فى جو مؤسسى عام فقد يحدث أن تشخص المرأة بأنها مختلة عقليًا وقد يلقى اللوم عليها لما تعانى من صعوبات عاطفية. ولكن فى سياق العلاج الأنثوى قد تقوم تفسيرات أخرى على المادة. فكثير من أنصار الحركة النسوية يعتبرون "الاعتراف" وبالتالى وضع المرء نفسه ضمن فئة أو جماعة سياسية أكبر (كأنصار الحركة النسوية والسحاقيات والسود والمرأة العاملة) عملية قد تفرز قدرًا من مقاومة القهر. وجماعات "رفع الوعى" فى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته كان هدفها تغيير السياق الذى "تعترف" فيه المرأة بما تعانى من مصاعب وهى تلبى متطلبات المجتمع. وكان البوح بكل شىء فى حياتك لغيرك يعد وسيلة لاستنباط ذلك السرد بحيث يمكن صوغ أسباب مختلفة ومسارات مختلفة. وهكذا ففى حين يعتبر أنصار الحركة النسوية الاعتراف شكلاً قهريًا من التفاعل يصنف فيه المعالجون النفسيون المرأة مثلاً بأنها مريضة عقليا. وقد يمكّن الاعتراف فى سياقات مسيسة بعينها وذلك بوضع حكايات "الفشل" و"لوم النفس" فى سياقات يمكن اعتبار هذه "الإخفاقات" نفسها فيها مشكلات هيكلية ضمن متطلبات الثقافة الغربية من المرأة[2].

ولرؤية الطريقة التى تغير بها نظرية الخطاب الأنثوى تنظير فوكو لجوانب الاعتراف دعنا نتأمل هذه الفقرة من مذكرات امرأة فى القرن السابع عشر تدعى أليس ثورنتون دونتها عقب موت وليدها الرضيع:

---

(1) Smith, 1990: 12-51.
(2) Baker-Miller, 1978; Eichenbaum and Orbach, 1982; Wilkinson, 1986.

«١٦٥٨: استمر وهن جسمى لمدة طويلة عقب ولادتى العسيرة لابنى لدرجة أن أصابنى الهزال وفقدت الأمل أيامًا فى شفائى. وعندما شفيت ظللت أعرج بركبتى اليسرى لثلاثة أشهر بعد المخاض. لكن هذا لم يك شيئًا مما أستحق من يد الرب لولا أن أنقذ حياتى برحمته. فالرب يذكرنى برحمته وبأنى لا ينبغى أن أنسى أنه مد لى يد العون لإنقاذى أنا المخلوقة الضعيفة وأنى يجب أن أمجد الرب وأشكره بكل روحى وألا أفقد الأمل فى الرب فى خلاصى، بل أحيا بقية العمر الذى كتب لى فى مجده وعزته»[١].

فى تحليل فوكوى تقليدى يمكن أن يصنف هذا ضمن الاعتراف، فهو يمثل ذاتًا ممتثلة تتقبل كافة المصاعب باعتبارها نذيرًا بالحاجة لمزيد من الامتثال لقوة الرب. وما التقارير التى تقدمها عن مرضها ومعاناتها سوى أدوات لبيان تفاهتها أمام سلطانه وقوته إذ يصوَّر على أنه شديد الرحمة حتى عندما يبدو شديد القسوة. ومع ذلك ففى أى تحليل لنظرية الخطاب الأنثوى هناك إحساس بأن هذا البيان يعد عابرًا. وقد نرى أن الكاتبة فى إنتاجها روايات من هذا النوع تبنى نفسها باعتبارها ذاتًا خاشعة، أى بوصفها عضوًا مطيعًا فى جماعة دينية، وهو وضع يتسم بقدر من القوة ضمن المجتمع الذى تعيش فيه حيث لا احترام إلا للذوات الأنثوية "الخيرة" (أى الطيعة التقية)[٢]. ولكن يمكن لنا فى الوقت نفسه أن نرى أن كم العمل المطلوب لتحويل ذلك إلى وصف لنعمة الرب هائل؛ فيسهب وصف أليس ثورنتون فى مجمله فى سرد ما ألم بها من نوازل تتمثل فى حالات الوفاة فى الأسرة وفقدها وليدها ومرضها. وكما سبقت الإشارة فى الفصل السابق فضمن هذه البنية الفكرية

---

(1) Thornton نقلاً عن Grahamet al. 1989: 154.

(٢) قد نزيد الأمر تعقيدًا بقولنا إن الأدبية تكتسب بعض القوة من وضعها ضمن الفئة غير الممتثلة التى كانت تنتمى إليها. واتخذت جانب لغات الخطاب الدينية الخاصة هذه فى كتابة هذه المذكرات، وهذه الفئات اكتسبت القوة بدورها فى المجتمع باعتبارها معارضة وهدامة (Hobby, 1988).

ذاتها حيث تأول الأحداث المادية بمغزاها الغيبى يمكن اعتبار المرض الجسمانى نذيرًا بسخط الرب عليها مثلاً. تكتسب قدرًا من القوة الشخصية فى الخطاب من خلال قدرتها على إرغام هذه المصاعب على التحول إلى أمارات على رحمة الرب وطيبته لا على غضبه. فصورة امرأة "تتحدث صراحة" ولو فى نطاق مذكراتها الذى يبدو خاصًا تعتبر هدامة إلى حد بعيد إذا أخذنا قيود القرن السابع عشر فى الاعتبار. وهكذا فبدلاً من أن يكون وضعًا ينم عن امتثال هناك احتمالات ضمن خطاب الاعتراف لأن يكتسب المرء قوة. ومن خلال فعل كتابة اعتراف يمكن للمرء أن يقترب بذاته وبأفعاله من الرب وبالتالى من وضع قوة. فهذه السير الذاتية تقرّب الذات من قوة الرب بعرضها نفسها على أنها مفعول لرحمة الرب. كما أن المذكرات لم تكن تُكتب فى القرن السابع عشر لمجرد أن يبين الكاتب أنه عبد "صالح"، بل لكى يبوح بالحقيقة. وإذا كانت فكرة الحقيقة هذه صعبة فى فكر فوكو كما رأينا لدى تناولنا الصلة بين الحقيقة والمعرفة فى الفصلين الأول والثالث فمن الممكن لامرأة أن تكتب بطرق لينة وتتدخل فى الوقت نفسه تدخلات استراتيجية قوية فى تصويرها ذاتها وفى تفاعلاتها مع غيرها فى الدنيا.

يمثل كتاب دوروثى سميث (١٩٩٠) إسهامًا مهمًا فى الفكر الحالى المتعلق بالخطاب، فهى لا ترى فى الخطاب شيئًا يخضع له المرء، بل أداة تستعين بها الذوات فى تفعيل الصلات الشخصية مع الامتثال لبعض العناصر واعتراض غيرها بفعالية. وكما أوضحنا فى الفصل الثالث فإن غفلية البنى الخطابية تعد مشكلة نظرية إذ لا تسمح لك بتعقب سبب أمر أو حدث ما بسهولة، فى حين لا يزال ممكنًا تحديد موضع القوة الفردية دون الخضوع للتأويلات المغالية لآراء فوكو عن الخطاب باعتبارها منفصلة عن الجسد، ولا لصيغ النزعة الفردية الساذجة. فالنصوص كما تؤكد سميث ليست منبتة بصورة ما عن السياقات الاجتماعية والمشاركين الفرادى لأننا نحللها من ناحية بناها الخطابية. والأمر يستحق منا أن نورد فقرة مطولة من عند سميث لاستكشاف هذا الشعور بالرسوخ الاجتماعى للخطاب:

«مفهوم الخطاب يزيح التحليل عن النص باعتباره ناشئًا عن الأديب أو المفكر ويوجهه إلى الخطاب نفسه باعتباره عملية بين نصية متصلة. ومفهوم الخطاب له فى سياق التأصيل الفوكوى بعض مما للبنيوية من قوة فى إزاحة الذات أو اختصارها فى مجرد حامل لعمليات شاملة خارجة عنها. وتحليل العلاقات الاجتماعية الممتدة للعمليات الاجتماعية المعقدة يتطلب من مفاهيمنا أن تشتمل على خصائص وعمليات لا سبيل لأن تعزى أو تختصَر فى "عبارات" فردية أو "أفعال كلامية". والتنظيم والعمليات المتواصلة لتنسيق مواقع متعددة ينتجه أفراد حقيقيون لكن أنماط التنظيم لا تضبطها مجموعة أو مجموعة فرعية من هؤلاء الأفراد. وأطراف الخطاب يتجهون إلى نسق الخطاب فى الحديث والكتابة وخلق الصور سواء فى النصوص أو على أجسامهم والذى يحدده النسق المتصل الذى هو إنجازهم الجماعى المنظم وينشأ عن التنظيم الجماعى»[١].

فى هذا التناول للخطاب تريد سميث أن توجد رؤية عن الخطاب أكثر اجتماعية وارتباطًا بالسياق تهتم بما تعمله الذوات الفردية فى داخل البنى الخطابية ومن خلالها بدلاً من افتراض أن لغات الخطاب تجبرنا على التصرف بطرق بعينها.

لغتا خطاب الأنوثة والسواء الجنسى

نود هنا أن نتناول كيف أثبتت نظرية الخطاب جدواها بالنسبة لمفكرى الحركة النسوية مما يسعون لوصف بنيتى الأنوثة والغيرية الجنسية. فإذا اعتبرنا ما كتبته دوروثى سميث عن الأنوثة خطابًا، حيث تمارس المرأة وضعها ودورها فى عملية التفاوض حول القيود الخطابية، لرأينا كيف أن الركون إلى فكرة الخطاب تعد تطورًا مهمًا من التنظير النسوى الأول الذى كان يعتبر الأنوثة مجرد تصنيف إيديولوجى مفروض وبالتالى كان يميل لطرح المرأة فى صورة ضحية سلبية للقهر[٢].

---

(١) المرجع نفسه، ص١٦١-١٦٢.

(2) Mills, 1992b.

لنبدأ بتناول كتابات الحركة النسوية الأولى حتّى نمحص مميزات نظرية الخطاب بصورة أعمق. فأنصار الحركة النسوية ممن يرون الأنوثة إيديولوجيا تخضع لها المرأة يعتبرون الأنوثة متجانسة وتؤثر على النساء جميعًا بطريقة واحدة؛ والإيديولوجيا باعتبارها بنية لا تسمح للتأثيرات المختلفة نسبيًا بأن تؤثر على مختلف فئات النساء، ولا تسمح بوجود بنى إيديولوجية مختلفة لفئات أو توجهات جنسية مختلفة. وهكذا فالأنثى الغيرية جنسيًا والتى تعتبر نفسها أنثى قد تختلف سلوكياتها عن سحاقية ترى نفسها أنثى. وقد تكون ثمة نتائج وتأويلات مختلفة لهذه السلوكيات الأنثوية: فإذا ارتدت "سيدة" سحاقية ثيابًا أنثوية ناعمة قد تعد سحاقية "أحمر شفاه" تحاكى الأنوثة الغيرية جنسيًا، فى حين أن الأنثى الغيرية قد تأول على أنها تبدى الخضوع للذكر. وليس من الواضح فى أى تنظير إيديولوجى سبب قبول المرأة بنى الأنوثة هذه التى تصور على أنها تقيدها، ففى هذا النوع من التنظير يبدو واضحًا أن ليس من مصلحتها أن تقبلها[1]. كما أن نموذج الأنوثة هذا لا يبين كيف تقاوَم الأنوثة لو كانت سمة بهذا القدر من السلبية بدلاً من أن تُرفض فى مجملها. ففكرة الأنوثة باعتبارها نمطًا اجتماعيًا يتسم بقدر من الصرامة لا يسمح بإمكانية التغيير، بل يصور المرأة كأنها متلقٍ سلبى. ويفترض فى هذا النوع من الفكر أن «الصور

---

(١) مع أن مفهوم الهيمنة فى التحليل الإيديولوجى يستعان به فى وصف العملية التى يتصرف بها الأفراد بطرق ليست فى صالحهم وبالتالى تؤدى إلى ما يعانون من قهر فإن أنصار نظرية الخطاب يرون أن هذا يظل يستوجب رؤية سلبية تمامًا للطريقة التى يقاوم بها الأفراد الإيديولوجيات ويعمّلون من خلالها ليبنوا شعورهم بذواتهم. ويهتم أنصار نظرية الخطاب النسوى بالمميزات التى تعود على المرأة من المشاركة فى بنى منطقية بعينها. وكتاب بيف سكيجز الذى يدور حول سبب اتجاه المرأة إلى الاستثمار بشدة فى الأنوثة عندما لا تجد التقدير فى المجتمع له أهمية خاصة فى هذا الصدد (Skeggs, 1997).

النمطية للأنوثة ... بنى من صنع الرجل»[١]. ومع ذلك فالمرأة والرجل يشاركان بنشاط فى الحفاظ على لغات الخطاب هذه ويعملان على تفكيك عناصر منها وإحلال عناصر مثمرة محلها. وأخيرًا فالأنوثة يتم تناولها فى التحليلات الإيديولوجية كأن ليس لها إلا معنى واضح واحد؛ فالمرأة التى تتصرف بصورة أنثوية لا تأول إلا بأنها تظهر الضعف أو الإذعان[٢]. وهكذا فالمفكرون الذين يسعون لصد بعض من هذه الآراء السلبية عن الأنوثة لم يتمكنوا من ذلك إلا بإعادة تقويم الخصائص الأنثوية؛ فتقول جان بايكر ميلر إننا ينبغى أن نعتبر سمات الأنثى (الحدس والحساسية والعاطفية) طريقًا لإيجاد مجتمع أفضل وأكثر إنسانية[٣]. ومع ذلك فمكونات الأنوثة ليست مشفرة بوضوح من حيث معناها كما هو مفترض. فترى كل من كريس كريستى وكلير والش أن المرأة قد تستعين استراتيجيًا بعناصر من الخطاب الأنثوى فى تقديمها نفسها فى النطاق العام حين تجد أن الاستعانة بأساليب التعبير الذكورية التنافسية ليست أكثر أنماط السلوك فعالية[٤]. وحين تستخدم المرأة هذه الأساليب الكلامية استراتيجيًا لا يعود ممكنًا لنا أن نفترض أن هناك صلة ما بين الأنوثة والضعف، ولا يمكن لنا أن نفترض أن الاستعانة بها تعكس شيئًا عن النساء الفرادى اللائى يستعان بها فى تحقيق أغراضهن.

---

(1) Palmer, 1989: 33.

(٢) هذا تبسيط لموقف مفكرى الحركة النسوية الإيديولوجيين لإيضاح الفارق بين أنصار الحركة النسوية والنقاد الماركسيين. ومع ذلك فمن الواضح أن كثيرًا من النقاد الماركسيين ونقاد الحركة النسوية الماركسيين يعتبرون الإيديولوجيا ممزقة وتسوقها التناقضات وليست مفروضة بهذه البساطة (Belsey, 1980; Hennesy, 1993; Landry and Maclean, 1993). وهكذا فهناك احتمالات داخل النقد الإيديولوجى أن "تمسك" الذوات ببعض هذه التناقضات لكى تصوغ وضعية مقاومة ونقد.

(3) Baker-Miller, 1978.

(4) Christie, 2000; Walsh, 2001.

استعانت دوروثى سميث (١٩٩٠) بفكرة خطاب للأنوثة للابتعاد عن الرأى الخاص بالأنماط الاجتماعية المفروضة على الذوات الأنثوية السلبية. وهى تؤكد على أن بنى الخطاب غير متواصلة؛ أى أنها تتغير بمرور الزمن نظرًا لمقاومة المرأة لها ونتيجة للتغيرات التى تطرأ على البنى الاجتماعية. وبما أن الخطاب شىء تعمله (لا شىء تخضع له) فإن الاشتباك مع لغات خطاب الأنوثة يمثل علاقة قوة تفاعلية لا فرضًا للسلطة. وليس للأنوثة معنى واحد، بل تتوقف على عدد كبير من السمات السياقية منها مثلاً علاقات القوة المحسوسة. ونظرية الخطاب تعتبر القوة مشروعة ضمن علاقات وبالتالى شيئًا قابلاً للطعن فى كل لحظة وفى كل تفاعل. وتوضح سميث قائلة: «إن استكشاف الأنوثة باعتبارها خطابًا معناه التحول عن اعتبارها نسقًا معياريًا يعاد إنتاجه من خلال العلاقات الاجتماعية التى تتبعها المرأة بصورة ما. بل تخاطب الأنوثة باعتبارها مجموعة من العلاقات الواقعية التى تتضمنها النصوص»[1]. هذه الطبيعة النصية/الخطابية للأنوثة تجعلها عرضة لفعلى إعادة التأويل وإعادة الكتابة.

لعل ما يجعل هذه النظرة للأنوثة بوصفها خطابًا مقنعة هو أنها بدلاً من اعتبار كتب السلوك وكتيبات المرأة مؤشرات صريحة أو علامات على درجة قهر المرأة يمكن اعتبارها مجرد إشارة إلى مقياس المشكلة التى تطرحها المرأة ومقاومتها للتوجيه بهذه الصورة. ومسألة وجود عدد هائل من كتب السلوك دونت فى القرن التاسع عشر تؤكد لنا أنه كانت هناك مشكلة جوهرية ملحة فى سلوكيات المرأة كانت هذه النصوص تحاول التغلب عليها. ومن الواضح أن المرأة لم تكن التابع الممتثل الذى تسعى هذه الكتب لإنتاجه. فإذا تأملنا الفقرة التالية من كتاب

---

(1) Smith, 1990: 63.

"نصيحة للفتيات عن تطوير الذهن وإدارة الحياة" لتوماس برودهيرست[١] يتبين أن النص يطرح المشكلات بوضوح لا يقل عن وضوح الحلول المقترحة:

«ومن تعمل بإخلاص على الوفاء بواجبات الزوجة والابنة والأم والصديقة مشغولة بصورة أجدى ممن تستغرقها التأملات الفلسفية والأدبية وتحلق عاليًا في سماء الخيال والعاطفة»[٢].

قد تعد هذه النصيحة درسًا للفتيات حتى يكنّ زوجات وأمهات، لكن الكاتب في خضم حثه على أنواع بعينها من السلوك يشير إلى أنماط سلوكية يسعى لتثبيطها. وحتى هو يعجز عن جعلها تبدو قبيحة تمامًا. والفقرة دليل على أن الأدب والتعلم كانا يمثلان عنصرى جذب قويين للفتيات آنذاك ربما على حساب أدائهن واجبات الزوجة والأم المتعارف عليها. وتردد كايت فلينت هذا الرأى فى كتابها عن نساء القرن التاسع عشر وعلاقتهن بالقراءة حيث كانت القراءة نفسها تعد نشاطًا آثمًا وذا خطر ويضر بالمرأة. تقول إ.ج. تيلت مثلاً فى كتابها بعنوان "عن الحفاظ على صحة المرأة فى فترات الحياة العصيبة":[٣]

«الروايات والقصص العاطفية عمومًا ينبغى ازدراؤها حيث إن لها قدرة على استدعاء مشاعر من النوع المرَضى الذى يعود الاستغراق فيه بتأثير ذى خطر على الجهاز العصبى ويكفى لتفسير تكرار حالات الاضطراب العصبى والأمراض العصبية المنتشرة فى الأوساط الأرقى»[٤].

---

(1) Thomas Broadhurst, Advice to Young Ladies on the Improvement of the Mind and Conduct of Life, 1810.

(2) Broadhurst, 1870 نقلاً عن Armstrong and Tennenhouse, 1987: 106.

(3) E. J. Tilt, On the Preservation of Health of Women at the Critical Periods of Life, 1851.

(4) Tilt, 1851 نقلاً عن Flint, 1993: 58.

من الواضح أن القراءة توصف بأنها ذات خطر على المرأة بصفة خاصة نظرًا للارتباك الذى أدى إليه تحول المرأة إلى ذوات نشطة مفكرة من حقها أن تختار أن تكون زوجة وأمًا أو لا تكون. هذا التطور الذى طرأ على "المرأة الجديدة" كان تطورًا حوصر بفيض من كتيبات النصح التى تشير إلى ما يمثله ذلك من أخطار على صحة المرأة العقلية والجسمانية.

إن لغات الخطاب التى سادت فى القرن التاسع عشر فيما يتعلق بمسألة المرأة والقراءة تنم عن الصعوبات الكبرى التى واجهت المرأة فى استيطان البنى الخطابية التى وضعت لها وتؤكد على واجباتها والتزاماتها باعتبارها أمًا وزوجة ولم تدع لها مجالاً للتفاوض حول متعها وتطورها الذهنى. ولغات الخطاب الإرشادية هذه هى وحدها التى تذكرنا بأن لغات الخطاب هذه كانت فاشلة[1]. وبدلاً من اعتبار انتشار كتيبات النصح التى تتناول سلوكيات المرأة دليلاً على قهر المرأة قد نعتبرها مؤشرات على مقاومة المرأة للغات الخطاب هذه.

وهناك مشكلة مماثلة تبرز فى التوعية بخطر المخدرات حيث نجد أن أية حملة للتوعية بخطر المخدرات وضمن تنبيهها النشئ بأخطار تعاطى المخدرات تلفتهم إلى المتع غير المشروعة للمخدرات. وبتصوير تعاطى المخدرات بأنه سلوك خطر ينطوى على مجازفة، تغامر التوعية بخطر المخدرات بإبراز الجانب الذى يخاطب نزوع النشئ للتمرد على الواقع. فكثير من الملصقات الوثائقية الطابع بالأبيض والأسود والتى تنتجها هيئات التوعية بخطر المخدرات لتنبيه النشئ باحتمال تعرضهم للموت إذا ما تورطوا فى تعاطى المخدرات يستعين بها الشباب فى توكيد شعورهم بهويتهم فى دوائر متعاطى المخدرات. وهكذا ففى حين تعمد حملات التوعية بخطر المخدرات إلى منع تعاطى المخدرات فإنها تساعد على إيجاد صور ثقافية مضادة لمتعاطى المخدرات[2]. لذا لا ينبغى تأويل لغات الخطاب

---

(1) Flint, 1993.
(2) Foster, 2003.

بقيمتها الظاهرية؛ فالأفراد يشاركون بنشاط فى لغات الخطاب لكى يتخذوا لأنفسهم مواقف خاصة لتحديد هويتهم.

يقوم المجتمع الغربى لدى دوروثى سميث إلى حد كبير على نصوص الأفعال الاجتماعية التى نتعلم منها مجموعة من المصطلحات والأفعال: «تعلمنا كيف "نتداول" الكلمات بالصورة الصحيحة فى موقف ما يساوى تعلمنا كيفية تنظيمها اجتماعيًا»[1]. وتواصل قائلة:

«بدلاً من صورة للبنية الفوقية وهى تتوازن على طبقات من علاقات الإنتاج يشبه مفهوم خطاب الأنوثة... ثمة شبكة من النصوص تربط المواضع المحلية والخاصة لعالمى الرجل والمرأة اليوميين بالعمليات السوقية فى صناعات الأزياء وأدوات التجميل والثياب والنشر»[2].

بهذا المعنى فالخطاب ليس مجموعة مجردة من الأعراف النصية، بل هو الأرضية التى تنظم عليها العلاقات الاجتماعية. وترى سميث أن الخطاب هو الوسيلة التى يجرى من خلالها التفاوض حول العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. وحيثما صارت الأنوثة ملحة باعتبارها خطابًا تتشكل بؤرة نشاط الأفراد الجماعى – حيث لا تصوَّر المرأة فى صورة المأفون فى إيديولوجيا ما، بل فى صورة من تنشئ لنفسها موضعًا وتشارك فى الأنماط الخطابية:

«عندما يُنظر إلى الرموز والصور كما تستخدمها المرأة وتتلاعب بها وتنفصل عنها وتعارضها يبدو خطاب الأنوثة لا باعتباره نموذجًا مقصودًا لصناعة الأزياء وتلاعبها بالناس كالدمى، بل باعتباره كيانًا اجتماعيًا ينشأ تاريخيًا ويتطور باستمرار تشارك فيه المرأة بنشاط، وأحيانًا الرجل»[3].

---

(1) Smith, 1990: 166.

(٢) المرجع نفسه، ص١٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٤.

بهذا فالمرأة التى تبدو كأنها تستعرض أنوثتها يمكن اعتبارها فاعلاً فى إيديولوجيات القهر لا مجرد ضحية سلبية لها.

إذن فالأنوثة شكل خاص من العلاقات المتحققة نصيًا، أى حيث تمثل النصوص أداة أو تكون فى بؤرة الأنشطة، كما فى كتب السلوكيات أو أعمدة النصح حيث تتفحص القارئة نفسها من منظور نص ما. وما صفحات المشاكل فى مجلات المرأة إلا صور لنساء يجدن صعوبة فى التفاوض على لغات الخطاب؛ وتقدم صفحات المشاكل هذه حلولاً، لكن لها أهمية أيضًا فى تقديم المصاعب التى تعترض أغلب النساء فى الاندماج بالطريقة "الصحيحة" فى المعايير الثابتة للسلوك الأنثوى(١). كما تتفاوض على العلاقات أيضًا بين النساء باعتبارهن ذوات فردية، حيث تساعد على إيجاد موضع للمرأة الفرد فى دائرة قراء مجلة نسائية ما.

ترى سميث أن المرأة تسهم فى لغات خطاب الأنوثة بارتدائها ثيابًا أنثوية ناعمة: «تقدم نفسها باعتبارها نصًا يقرأ مستعينة بمعتقدات الأنوثة بوصفها مخططًا تأويليًا. وتعاد قراءتها فيها باعتبارها نموذجًا أساسيًا لـ "وثائق" الأنوثة التى تعرضها»(٢). ومع ذلك فحتى هذا التحليل بحاجة لبعض التعديل، ذلك أن عرض الأنوثة بهذه الصورة يعد فى المقام الأول عرضًا غيريًا جنسيًا. فهو يفترض أن الإشارات التى تنتجها الوثائق/الثياب مفهومة لكل من يفكون شفرات الرسالة. وإذا وضعنا هذه الرسالة خارج خطاب الأنوثة الغيرية الجنس تُنتج رسائل مختلفة. ولنتأمل السحاقية حين ترتدى ثيابًا أنثوية من باب السخرية لكى تقدم نفسها باعتبارها نمطًا بعينه لفاعل جنسى ما وأيضًا لكى تخلخل المعايير الغيرية الجنس. فى مقال عن نطاق الشذوذ والسحاق يقول ديفيد بل وجون بينى وجوليا كريم وجيل فالنتاين:

---

(1) Mills, 1995b.
(2) Smith, 1990: 177.

«إن الأداء المبالغ فيه للذكورة والأنوثة فى أطر الشذوذ يكشف الطبيعة المفتعلة للغيرية الجنسية بل دعواها بالصدقية أيضًا. فالرجل "الفحل" والمرأة "الأنثى" ليسا تكرارًا، بل يعملان على عرقلة الفرضيات التقليدية المحيطة برسم الخارطة السوية للرجل/الذكر والمرأة/الأنثى فى النمطين الجنسيين الغيرى والشاذ»[١].

ويواصلون قائلين إن «أسلوب أحمر الشفاه قد يجعل المرأة الغيرية الجنس تتساءل كيف يُقرأ مظهرها الخارجى وكيف تنظر إلى غيرها من النساء»[٢]. وهكذا فالمظهر الأنثوى لا يأول ببساطة بأن له معنى واحدًا؛ فالأنوثة قد يكون لها عدد من المسببات والمهام التى تختلف حسب السياق.

ومن المميزات الأخرى التى وجدها مفكرو الحركة النسوية فى نظرية الخطاب ما يتصل بتنظير العلية. فالنقد الإيديولوجى فى بعض المعانى عليه أن يطرح هيئة أو الدولة أو كيانات هيكلية أكبر تخدم مصالحها الأعراف الإيديولوجية. وفى هذا النمط الفكرى يستعان بالذكورة – وهو مصطلح غير متبلور وبلا فاعل – لوصف نوعية المجتمع الذى تُقهر فيه المرأة لصالح الرجل[٣]. ويلقى مفكرو الخطاب صعوبة أكبر فى وصف الذكورة؛ وليس معنى هذا أنهم لا يؤمنون بمنظومة تمييز تعمل لصالح الذكر على حساب الأنثى، بل إنهم لا يعتبرون أن منظومات التمييز تعمل بهذه السلاسة. ولا ينكر مفكرو الحركة النسوية أهمية السلطة المؤسسية (سلطة الدولة والسلطة القضائية والشرطة وما إلى ذلك) لأن من الواضح أن الأدوار تفصلّها هذه المؤسسات للأفراد؛ ولكن ربما كانت أكثر اهتمامًا بوضع خارطة للمواقع التى تقنن فيها السلطة ويجرى التفاوض حولها. فترى جوانا ثورنبورو على سبيل المثال أن من الأجدى أن نفرق بين "الوضع المؤسسى" للمرء، وهو الوضع

(1) Bell et al., 1994: 33.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٢.

(3) Walby, 1990.

المخصص لك والذى تتفاوض فى حدوده المحددة بصورة صارمة على وضع لنفسك، و"الوضع المحلى"، وهو الوضع الذى يتفاوض المرء حوله لنفسه من خلال المهارة الشفاهية والمعرفة والتعاطف والمودة وما إلى ذلك(١). وهناك فكرة واتتنى عن الفارق بين "وضع" المرء و"قوته التفاعلية"، أى الوضع الذى يمكن للمرء أن يتفاوض حوله لنفسه فى دائرة أعراف بسبب الطريقة التى يركن بها المرء إلى الموارد اللغوية، وهو وضع قد يتضارب مع وضع المحدد للمرء فى جماعة(٢).

ومن خلال نظرية الخطاب يمكن أن نرى أن الأعراف التى تقهر المرأة غير موحدة، لأن المرأة ليست جماعة متجانسة؛ فمن النساء من تتفاوض لنفسها على وضع فى سلطة ممأسسة، وتحصل غيرها على السلطة بالتفاوض على وضع يبدو بلا سلطة أسند لها. وهناك بنى خطابية ومؤسسية تقهر المرأة، والمرأة بدورها إما تنصاع لها أو تقاومها. من ثم فالتحليل النسوى يركز على لغات خطاب لا على خطاب واحد باعتباره السبب أو أحد العوامل المحدِّدة فى خضوع المرأة. ولغات الخطاب هذه كما سبق أن أشرنا تتضارب مع سائر لغات الخطاب وترغمها على تغيير بنيتها وفحواها وتتيح للمرأة والرجل مساحات يقاومان فيها وينشئان إحساسهما بالذات.

فى سعيها لتنظير الأنوثة تطرح ساندرا بارتكى (١٩٨٨) مسألة "جذور" قهر المرأة والسلطة الذكورية. وتستعين بنظرية الخطاب فى تحليل فقدان الشهية للطعام والذى تعتبره المحصلة الخطابية للبنى الخطابية للأنوثة. فهى ترى أن فقدان الشهية للطعام ضغط خطابى على جسد الأنثى. وتصف الطريقة التى يوصف بها جسد الأنثى فى المجلات والإعلانات الحالية بأنها عملية ضابطة؛ ذلك أن جسد الأنثى خاضع للحاجة للسيطرة والتمرين: «جسد الأنوثة الأمثل – وبالتالى موضوع الجسم

(1) Thornborrow, 2002.
(2) Mills, 2003a.

الأنثوى – يُركَّب؛ وفى عملية التركيب تنتج [المجلات] جسدًا "ممرنًا ومروضًا"، أى جسد كُتب عليه وضع أدنى»[١]. وفقدان الشهية هنا ليس مرضًا أو اضطرابًا عقليًا، بل سلسلة من الممارسات الضابطة: «تقنيات الأنوثة تتخذها المرأة وتمارسها على خلفية من شعور جارف بالنقص الجسمانى؛ وهو ما يعلل طابعها الملزم بل الشعائرى»[٢]. وما تريد أن تعرفه هو: «ما إذا كان ما وصفناه نظامًا أصيلاً – منظومة من قوة مصغرة غير عادلة ولا متناسقة فى جوهرها – فمَن القائمون عليه إذن؟ من الضابط الأكبر فى نظام الأنوثة التنظيمى؟»[٣] إنها تتناول الخيارات الممكنة – الأسرة، القانون، الشرطة، الإعلام – وترى أن ليس من بينها ما يقوم ببراعة على «نوعية السلطة المخولة للقائمين بشكل مباشر على المؤسسات الضابطة. فالسلطة الضابطة التى تخط الأنوثة على جسد المرأة موجودة فى كل مكان ولا وجود لها فى أى مكان؛ فارض النظام فى كل مكان ومع ذلك فهو ليس أحدًا بعينه»[٤]. وهكذا فبينما يميل فوكو فى حديثه عن النظام والجسد لتحديد مكان فرض النظام فى مؤسسات بعينها – المدرسة، المصنع، السجن – تركز بارتكى على أن البنى الخطابية "غير مقيدة"، أى لا تقتصر على المصادر والمواقع المؤسسية، وهو أمر له تأثير محورى على التنظير النسوى للذكورة وصوغ أنماط مقاومتها: «فعدم وجود بنية مؤسسية رسمية وسلطات مفوضة لتنفيذ التوجيهات المؤسسية يعطى انطباعًا بأن إنتاج الأنوثة إما طوعى تمامًا أو طبيعى»[٥]. ومع ذلك فالتحليل النسوى قد يحدد مكان العمل الخطابى اللازم لإنتاج الأنوثة باعتباره "طبيعيًا" وبالتالى فقد ينزع الألفة عن هذه البنية الخطابية.

---

(1) Bartky, 1988: 71.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص٧٦.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) المرجع نفسه، ص٧٥.

تتناول بارتكى بعضا من العقوبات التى تعمل ضد المرأة إذا رفضت الأنوثة أو لم تمتثل لنمط الجسد والنظام الضابط للأنوثة. وتستشهد بكلام امرأة التقتها فى أثناء عملها على فقدان الشهية حيث تقول:

«شعرتُ بالتثاقل والتضخم، وأخذتُ أدق على الأثاث وأرتطم بالأشياء وأقلب المقاعد ولا تسعنى عربات الفولكس فاجن، لا سيما حين يحاول الناس التكدس على مقاعدها الخلفية. أحسستُ كأنى أشغل الغرفة كلها ... شعرتُ بأنى مقززة وقذرة. فى الصيف كنت أشعر بالحرارة وأتصبب عرقًا وكنت أعرف أن الناس يرون فى عرقى دليلاً على فرط سمنتى. أحس بالاشمئزاز من مظهرى حتى أنى قاطعت جسدى. بدأتُ أعمل من الرقبة لأعلى. لا أنظر فى المرايا. لا أرغب فى قضاء الوقت فى ابتياع الثياب. لا أرغب فى قضاء الوقت مع المساحيق لأن نظرى إلى نفسى يؤلمنى»[١].

ما تسعى بارتكى لتحليله هو أنه على ضوء المشكلات التى تعتور هذا النوع من البنى الضابطة لماذا إذن لا تؤيد كل النسوة الحركة النسوية. من ثم فهى تسعى لاكتشاف متغيرات الذكورة لو ظلت متشبثة بمفهوم موحد كهذا وبإمكانات المقاومة.

بينت أنا وكريستين وايت فى مقال عن القيود الخطابية وبناء الرغبة[٢] أن التصنيفات والسرديات التى يبنيها الخطاب للذوات لا تفرض ببساطة، بل تخضع للتفاوض من جانب هذه الذوات. فعملية الاشتباك مع البنى الخطابية هى ما يشكلنا فى أنماط بعينها من الأفراد أو مواقع الذات. والغيرية الجنسية مجموعة من النماذج الخطابية التى تتفاعل معها الذوات وترفض بعض العناصر وتقبل غيرها. والذوات تشعر دائما بالقلق فى مفاوضاتها مع هذه النماذج وقد تأول هذا القلق بأنه علامة على عدم كفايتها أو على ظلم آراء المجتمع فى المرأة. وقد تشعر الغيريات الجنس

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق، ص٧٦-٧٧.

(2) Mills and White, 1999.

من أنصار الحركة النسوية أنهن ينتقدن الغيرية الجنسية المؤسسية التى تمنح المزايا لغيريات الجنس (كالمعاشات وحقوق الهجرة) بينما تنكر هذه الحقوق على من لسن غيريات الجنس. وقد يجدن أنهن أيضًا بحاجة لمقاومة الفرضيات التى يشيعها المجتمع فى مجمله عن غيريات الجنس؛ من قبيل أن الأنثى فى العلاقة الثنائية تتولى مسؤولية الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال، وتحقق قدرًا أقل من الدخل، وهى أقل ثقة فى نفسها، وتعول شريكها/زوجها، وتتبعه إذا غير مكان عمله، وما إلى ذلك. وقد يضطررن لمواجهة بعض الفرضيات التى تقول بها السحاقيات عن علاقاتهن؛ من قبيل أن العلاقات الغيرية الجنس تقوم بالضرورة على القهر. وقد يجدن أن بعض العناصر فى الطريقة التى يتفاوضن بها على بنى الرغبة الغيرية الجنس ممتعة وبعضها يعود عليهن بالنزاع. وهكذا فالذوات الفردية لا ينبغى أن تتخذ أدوارًا تحددها لها لغات الخطاب؛ وبدلاً من ذلك تنزع من بعض العناصر الكامنة فى لغات الخطاب، وتستمتع ببعض آخر منها، وتنتقد بعضًا ثالثًا منها صراحةً. والذوات الفردية تزن دائمًا تصورها عن موقعها فى علاقتها بهذه المعايير الخطابية فى مقابل ما يفترضه الأفراد أو الجماعات الأخرى عن مواقعهم. وبذلك فعملية إيجاد المرء موقعًا فى الخطاب لا تتحقق كاملة قط؛ بل هى عملية تقويم وتدبر دائمة لموقع المرء، وتغيير دائم لتصور المرء عن موقعه والخطاب الأوسع نطاقًا فى مجمله.

مدخل الخطاب

إن النظرية النسوية مستغرقة بشدة فى تساؤلات عن مدخل الخطاب، فمن الواضح أن المرأة ليس لها فى الغالب ما للرجل من مدخل إلى الحقوق فى التعبير كما هو موثق بإسهاب فى دراسات عديدة[١]. ومن الأمثلة المبسطة على ذلك أن

(١) انظر Coates and Cameron, 1989؛ Tannen, 1990.

المرأة بصورة عامة لا تتحدث فى الأفراح؛ فمن الصعب على المرأة أن تقحم نفسها بوصفها ذاتًا متحدثة فى جو أغلب أدوار الحديث الرسمية فيه مسندة للرجل (فالرجل من يتحدث فى كلمة الاستهلال؛ والرجل من "يسلم المرأة لرجلها"؛ والرجل من يتناول نخب صديقة العروس والعروس؛ والرجل من يقرأ البرقيات، وهكذا).[١] وهناك قيود مؤسسة هنا تساعد على إسكات المرأة فى المجال العام وتجعل الكلام فى المجال العام غير مريح أو مزعج لبعض النساء[٢]. وليس معنى هذا أن المرأة متحدثة غير مؤهلة، بل معناه أن البنى الخطابية مواقع للصراع على السلطة. فيلاحظ فى الغالب مثلاً أن الأحاديث المختلطة التى تجرى فى المجال العام تسود فيها بعض القواعد الخطابية هى ما يتفق بصورة عامة مع معايير الحديث التنافسية الذكورية. ففى اجتماع موسع أو اجتماع لجنة يحاول كل متحدث أن يكون له دور فى الكلام وأن يضع نفسه فى تراتبية – هذه التراتبية تتم على أساس مواضع السلطة المحسوسة داخل الجماعة (صاحب الراتب الأكبر؛ صاحب الوظيفة الأفضل، وأيضًا الأقدر على التنافس فى الكلام ويبدى براعة كلامية وحصافة). ومعايير الكلام الأكثر تعاونًا كتلك التى نجد فى جماعات الصداقة النسوية الخالصة لا تعد فى الغالب ذات قيمة لدى جماعات الحديث المختلطة[٣]. وفى أساليب الكلام التعاونى نجد أن المشاركين يعتبرون تدفق الحوار أهم من أدوارهم فيه؛ وقد يتخلون عن أدوارهم فى سبيل انتزاع إسهام من عضو آخر فى الجماعة لا يشارك فى الحوار. ومن مفكرى النظرية النسوية ومنهم دايل سبندر (١٩٨٠) من يرى أن هذا التفاوت بين أساليب الكلام والحط من شأن أنماط الكلام النسوية يعزى لتآمر ذكورى على المرأة، إلا أن هذا الرأى فى كلام المرأة يراجع حاليًا[٤].

---

(1) Cameron, 1990.
(2) Baxter, 1999; Walsh, 2001; Shaw, 2002.
(3) Coates, 1989, 1996, 2003.
(4) Coates and Cameron, 1989; Mills, 1995b, 2003a.

تخضع القواعد الخطابية دائمًا لتفاوض مستمر وإعادة تفاوض. وهذا هو الحال فى الندوات العلمية الجامعية مثلاً، ففى المواد الدراسية التى تعتبر "ذكورية" والتى يزيد فيها عدد الذكور على الإناث، يميل الطلاب الذكور للسيطرة، فيتحدثون أكثر ويقاطعون أكثر فى الغالب. وفى مواد دراسية أخرى تكون الغلبة للطالبات من الإناث، كالأدب الإنجليزى أو الدراسات الثقافية، يبدو واضحًا أن معايير الخطاب تراجَع. وفى المواد الدراسية التى يحظى فيها الطلاب جميعًا بفرصة متساوية فى المعرفة عن موضوع ما والتى لا غضاضة فيها أن يعرف الرجل والمرأة عن مضمونها نجد أن الرجل والمرأة يتدخلان بطرق متشابهة إلى حد كبير. وكثير من العمل على الطريقة التى يتحدث بها الناس تعيننا على إدراك مدى ارتباط مسألة هوية المتحدث بمفاهيم السلطة. وإذا بدلتَ أحد المتغيرات فى سلسلة علاقات السلطة فإنك ستغير نمط الكلام المنتَج وصيغته. هذا الرأى المعاد النظر فيه عن السلطة يساعد مفكرى النظرية النسوية على حل تعقيدات علاقات السلطة بين الرجل والمرأة، ويعيننا بصفة خاصة على فهم المدخل التفاضلى إلى الخطاب. إلا أن اعتبار الكلام التعاونى والتنافسى لغات خطاب مقومة بصورة مختلفة يساعدنا على إعادة النظر فى الطرق التى ينتَج بها كلام الرجل والمرأة باعتبار أن كلاً منهما مختلف عن الآخر. وهكذا فبدلاً من افتراض أن الرجل يعمل طوال الوقت داخل مجموعة واحدة من المعايير تختلف تمامًا عن معايير كلام المرأة، يمكن ملاحظة توجهات بين الناس تجعل اختيار نمط ما للكلام يبدو أليق بفئة دون غيرها. وهذا الرأى المعاد النظر فيه عن السلطة يساعدنا على التساؤل عن اعتبار الكلام التنافسى كلامًا قويًا، واعتبار الكلام التعاونى فاقدًا للقوة. وقد نعتبر الكلام التنافسى غير لائق فى سياقات بعينها وكذلك الكلام التعاونى.

تضارب لغات الخطاب

هناك طريقة أخيرة يحاول بها مفكرو النظرية النسوية تعديل نموذج خطاب فوكو لأغراض نسوية تتمثل فى تحليل لغات الخطاب فى علاقات تضاد لا كل

بمعزل عن غيره. ففي كتابي مثلاً حاولت أن أضع لغات خطاب الأنوثة في مقارنة بلغات خطاب النزعة الاستعمارية في القرن التاسع عشر(١). كانت كثرة من كاتبات تلك الفترة يرين أن النصوص كانت تنتج عن تضارب لغات الخطاب هذه. من ثم شعرت كاتبات الرحلات بحاجة لتضمين بعض التفاصيل في نصوصهن عن سلوكهن الأنثوي "اللائق"، لإدراكهن أن جمهور القراء لن يحترمهن إلا بذلك. إلا أن هؤلاء الكاتبات شعرن في الوقت نفسه بالضغط الناجم عن لغات الخطاب النسوي والذي دفعهن لتضمين إشارات إلى موقفهن من عدد من القضايا؛ وهكذا فالنصوص التي كانت تبدو في ظاهرها نصوص رحلات كانت تلمح من حين لآخر إلى المعتقدات السياسية للكاتبة عن دور المرأة واللباس اللائق بالمرأة وقهر المرأة في بلدان أخرى وما إلى ذلك. وهكذا كانت لغات الخطاب في القرن التاسع عشر تلزم الكاتبات بإيضاح مواقفهن من كثير من القضايا حتى إذا كن يكتبن في موضوعات غيرها. كما مارست لغات خطاب النزعة الاستعمارية/الإمبريالية ضغطًا على الكاتبة، حيث كان عليها بصفتها ذاتًا استعمارية أن تثبت أنها قوية وقادرة ومسيطرة، ما كان يتعارض غالبًا مع لغات خطاب الأنوثة. من ثم لم تكن النصوص محصورة في خطاب واحد (يلاحظ كيف يداخلنا هذا الشعور في المناقشات حول الإيديولوجيا)؛ وقد تكون هناك لغات خطاب عديدة أخرى تعمل في بناء نص بعينه، ولغات الخطاب هذه تتضارب فيما بينها في الغالب. وأرى من جانبي أن كاتبات الرحلات كن يقعن في مفترق لغات خطاب متضاربة عدة وأن هذا كان يسفر عن نصوص بعيدة عن التماسك وتمزقها صنوف التفكيك هذه. فإذا أخذنا ما كتبته ألكساندرا ديفيد نيل عن رحلتها إلى التبت في مطلع القرن العشرين نجد أن نصوصها كانت تقع بين حافز يدفعها نحو تقديم نفسها في صورة شخصية مغامرة على غرار ريتشارد بيرتون و ت. إ. لورنس، وإدراك أنها باعتبارها امرأة ستعتبر أضعف من أن تجتاز ما تصف من مشاق نتيجة للغات الخطاب السائدة في مجتمعها عن الأنوثة. فتقول: «كنت سأجد مخرجا؛ كان هذا واجبي. وكنت أعلم

---

(1) Mills, 1991.

أنى سأجده. لم يكن هناك وقت للعواطف العقيمة»[١]. وتضطر ديفيد نيل باستمرار لتضمين تفاصيل عن المصاعب والعقبات المادية فى نصها لمجرد أن تقدم نفسها وهى تتغلب عليها: «ظللنا نمشى على أقدامنا لمدة تسع عشرة ساعة دون أن نتوقف أو ننعش أنفسنا بأية صورة. ومن الغريب أنى لم أكن أشعر بتعب، بل كنت أشعر بالنعاس»[٢]. وعبارة «من الغريب» تبين إدراك ديفيد نيل قوة لغات خطاب السلوك الأنثوى التى كُتب هذا النص ضدها. ولكى تواجه هذه الضغوط الخطابية عليها أن تقدم نفسها فى صورة امرأة استثنائية تجاوزت المعايير بالنسبة لجنسها، ما يوجد توترات قصوى داخل النص. ولعل مما يدل على قوة لغات خطاب الأنوثة أن ديفيد نيل اتهمت بالكذب بشأن رحلتها فاضطرت لنشر دليل موثق على ذهابها إلى التبت. ففى ظل قيود لغات خطاب الأنوثة لم يكن من السهل تصديق أن امرأة يمكن أن تتحمل ما ادعت ديفيد نيل أنها تحملته.

هناك تناقضات خطابية بالنسبة للأدباء الذكور فى الحقبة الاستعمارية، ولكنها من نوع مختلف لأن مواقف الذات المحددة للذوات الاستعمارية مذكرة (البطل المغامر، حامل لواء الحضارة، الرجل الإنجليزى المتحضر). من ثم فإننا نتوقع تماسكًا أكبر فى النصوص التى كتبها ذكور فى تلك الفترة، ذلك أن مواقف الذات المحددة للذكور هى مواقف تنسب لهم القوة. وحتى هنا يتفاوض الأدباء مع هذه القيود الخطابية فى العلاقات التناقضية مع لغات الخطاب الأخرى؛ فنجد جوزيف كونراد على سبيل المثال فى روايته القصيرة "قلب الظلام"[٣] لا يقدم مجرد وجهة نظر محافظة عن النزعة الاستعمارية. فتحوى روايته بين دفتيها عناصر بعينها ترفع لواء لغات خطاب النزعة الاستعمارية (كتصويره الأفارقة على أنهم عاجزون عن التعبير وهمج)، فى حين أن هناك عناصر أخرى تنتقد

(1) David-Neel, 1983: 129.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣١.

(3) Joseph Conrad, Heart of Darkness, 1902.

النزعة الاستعمارية بشدة ويبدو أنها نابعة من خطاب للحريات المدنية وحقوق الإنسان (كوصف أنشطة المستعمِر بأنها فاسدة). وهكذا فإن "قلب الظلام" تقوم على نوعية مختلفة من لغات الخطاب تجعلها نصًا أقل تماسكًا.

تعد نصوص الرحلات التى كتبتها نساء لا سيما فى المناخ الاستعمارى أمثلة واضحة على أن لغات الخطاب تتصادم فتتسبب فى نصوص لا تبدو متماسكة. لكن هناك أمثلة عديدة أخرى على عدم التماسك يمكن ذكرها؛ وهى بصورة عامة أمثلة تتسم بالانقطاع وفيها تغيير يحدث. لنتأمل على سبيل المثال عددًا كبيرًا من الإعلانات حاليًا تحمل على متنها عبارات نسوية بغرض استهداف فئات من المستهلكات الشابات، ولكنها فى الوقت نفسه تحمل رسائل من لغات خطاب محافظة ومتحيزة جنسيًا إلى حد كبير. فنجد إعلانًا عن نوع من العطور قد يصور امرأة مسيطرة على حياتها ولائقة جسمانيًا وناجحة فى عملها (باختصار، إشارة إلى الحركة النسوية)، بينما يعرض العطر فى الوقت نفسه وسيلة لبدء علاقة بذكر أو إثرائها (الرسالة المحافظة هى أن المرأة لا تتحقق فعلاً إلا من خلال علاقات بالذكور). وصدام لغات الخطاب هذا ليس صدامًا يلاحظه الأفراد جميعًا لأنه تأقلم؛ ولكنه يتضح تمامًا فى لغات خطاب فى طور التغير[1].

النتائج

يمكن القول إن الاستعانة بفكرة الخطاب ليست فى صالح أنصار الحركة النسوية لأن هذه الحركة فى مجملها تتعلق بقضايا الذاتية والتبعية، وكلا هذين المصطلحين يصعب استخدامهما ضمن نظرية الخطاب دون تعديل. فالتبعية مسألة معقدة داخل نظرية الخطاب إذ ليس من الواضح ما إذا كان موقف من أسندت إليهم

---

(1) Mills, 1995a.

أدوار المستضعفين هو موقف الضحية. وبما أن مسألة التأثير نوقشت باستفاضة ضمن نظرية الخطاب كما سبق أن أشرنا، ونظرًا لأن وضعنا باعتبارنا ذوات فردية هو وضع يصعب أيضًا وصفه، فإن كثيرًا من الناس لجأوا لنظرية التحليل النفسى بدلاً من نظرية الخطاب لإيجاد نموذج للذاتية. بل إن بعض المفكرين من أمثال مكلينتوك سعوا لتزويجهما[1]. ومع ذلك ففى حين يقل التركيز على الذات داخل نظرية الخطاب فقد يكون ذلك موضع ترحيب فى النظرية النسوية. وبينما كانت فكرة "الذات الأنثوية" والتركيز على اختلاف الذاتية الأنثوية لها أهمية فى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته فإنه بات واضحًا أن هذه الذات تنتج على حساب ذوات غيرها أقل ظهورًا. لذا فإن العمل الإبداعى لجوديث بتلر وديانا فس و"نظرية الغريب الأطوار" بعامة يعد محوريًا فى طرح قضية "الذات" (البيضاء، المنتمية للطبقة الوسطى، والمغايرة جنسيًا) التى ركزت عليها النظرية النسوية الغربية[2]. إلا أن خلخلة الذات تختلف عن الاستغناء عن فكرة الذات، وهناك مفكرون منهم بتلر هرعوا للإشارة إلى أن الذات اللا متمحورة تظل ذاتًا. وفى مقالات عدة يطرح فوكو مسألة الذات ويعلن «موت الإنسان [كذا]»، لأنه يحاول أن يكتب التاريخ بدون الذات (أى بدون المفهوم الإنسانى الليبرالى لأنا مستقرة متماسكة). وبدلاً من التركيز على الذات باعتبارها مزيجًا مفتتًا ومخلخلاً من غير الواعى والواعى، يعتبر فوكو الذات نتيجة لبنى خطابية، نتيجة تتفاعل مع تلك البنى وإن كانت غير أساسية فى حد ذاتها. هذا المفهوم الأكثر خلخلة عن الذات مفهوم مثمر بشكل استثنائى بالنسبة للنظرية النسوية الحالية، لأنه لا يميز شكلاً واحدًا للذات المتجانسة عن جماعة، ولا يفترض أن مواقف الذات التى يمكن أن تتخذها جماعة ما تتخذ بشكل موحد حتى من جانب أفراد تلك الجماعة نفسها. هذا النوع من الفكر النسوى يعى تمامًا أن اتخاذ مواقف ذات بعينها يعد فعلاً له عواقبه،

(1) McClintock, 1995.
(2) Butler, 1990; Fuss, 1990.

وهذا التحديد لمواقف الذات فى سياقات فعل بعينها هو ما تجعله نظرية الخطاب النسوى ممكنًا[1]. وهكذا فالنظرية النسوية أدخلت على مفهوم الخطاب تعديلاً كبيرًا بوضعه فى سياقه الاجتماعى بشكل أوضح وبفحص إمكانات التفاوض مع هذه البنى الخطابية. واستخدام مفهوم الخطاب جعل مهمة بناء الأولويات السياسية للفعل ومساراته أصعب، ولكنه يساعد أنصار الحركة النسوية على وضع تصورات للتغيير الاجتماعى ومواقف الذات للمرأة باعتبارها فاعلاً.

(1) Mills and Pearce, 1996.

(٥)

نظرية الخطاب الاستعمارى

وما بعد الاستعمارى

بينا فى الفصل السابق عن النظرية النسوية أن نظرية الخطاب يمكن استخدامها بتركيز سياسى شديد. ومن المجالات الأخرى التى يمكن فيها ذلك نظرية الخطاب الاستعمارى وما بعد الاستعمارى: الدراسة النقدية لهذه الكتابات الأدبية وغير الأدبية التى أنتجت فى حقبة الاستعمار البريطانى وسياقه، وأثر النزعة الاستعمارية والنصوص الاستعمارية على المجتمعات الحالية[١]. وهناك كم

(١) "الاستعمار" مصطلح يستخدم بصفة عامة فى الإشارة إلى وضع يغزو فيه ممثلو بلد ما بلدًا غيره ويستقرون فيه ويفرضون عليه نظامًا قانونيًا وحكومة وبنى مؤسسية أخرى؛ والاستعمار هو المصطلح الأعم المتداول فى الإشارة إلى علاقات استغلالية أخرى كما هو الحال فى علاقات المقايضة الجبرية وفرض ديانة دخيلة وتدخل كيان أجنبى فى النظام القضائى أو نظام الحكم وما إلى ذلك، ولكن بدون استيطان واسع النطاق للمدنيين. ومع ذلك فيما أن هناك تنوعًا كبيرًا فى العلاقات الاستعمارية والإمبريالية (بمرور الزمن وفى سياق بعينه) فليس ثمة تفرقة حاسمة بين الإمبريالية والاستعمار (انظر Clark, 1999). ونظرية ما بعد الاستعمار لا تفرق بين هاتين العلاقتين، وسنورد مصطلح "الخطاب الاستعمارى" فى إشارة إلى النصوص التى تتناول سياقات إمبريالية واستعمارية. ومن الفروق التى يمكن إيضاحها الفرق بين ثقافات المستوطنين البيض كما الحال فى كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا، والبلدان المستعمَرة غير البيضاء كالهند وبعض بقاع أفريقيا (McClintock, 1995; Darian-Smith et al., eds, 1996). و"ما بعد الاستعمار" مصطلح لا يقل إشكالية، إلا أنه يستخدم بمعنى الأزمات الاجتماعية-الاقتصادية والثقافية الناجمة عن الاستعمار بين=

هائل من الأعمال النظرية تراكم على أساس كتابين لإدوارد سعيد (١٩٧٨، ١٩٩٣) الذى سعى لدمج نظرية الخطاب عند فوكو برؤى مستقاة من كتابات أنطونيو جرامسى السياسية. وبعض أعمال مفكرين من أمثال بيتر هولم (١٩٨٦) وميرى-لويس برات (١٩٩٢، ١٩٨٥) أوردناها بالتفصيل فى هذا الفصل باعتبارها مثالاً نوضح به استخدام مصطلح خطاب وبيان الطرق التى تغير بها الخطاب. ويوصف هذا العمل بصفة عامة بنظرية الخطاب الاستعمارى. وجاءت أعمال هومى بابا وغاياترى سبيفاك لتبنى على نظرية الخطاب الاستعمارى إلا أنها شديد النقد لفرضياتها النظرية[1]. وهذا العمل الذى يطلق عليه نظرية الخطاب بعد الاستعمارى يقوم إلى حد كبير على النظرية التحليلية النفسية لا على نظرية الخطاب، ويركز على تأثيرات المشروع الاستعمارى على البنى الاجتماعية والصيغ الخطابية الراهنة. وفى الفصل الحالى نطرح نظرية الخطاب الاستعمارى حيث إنها هى التى تقوم عليها صياغة الخطاب عند فوكو بأجلى صورة؛ أما نظرية ما بعد الاستعمار فسيعول عليها فى المقام الأول فى نقد بعض الأفكار المسبقة لنظرية الخطاب الاستعمارى والتوصل إلى مفهوم أكثر تعقيدًا للخطاب. وسنسعى هنا كما حاولنا فى الفصل الرابع لبيان سبل الاستعانة بالخطاب فى تحليل النصوص، لا سيما فى هذا المجال حيث تبلور مفهوم الخطاب كأوضح ما يكون فى السنوات الأخيرة.

اختلاق الآخر

أمدنا فوكو كما بينا فى الفصل الثالث بمفردات لوصف السمات المطردة السطحية التى يمكن تعقبها فى كم من النصوص فى سياق ما. وهى مجدية بصفة

=عوامل أخرى غيره (انظر Ashcroft et al., 1989; McClintock, 1995 للاطلاع على وجهتى نظر متعارضتين عن المصطلح).

(1) Spivak, 1988, 1990, 1993b; Bhabha, 1994a, 1994b.

خاصة فى تناول نصوص دونت عن بلدان كانت مستعمَرة أو عانت إحدى صور العلاقة الاستعمارية. ويبين إدوارد سعيد أن هناك عددًا من السمات ترد مرارًا فى نصوص عن بلدان مستعمَرة وأنها لا تعزى ببساطة لآراء كاتب فرد، بل تعزى لأنساق فكرية أوسع نطاقًا بنتها أطر خطابية حظيت بصدقيتها وفعاليتها من علاقات القوة الإمبريالية. يصف بيتر هولم الخطاب الاستعمارى بأنه:

«مجموعة من الأعراف اللغوية موحدة فى تداولها العام فى إدارة العلاقات الاستعمارية ... فى أساس فكرة الخطاب الاستعمارى ... وهناك افتراض بأن بقاعًا شاسعة من العالم غير الأوروبى أنتجت فى الفترة الاستعمارية من أجل أوروبا من خلال خطاب يدمج مجموعات من التساؤلات والافتراضات ومناهج التحليل وأنماطًا من الكتابة والرموز»[1].

إذن فالخطاب الاستعمارى لا يعنى ببساطة مجرد كم من نصوص متشابهة فى موضوعها، بل مجموعة من الأعراف والأحكام أنتجت تلك النصوص والتنظيم المنهجى للفكر الذى قامت عليه. فى كتابه "الاستشراق" يصف إدوارد سعيد السمات الخطابية لذلك الكم من المعارف الذى أنتجه العلماء وأدباء الرحلات والشعراء والروائيون فى القرن التاسع عشر والذى مثل الشرق باعتباره مستودعًا لمعارف الغرب لا باعتباره مجتمعًا وثقافة تعمل لنفسها. فالشرق أُنتج فى علاقته بالغرب وكان يوصف من حيث اختلافه عن الغرب. ويرى سعيد أن البلدان المستعمَرة كانت توصف بطرق تشوهها وتمثلها بصورة سلبية، باعتبارها "آخر"، حتى تنتج صورة إيجابية متحضرة للمجتمع البريطانى. هذه الصور كانت تبنى وفقًا لبنى خطابية معينة نشأت بمرور الزمن ولكنها اكتسبت قيمة الحقيقة بالاستعمال والألفة وبكونها من نواتج القوى الإمبريالية أو من يمثلونها. وكان كل نص جديد يكتب عن الشرق يدعم صورًا نمطية وطرق تفكير بعينها. يقول سعيد:

---

(1) Hylme, 1986: 2.

«كل من يكتب عن الشرق عليه أن يحدد موقعه من الشرق المترجم فى نصه؛ وهذا الموقع يشمل الصوت السردى [الذى يتخذه] والبنية [التى يبنيها] والصور والتيمات والموتيفات المتداولة فى نصه - وكلها تضاف إلى السبل المدروسة لمخاطبة القارئ واحتواء الشرق وأخيرًا تمثيله أو التحدث باسمه»(١).

هذا الكفاح من أجل التمثيل كانت له آثار بعيدة المدى حيث كان يشى بالمعرفة والممارسات العنصرية وينشئ الأسس التى يدور فيها الجدل حول العرق والتصنيفات التى كان السكان المحليون وذريتهم يجبَرون عليها(٢). هذه الأحكام اللغوية والنصية فى ظاهرها عن التصنيف العرقى كانت لها نتائج مادية بعيدة المدى أثرت على حقوق السكان المحليين وحياتهم وأسفرت عن فئات من الناس أُنكرت عليهم صفة الإنسانية وفئات أخرى استغلت فى السخرة وفئات ثالثة خسرت أراضيها ودورها فى الحكم(٣). وكانت هذه الصور تحدد أيضًا أى البلدان "منفتحًا" للتوسع الاستعمارى وبحاجة للنفوذ "الحضارى" للقوى الأوروبية(٤). ونصف الآن البنى الخطابية التى يرى سعيد أنها تشكل المعرفة الإمبريالية بغرض تحديد السبل التى أدى بها تعريفه الخطاب إلى تعديل نموذج فوكو الخطابى(٥).

---

(1) Edward Said, Orientalism, 1978: 20.
(2) Young, 1995.

(٣) انظر J. Morris, 1979a, 1979b, 1979c; Gilroy, 1987.

(4) Pratt, 1992.

(٥) ينصب اهتمام إدوارد سعيد فى كتابه "الاستشراق" على بناء المعرفة بالشرق فى القرن التاسع عشر. إلا أن هذا الكتاب مده نقاد غيره إلى سياقات أخرى كأفريقيا والهند (انظر Williams و Chrisman للمزيد عن هؤلاء النقاد). وفى النهاية أدى هذا المد إلى صعوبة الإطار النظرى الذى عمل سعيد فيه وجرى تعديله بصورة كبيرة لكى يتعامل مع هذه السياقات الجديدة (انظر McClintock, 1995 للاطلاع على مناقشة لهذه الصعوبات فى السياق).

إن سعيد لا يركز على النصوص المغالية فى قوميتها والصريحة فى دعائيتها والتى ظهرت فى الحقبة الاستعمارية؛ كما يحلل النصوص التى كانت تنتج باسم العلم: تحليلات لغوية ومتعلقة بفقه اللغة وتاريخ وعلم إنسان وصفى وأدب رحلات. ويرى برات أن البلدان التى استُعمرت اختزلت إلى مجرد أدوات للمعرفة. ولم يقدَّم واقعها باعتباره مساويًا للواقع الأوروبى الغربى؛ بل كانت مهمة المستعمرين حين كانوا يكتبون سردًا عن البلدان المستعمَرة أن:

«ينتجوا ما يشيرون إليه هم أنفسهم باسم "معارف". وكانت مهمتهم ... دمج واقع بعينه فى سلسلة من الأنساق المعرفية المتشابكة - جمالية وجغرافية وتعدينية وزراعية ونباتية واقتصادية وأنثروبولوجية وصفية وما إلى ذلك»(١).

يرى سعيد أن البنى الخطابية التى سادت القرن التاسع عشر تشى بالطريقة التى كانتِ تنتَج بها المعرفة بحيث إن العبارات "الموضوعية" فى ظاهرها كانت تنتَج فى الحقيقة فى سياق تقويم وتشويه. والعبارات المحملة بالقيم عن سكان البلدان المستعمَرة كانت تقدم باعتبارها "حقائق" لا مراء فيها. وما أن تبدأ هذه العملية حتى تبدأ المعلومات القصصية أو الخيالية فى اكتساب صفة الحقيقة بسبب إنتاجها فى السلسلة الاستعمارية لعلاقات القوة(٢).

والشعب المستعمَر فى رأى سعيد تنتزع إنسانيته بأحكام تعميمية تطلَق عليه فى نصوص استعمارية. فهناك أحكام تعميمية كاسحة أطلقت على بعض الثقافات جعلت منها لا جماعات من أفراد بل كتلاً صماء يمكن جمع "المعلومات" عنها أو قولبتها فى صور نمطية: كالصينى الغامض، والعربى الذى لا يوثق به، والهندوسى الغبى وما إلى ذلك. ولننظر إلى هذا المثال من "حكاية رحلة استكشافية بأعالى نهرى كوورا وبينيو" للدكتور ويليام بيكى(٣) حيث يُنتج وصفا لجماعة من

---

(1) Pratt, 1992: 125.
(2) Richards, 1993; Mills, 1994b.
(3) Dr. William Baikie, Narrative of an Exporing Voyage up the Rivers Kwora and Benue (1856).

الناس التقت فى رحلة، ويعتبر هذا الوصف معلومات موضوعية. ولكن بدلاً من الاكتفاء بوصف الجماعة نجد أن للفقرة تأثيرًا يتمثل فى تصويرها بأنها كتلة صماء والحكم عليها بأنها غير سوية بالمعيار الغربى:

«فى حوالى العاشرة والنصف دخلنا جدولاً على الجنب الشمالى يكاد يجرى بحذى النهر، وبعد ذلك بقليل أبصرنا قرية سرعان ما بلغناها. وما أدهشنا أن أول ما أتى بنا إلى هنا اصطدام مقدمة قاربنا بكوخ، وعندما تلفتنا حولنا وجدنا المكان كله غارقًا. فتقدمنا إلى منتصف القرية ولم نجد مكانًا نستريح فيه؛ لا شىء حولنا إلا الماء. وخرج الناس من أكواخهم وأخذوا يحدقون فى الظاهرة الغريبة، ووقفوا على أبواب مساكنهم والماء بدون أدنى مبالغة يغمرهم حتى ركبهم، ورأيت طفلاً غمره الماء حتى خصره. ولا يسعنى أن أتصور كيف كانت دواخل أكواخ هذه المخلوقات البرمائية، إلا أننا رأينا مساكن لو كانت مأهولة فلا بد أن سكانها يغطسون كالقنادس ليخرجوا منها. توقفنا فى حالة دهشة تخرس الألسنةَ فى هذه المدينة المائية متعجبين من قدرة البشر على الحياة فى ظروف كهذه ... لم نكن نحلم بمشهد كهذا لمخلوقات موهوبة مثلنا تعيش بمحض اختيارها فى مكان أشبه بمستعمرة قنادس أو كأفراس النهر وتماسيح المستنقعات المجاورة»[1].

يركز هذا الوصف على تجانس الجماعة: فكلهم "مخلوقات"، ويشبههم بحيوانات كالقنادس والتماسيح وأفراس النهر. ولا تركيز على سماتهم البشرية ولا محاولة لتمييز أحدهم عن غيره. وما يميزهم انتماؤهم لجماعة شبه بشرية، بل يفترض أن أفرادها جميعًا عاشوا دائمًا على هذا النحو؛ فحُرموا أى تاريخ أو أية قابلية للتغيير. ولا يجول بخاطر بيكى ما إذا كانت هذه الظروف استثنائية، بسبب فيضان مثلاً، أو ما إذا كانت هذه الحياة العادية للجماعة. كما أنهم يوصفون بأنهم غير أسوياء بالمعيار الغربى و"مشهد" غريب ومصدر "دهشة تخرس الألسنة"

(1) Baikie 1856 نقلاً عن Hanbury-Tension, 1993.

وليسوا (حتى) مادة لبحث علمى أو أنثروبولوجى[1]. ونظرًا لعدم وجود معلومات عن الجماعة (الوصف قائم فى معظمه على الحدس، على لقاء قصير للغاية لم يرد فيه ما يفيد بأن حوارًا جرى) ينتج بيكى وصفًا ما كان ليعد معلومات أو حقيقة لو اختلفت الظروف؛ ولكن نظرًا للوضع المؤسسى للرحالة فى السياق الاستعمارى فإن وصفه معتمد باعتباره وصفًا موضوعيًا وجزءًا من المعارف الاستعمارية. وبدلاً من أن يكون مجرد حكاية فإنه يُعتمد باعتباره جزءًا من نسق معرفى موثوق يصور الشعوب المستعمَرة بأنها غريبة الأطوار ووضيعة ودون البشر.

كما كانت ثقافة المستعمَر تميز عن ثقافة المستعمِر بتصويرها كأنها تعيش على مقياس زمنى يختلف عن نظيره عند المستعمِرين. فالمستعمِرون كما يقول يوهانز فابيان يضعون البلد المستعمَر بسكانه فى زمن الماضى البعيد وينفيهم إلى حقبة نسخها المستعمِرون وبالتالى ينكرون عليهم "المعاصرة" أو المساواة فى الوصف أو المكانة[2]. يرى فابيان أن «ليس ثمة معرفة بالآخر ليست أيضًا فعلاً تاريخيًا مؤقتًا، أو فعلاً سياسيًا»[3]. وبالاستعانة بمفردات من قبيل "متخلف" و"بدائى" و"إقطاعى" و"سيد" و"بلد نامٍ" و"قبل صناعى" فى وصف البلدان المستعمَرة يرى فابيان أن البلد المستعمَر يوضع فى حقبة ماضية من التطور التاريخى البريطانى أو التقدم الغربى وبالتالى لا يسمح له بالوجود بذاته؛ بل يصور كأن لا وجود له إلا فى محاكاة متخلفة للحضارة البريطانية، وهى حالة يصفها هومى بابا بحالة "المسخ"[4]. ولنأخذ على سبيل المثال الفقرة التالية من إعلان نشر فى ملحق إحدى مجلات الأحد كتبه جافن بايت عن نيبال يصف فيه زيارته لكاتماندو:

---

(١) انظر Clark, 1999.

(2) Fabian, 1983.

(٣) المرجع نفسه، ص١.

(٤) انظر Homi Bhabha, 1994b.

«كاتماندو ... تشبه إنجلترا فى عصر تيودور بحاراتها الضيقة القذرة وأعمدتها السميكة المقامة بين البيوت لمنعها من التداعى فوق بعضها. والأسواق فيها تجربة للأصوات والألوان، كل حاسة يغزوها المشهد العام. قصاب يجلس القرفصاء أمام جثة كلب مسلوخة يزن كتل اللحم الكبيرة بميزان عتيق. فيل يقتاد عبر الميدان محملاً بسلال الفلفل الأحمر بينما ينطلق صبية الشوارع ببشرتهم الداكنة ووجوههم الضاحكة بدون ثياب. نعم، نيبال أكثر اختلافًا من أن يغلِّب أحد أخلاقياته فيها على ما يرى»(١).

هنا نجد كاتماندو توصف صراحةً بأنها فى مرحلة توقف عن التطور؛ لم تتقدم عن حقبة تيودور. فتوصف بمفردات تشبه الطريقة التى توصف بها إنجلترا فى عصر تيودور عادةً، من حيث القذارة والفظاظة والمشهد العام. نعم، هذه الصورة لنيبال كأنها تقع فى ماضٍ بعيد تحيل سكان كاتماندو إلى مجرد أصفار لا تشارك فى عالم "الزمن الحقيقى" لثقافة الغرب. ووصف صبية الشوارع وهم يضحكون معبر بصفة خاصة، لأن لفظ "صبى فقير" (urchin) لا يستخدم عادةً إلا فى وصف صور قديمة للأطفال، وأطفال الشوارع بصفة عامة. وفى هذا الوصف يضطر بايت لبناء نيبال (بتاريخها التطورى الاجتماعى والاقتصادى المختلف تمام الاختلاف عن غرب أوروبا) فى شبكة من تاريخ الغرب وقيمه – وهى عملية لا تؤدى إلا إلى رؤية نيبال فى صورة سلبية(٢).

قد يكون وضع البلد الآخر فى زمن مختلف صريحًا كما فى المثال السابق، ولكنه قد يكون ضمنيًا أيضًا. فإذا أعدنا قراءة فقرة بايكى السابقة نجد أن السكان

---

(1) Bate, 1992: 15.

(٢) يمكن القول إن هناك بعض الصعوبة فى استخدام هذا النص للتحليل، لأن بريطانيا لم تكن لها علاقة استعمارية بنيبال. فيرى سعيد أن البنى الخطابية للنزعة الاستعمارية تتم فى الحقيقة عن الطريقة التى توصف بها المجتمعات الحالية ويمتد تحليله إلى الحاضر (انظر Clark, 1999).

وإن وصفوا بأنهم "بشر" و"أناس" فإنهم وضعوا فى مقياس زمنى يختلف عن مقياس الراوى؛ وبوضعهم فى نطاق الحيوانات يصنفون بأنهم لم يحققوا إلا درجة محدودة من التقدم على مقياس التطور. وبذلك يقصَى سكان البلدان المستعمَرة عن المستعمِرين ويتأكد التفوق البريطانى ضمنًا.

وفى الوقت الذى يوضع فيه البلد المستعمَر فى الماضى البعيد تتجه النصوص الاستعمارية لاستعمال زمن خاص يسميه فابيان "الحاضر الإثنوغرافى"؛ ويشير إلى أن «الزمن الحالى إشارة تحدد هوية خطاب بأنه لغة مراقب»(١). وإذا طالعنا فقرة أخرى من مقال بايت عن نيبال يمكن أن نرى ما لاستخدام الزمن الحالى من تأثير:

«فى اليوم التالى شاهدت رجم أحد الساسة علنًا ... كانت همجية صادمة، ولكن لا مكان للوسطية فى هذه البقاع؛ فالأمور فى نطاق الأبيض والأسود دائمًا. فالموت مثلاً ينظر إليه على أنه مجرد انتقال إلى الآخرة، مجرد محطة فى رحلة ترام إن شئت؛ والميت يحرق من أجل خلاص روحه. شاهدت هذا الطقس من أوله لآخره: غمر الجثمان فى النهر، ولحظة غرس شعلة متقدة من القش فى فم الجثمان الفاغر، وانتهاءً باشتعال الجثمان»(٢).

فى هذه الفقرة يدخر الراوى استخدام زمن الماضى البسيط لأفعاله هو (شاهدتُ، شهدتُ) وبذلك فهو يضع نفسه فى زمان ومكان محددين؛ ويستعين بالحوادث التى يشهدها فى إطلاق الأحكام التعميمية عن الثقافة فى مجملها ومعتقداتها والتى يَفترض أن الكل يتبعها. وتطلق الأحكام على معتقدات الثقافة عن الموت («يُنظر إلى الموت»، «يُحرق الميت»، «شعلة متقدة تُغرس» وهكذا) والتى

(1) Fabian, 1983: ix.
(2) Bate, 1992: 15.

تصور الحدث الذى رأه بايت باعتباره مجرد مثال لـــ "حقيقة" عن تلك الثقافة. يقول فابيان:

«الزمن المضارع على الأقل "يجمد" مجتمعًا فى وقت المشاهدة؛ وعلى أسوأ الفروض يشتمل على افتراضات عن تكرار البدائيين وتكهنهم ونزعتهم المحافظة ... [الزمن المضارع] يميط اللثام عن موقف إدراكى من مفعوله ... ويقتضى ضمنًا معلومية مفعول الأنثروبولوجيا باعتباره شيئًا يشاهَد»(١).

إن استخدام زمن المضارع له تأثير يجعل البلد المستعمَر وسكانه موضوعًا للمعرفة، إذ يشيئه وبالتالى ينكر عليه مرة أخرى المكانة المزعومة للراوى بصفته ممثلاً للقوى المستعمِرة.

وإلى جانب هذا الاستخدام لزمن المضارع يؤكد كل من سعيد وفابيان على أن سكان البلد المستعمَر يضفَى عليهم مزيد من التجانس باستخدام ضمير الغائب "هو" بحيث يمكن الإدلاء بالتصريحات العالمية عن الشعوب المحلية كأنهما يمكن اختزالهم فى "شخص" واحد. ويشير فابيان إلى أن «الضمـــائر وصيغ الأفعـــال فى الغائب تنم عن "آخَر" خارج الحوار. وهو (أو هى) لا يوجَّه إليه الخطاب بل يُفترض (يعلَن) أنه ما يقابل شخصنة المشاركين فى الحوار»(٢). إذن فالعنصر المهم الذى يربط بين هذه السمات النحوية المتباينة عند كل من سعيد وفابيان وبرات هو أنها جميعًا تساعد على فصل "الآخر" عن نطاقات الإنسانية.

كما يرى سعيد أن البلدان المستعمَرة كثيرًا ما توصف بصور سلبية: فالمحليون كانوا يوصفون بالكسل والضعف والفساد، ومبانيهم بالقذارة، وثقافتهم بأنها نسخة مضمحلة من جلال قديم. هذه السلبية سمة خطابية للكتابة تنتَج فى السياق الاستعمارى وكما هو الحال مع التعميم وتعيين الزمن تشكل البنى الخطابية

---

(1) Fabian 1983: 81-82.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٥.

المتاحة للأدباء لينتجوا فيها المعرفة والروايات الواقعية[1]. ولنتأمل مثـــالاً قديمًا لهذا النـــوع من الوصف السلبى كتبه ويليـــام دامبير فى "رحلة القبطان دامبير حـــول العـــالم الأرضى" (١٦٩٧) لسكـــان "هولنده الجديدة":

«سكان هذه البلاد أبأس شعوب العالم ... كلهم طوال القامة وأجسامهم مستقيمة ونحيفة وأطرافهم طويلة وصغيرة. ورءوسهم كبيرة ولهم جباه مستديرة وحواجب عريضة. جفونهم شبه مغمضة لطرد الذباب عن أعينهم ... وأنوفهم كبيرة وشفاههم مكتملة تمامًا وأفواههم واسعة ... ووجوههم طويلة وليس فيها ملمح وسيم»[٢].

الطبيعة السلبية للوصف تتجاوز الحد؛ كأن الكاتب لا يورد إلا السمات التى يمكن إدراجها فى هذا النسق المعرفى الازدرائى. وهذا الرأى السلبى عن البلد الآخر تؤكده قوى اقتصادية واجتماعية أخرى؛ كما أن هذه البنى نفسها تؤكدها هذه الأوصاف. وهى أوصاف يرى سعيد أن لها دورًا مهمًا فى الإبقاء على الحكم الاستعمارى والإمبريالى وتمكينه.

لتحليل ميرى لويز برات (١٩٩٢، ١٩٨٥) لأدب الرحلات أهمية فى وصف تكرار بعض أنماط تسلسل الأحداث، وبهذه الطريقة حددت البنى الخطابية للنصوص الاستعمارية. وتصف برات (١٩٩٢) الطريقة التى يصف بها الرحالة سكان بلد ما لا من ناحية حضورهم بل من ناحية غيابهم. فتحلل نص رحلات يرجع للقرن التاسع عشر لجون بارو عن جنوب أفريقيا يصف فيه الآثار التى

---

(١) كثيرًا ما نجد أوصافًا سلبية للثقافات الأخرى خارج العلاقة الاستعمارية/الإمبريالية، إلا أن هذا النوع من البيان مسموح به فى النصوص الاستعمارية (انظر Gilroy, 2000).

(2) William Dampier, Captain Dampier's Voyage around the Terrestrial Globe نقلاً عن Carrington, 1949: 354.

تركها السكان على المكان: آثار أقدامهم والآثار التى تركوا فى التقاطهم الطعام. وبتفريغ المكان من الحضور الإنسانى يلغى "السكان المحليون" من الاعتبار فى تحديد القوى الاستعمارية أى الأراضى التى يستغلون. كما تشير إلى وجود بعض بنى الأحداث التى ترد فى نصوص الرحلات ويحددها السياق الاستعمارى؛ فمسح الأراضى على سبيل المثال كثيرًا ما يدرج ضمن روايات الرحلات. فيصف الراوى تسلق قمة تل أو جبل ويمسح الأرض المحيطة. والمفردات التى تمسح بها الأرض فى الغالب مفردات الاستغلال الاستعمارى المرجح: خصوبة الأرض، وجود الماء، غياب السكان المحليين وغير ذلك. وهكذا فالوصف فى نص الرحلات لا يكون أبدا فعلاً بريئًا لمجرد إنتاج المعلومة، بل تصوغه علاقات القوة فى السياق الاستعمارى دائمًا.

تعمل القوة الاستعمارية على إنتاج المعلومات وتحدد مواقف القوة التى تتحدث منها. وكون المرء من الرعايا الاستعماريين أو ممثلاً للقوة المستعمِرة يدعم وضعه باعتباره ذاتًا عارفة. حتى الرعايا ممن يعدون باحثين هواة فى علم الإنسان الوصفى أو علم الآثار كانوا بسبب السياق الاستعمارى يعتبرون خبراء فى البلد المستعمَر؛ فالرحالات أصبحن على دراية مثلاً بالحياة النباتية والحيوانية فى بلد مستعمَر ما وأنتجن تقارير علمية عن عملهن وبطرق كانت ستصبح أصعب كثيرًا عليهن فى ثقافة الحضر. فلدينا ميرى كينجسلى سميث باسمها أنواع عدة من الأسماك، وأنتجت مارجريت فاونتن تقارير عن فراشات، وصارت ماريان نورث خبيرة بالزهور الاستوائية. ومع أن نوعية المعرفة التى أنتجها هؤلاء النسوة كانت من النوع "الآمن" إلى حد ما فإن السياق الاستعمارى مكن الإنجليزيات من اتخاذ وضع قوى فى علاقتهن بالمعرفة(١).

(1) Mills, 1991, 1994b; Foster and Mills, 2002; Lewis and Mills, 2003.

ولكتاب برات أهمية أيضًا فى أنه بدلاً من اعتبار أن لغات الخطاب لها معنى واحد سائد تسمح للنصوص بإمكانية الحديث ضد السائد. فالنصوص الاستعمارية مثلاً كثيرًا ما تمثل الفقر "المحلى" وتؤكد على صعوبة إجبار السكان المحليين على العمل الجاد بصورة مستمرة. وترى برات أن هذا الكسل يمكن قراءته على أنه ضرب من المقاومة أو رفض الإسهام فى الحكم الاستعمارى إلا على مستوى سطحى تمامًا. وكما أشرنا فى موضع آخر فالنصوص الاستعمارية التى تبدو تعليمية تمامًا وتهدف إلى تأديب الرعايا "المحليين" تساعد فى الغالب على إلقاء الضوء على درجة من مقاومة الحكم الاستعمارى[1]. فإذا أخذنا فقرة من كتاب "الخادمة والطاهية الهندية الكاملة" لفلورا آنى ستيل وجرايس جاردنر والذى كان يهدف لتعليم المرأة الإنجليزية كيف تعامل الخادمات الهنديات والاقتصاد المنزلى يتضح أن إقناع الخادمات بالعمل عند سادتهن وسيداتهن الاستعماريين كان يتطلب جهدًا فائقًا. فالحكم الاستعمارى لا يتحقق بسهولة:

«التدبير المنزلى وإن كان سهلاً فى الهند فإن الانتباه الشخصى للسيدة مطلوب هناك بقدر ما هو مطلوب هنا فى الوطن. فالخادمة الهندية تتعلم بسهولة ... إلا أن الغياب أو التهاون لبضعة أيام من جانب السيدة يسفر عن عودة الخادمات إلى عادتهن القديمة فى الميل الفطرى للقذارة. وهذا أمر محبط بالطبع، ولكن لا بد من مواجهته باعتباره من ضرورات الحياة لبضعة أجيال قادمة من التدريب حتى تبدأ الخادمة الهندية فى توارث عادة جديدة. ولا بد ألا ننسى أن السيدات اللائى يردن شيئًا أكثر من إعداد مائدة طيبة قليلات، وأن الريادة أمر شاق»[2].

إذا كان من الواضح أن النص يقول إن الخادمات الهنديات كسولات، وكذلك خادمات الطبقة العاملة فى إنجلترا، وبالتالى فالحذر الدائم مطلوب لضمان استمرارهن

---

(1) Mills, 1996a.
(2) Flora Annie Steel and Grace Gardiner, The Complete Indian Housekeeper and Cook, 1911: 2.

فى أداء واجباتهن وفقًا لمعايير الإنجليز العالية فى النظافة، فإن النص يدل أيضًا على اضمحلال الحكم الاستعمارى. فحتى بعد قرون عدة من الوجود البريطانى فى الهند ليس على "السيدة" إلا أن تتغيب لبضعة أيام حتى تعود الخادمة إلى هذه الضروب من السلوك المدمر، ويفترض أن عادات الإنجليز لن تُكتسب إلا بعد "أجيال من التدريب". وهكذا فالنصوص يمكن اعتبارها همزة وصل بين عديد من لغات الخطاب المختلفة؛ ويمكن إدراك المقاومة "المحلية" فى النصوص حتى حين تكون عكس رغبة الكاتب[١].

اعتمد بيتر هولم على أعمال إدوارد سعيد ونظرية الخطاب بصفة عامة فى تنظيره تعقيد الخطاب الاستعمارى. وبدلاً من أن يفترض أن هناك خطابًا استعماريًا واحدًا – كما افترض سعيد– ذهب إلى وجود لغات خطاب عدة سادت الحقبة الاستعمارية وليست كلها سواء فى تمييز الذات المحلية بطرق سلبية. وهو يلفت إلى صور نمطية كصورة "الهمجى النبيل" و"الفردوس الغريب" تعد أمثلة للطرح الإيجابى فى الخطاب الاستعمارى، ويبين أن بعض الثقافات المستعمَرة كانت تعد "متحضرة". وبدلاً من الاكتفاء بطرح الثقافة الأخرى باعتبارها قاصرة قياسًا بالمعيار الغربى وجد عديد من الرحالة مثلاً أن مواجهة ثقافة أخرى دفعتهم للشك فى تفوق حضارة الغرب الذى يبدو بدهيًا، ووجد عديد منهم أن الثقافات الأخرى أقل "همجية" من ثقافتهم. ويشير ألفريد والاس وهو عالم طبيعة إنجليزى ترحل فى أرخبيل الملايو فى سنة ١٨٧٢ إلى أن حضارة الغرب فشلت لأن:

«ثروة القلة ومعارفها وثقافتها لا تشكل حضارة ولا تدفعنا إلى حالة اجتماعية مثلى. فنظامنا الصناعى الضخم وتجارتنا العملاقة ومدننا وبلداتنا المزدحمة ... تخلق جيشًا متناميًا باستمرار يصعب تحمل تبعاته فى مقابل المتع والراحة والرفاهية التى يرونها من حولهم ولكنهم لا يتطلعون إلى التمتع بها؛ وهم بذلك أسوأ حالاً من الهمج فى قبائلهم»[٢].

---

(1) McEwan, 2000.

(2) Wallace, 1872 نقلاً عن Hanbury-Tension, 1993: 62.

وهكذا فعلى الرغم من وجود إشارة إلى "الهمج" فإن الثقافات الأكثر مساواة والتى واجهها والاس دفعته لإعادة النظر فى استغلال الطبقات العاملة فى بريطانيا الفيكتورية.

اختلاق الآخر المنافس

فى تحليله تنوع لغات خطاب الإمبريالية يركز هولم على خطاب حضارة الشرق وخطاب الهمجية فى نصوص عن الكاريبى. فكما أن هناك روايات عن التهام لحم البشر والعادات الهمجية، هناك أيضًا آراء إيجابية فى بعض جوانب ثقافة الآخر. ويرى هولم أن هذه الاختلافات دافعها اختلاف السياق؛ فالثقافات التى تقاوم الغزو الاستعمارى كانت توصم بالهمجية وأكل لحم البشر، وكانت القوى الاستعمارية تشعر بأن لديها ما يبرر مساعيها لإبادتها. أما الثقافات التى تقبلت حكم الاستعمار وربما تعاونت مع السلطات الاستعمارية فى إنشاء مستوطنات كانت توصف بالتحضر والجنوح للسلم. ويصف هولم الاختلافات فى البنى الخطابية فى النصوص التى تصور البلدان المستعمَرة التى احتفظت بحكوماتها المستقلة ومع ذلك أقامت تبادلاً تجاريًا مع الغرب. فلغات الخطاب تتغير بمرور الزمن حسب الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تنشأ فيها؛ فنص عن حياة مستوطنين فى نطاق "الخطوط المدنية" فى دلهى فى الحقبة الاستعمارية يختلف تمامًا عن وصف لاستكشاف غرب أفريقيا[1].

يوجه كثير من النقد لنظرية الخطاب الاستعمارى لعل أبرزه نقد كل من أحمد وسان جوان[2]. ولعل من أعظم ما وجه من نقد لما كتبه سعيد عن الخطاب هو أنه وصف الخطاب الاستعمارى بأنه مجموعة متجانسة من النصوص تحمل

(1) McClintock, 1995; Darian-Smith et al., 1996.
(2) Ahmad, 1992; San Juan 1999; Lewis and Mills, 2003.

رسالة واحدة بسيطة عن البلد المستعمَر. فهذا من عيوبه أنه يوحى بأن المعرفة "الاستشراقية" قوية وأنه يقضى على كل مقاومة للبنى الخطابية. ويوجه دنيس بورتر النقد لإدوارد سعيد لافتراضه وجود تاريخ متصل من ممارسات بيانية قهرية من القرن الثامن عشر إلى الآن، ويرى أن هذا يؤدى إلى معرفة استعمارية بصورة أو بأخرى «هى ما لدينا بل هى كل ما يمكن أن يتوفر لنا»[١]. وهذا الرأى عن الخطاب يَفترض أيضًا قدرًا من ثبات الممارسات البيانية بحيث إنه بدلاً من تحديد لحظات التوتر أو الانفصال فى الخطاب الاستعمارى، يُفترض أن هذه النصوص تمثل علاقات قوة[٢]. ويقدم بورتر مثالين لنصوص يرى أنها تناهض الهيمنة، أى تتحدى النظرة الإمبريالية للثقافات الأخرى. وهذه النصوص، ومنها "رحلات" ماركو بولو و"أعمدة الحكمة السبعة" لـــ ت. إ. لورنس، تعتبر استشراقية أو استعمارية تحديدًا من منظور إدوارد سعيد. ويرى بورتر أن ليس ثمة رؤية موحدة للشرق فى هذه النصوص؛ فالكتابة عن ثقافة أخرى تستلزم خطاباً يؤمن بالتنوع والاختلاف والتناقض والتغاير. وهذه النظرة للنص باعتبار أنه تكدره تيارات تحتية من لغات خطاب متباينة شتى تسمح لنا بقراءة النص باعتباره يحوى عناصر تزعزع الاستقرار لا باعتباره مجرد أداة لقهر أمة أخرى. وبدلاً من البحث عن خطاب موحد للنزعة الاستعمارية علينا أن نستعد فى تناول النصوص الاستعمارية لمواجهة حقيقة فحواها أن «ليس ثمة تاريخ سلس ينشأ، بل سلسلة من شذرات تقرأ قراءة تأملية وتنوه إلى حكاية لا سبيل لأن تحكى بصورة كاملة»[٣]. ومن رؤية سعيد للخطاب الاستعمارى نستشف أن الطروحات الاستشراقية تُنتقد فى علاقتها بفكرة عن الظرف "الحقيقى" لهذه البلدان. وما تركز عليه نظرية الخطاب بعد الاستعمارى هو أن "حقيقة" هذه الثقافات لا مجال للوقوف عليها. لا سبيل لأن

(1) Porter, 1982: 180.
(2) McEwan, 2000.
(3) Hulme, 1986: 12.

نعرف حقًا ما كانت عليه هذه الثقافات؛ وليس لدينا سوى تأويلنا لمجموعة من نصوص متغايرة لها تأثيرات مادية على تلك الثقافات.

تعتبر غاياترى سبيفاك من المفكرين بعد الاستعماريين الذين تكمن أهمية أعمالهم فى تحدى فكرة إدوارد سعيد عن تجانس الخطاب الاستعمارى؛ ومع أنها تضع نفسها نظريًا ضمن التفكيكية والحركة النسوية الماركسية فإن تركيزها على إمكانية وجود أصوات بديلة فى لغات الخطاب التى تبدو على السطح نصوصًا استعمارية بسيطة دفع عددًا من النقاد لإعادة النظر فى تأويلاتهم للنصوص الاستعمارية[1]. وفى تناولها للذات "الفرعية"، أى التابع المستعمَر غير النخبوى، ترى أن النصوص الاستعمارية لا تمثل إلا بعض قطاعات السكان "المحليين". وفى حالة الهند نخبة البراهمة هى الممثلة لا سيما حين يمكن «طرحهم باعتبار أن لديهم النيات نفسها التى لدى الإنجليز واضعى القوانين (وبالتالى يضفون الشرعية عليهم)» [2]. وما يهم سبيفاك وغيرها من المفكرين ممن يشكلون جماعة "الدراسات الفرعية" هو الأصوات المحلية التى لا تمثل جزءًا من النخبة "الوطنية" والتى تشكل بالتالى جماعة فرعية[3]. وترى أن التابع النخبوى قد يكون التابع الذى يعد صوته الأقرب إلى المفاهيم الاستعمارية عن كنه الآخر، ومع ذلك فلا بد من «الإصرار على أن التابع الفرعى المستعمَر متغاير بلا رجعة»[4]. وهكذا فإن سبيفاك تدعو للتحول عن الموقف النظرى، عن اهتمام بصوت المستعمِر أو عن التابع المستعمَر النخبوى (وهو تركيز لم يفعل سوى إعادة التأكيد على موقف الغرب) نحو اهتمام بمن تطمس النصوص الاستعمارية أصواتهم. وتحلل جماعة "الدراسات الفرعية" الوثائق لا لمجرد قبول الرسالة السائدة بقيمتها الظاهرية، ما يجر المحلل إلى تواطؤ مباشر مع منطق النزعة الاستعمارية؛ بل «يمكن قراءة وثائق الطبقة الحاكمة ...

(1) Spivak, 1993a, 1993b, 1995; Mills 1994b, 1996c.
(2) Spivak, 1993a: 77.
(3) Guha and Spivak, 1988; Chaturvedi, 2000.
(4) Spivak, 1993a: 79.

بما تقوله وبما "تسكت عنه" على السواء» كما يبين شاكرابارتى فى تحليله ظروف الهنود من الطبقة العاملة فى القرن التاسع عشر(١). وبرفض قبول ظاهر الخطاب باعتباره يمثل مجموع ما قيل عن موقف بعينه يمكن تحليل البنى المنطقية لما تستبعده بقدر ما يمكن تحليلها لما تقرره. وكما بينا فى الفصل الثالث عن البنى الخطابية فإن هذا يدفع بموقف فوكو من الاستبعاد إلى أقصى مداه المنطقى(٢).

كما انتقلت ميرى لويس برات إلى تنظير أكثر تعقيدًا للخطاب حيث ترى أنه بدلاً من اعتبار النصوص الاستعمارية تجسيدًا مباشرًا للسطوة الاستعمارية ينبغى اعتبارها دليلاً على تأثير ما تسميه "نقطة الاتصال"، أى «النطاقات الاجتماعية التى تلتقى فيها الثقافات المتباينة وتشتبك وتتصادم فى علاقتى هيمنة وتبعية متنافرتين»(٣). وبرات لا تتناول الطريقة التى كان المستعمرون يعرضون بها الثقافات الأخرى، بل تهتم بأن الكتّاب الإمبرياليين وإن كانوا يسعون للإبقاء على مسافة بينهم وبين البلد المستعمَر فإن تجربة الاستعمار اخترقها الآخر المستعمَر:

«إذا كان الحضر يعتبر أنه يحدد مصير الهامش ... فهو عادةً يتعامى عن السبل التى يحدد بها الهامش مصير الحضر - بدايةً ربما بحاجة الأخير الملحة لتقديم هوامشه وآخَره لنفسه باستمرار»(٤).

وكما يشير نيل وايتهيد فمن السمات الواضحة للكتابة الاستعمارية أن المعرفة بما لها من دور محورى فى الحكم الاستعمارى لم تكن تنتَج إلا من خلال التفاعل والحوار مع الموجهين والمفسرين "المحليين"(٥). ومع أن المعرفة التى تَنتج عن هذه المصادر المحلية غالبًا ما يسيطر عليها المستعمِر وأن هدف هذه المعرفة

---

(1) Chakrabarty, 1988.

(٢) انظر Mills, 1996b, 1996c.

(3) Pratt, 1992: 4.

(٤) المرجع نفسه، ص٦.

(5) Whitehead, 1998.

إيضاح الفارق بين الثقافات المستعمَرة والمستعمِرة فـإن مصدر هذه المعلومـات له تأثير عميق على نوعية بنى المعلومات التى تنشأ.

وهناك مشكلة أخرى يجدها عديد من المفكرين بعد الاستعماريين فى فكر إدوارد سعيد عن الخطاب الاستعمارى هى أنه بتجهيل البنى الخطابية والدفع بها إلى ما وراء التأثير الإنسانى يستحيل إلقاء اللوم على أى عنصر فردى لدوره فى الإمبريالية. ومن ثم فالتحليل المسيس للنزعة الاستعمارية مستحيل. وإذا كان من الواضح أن إلقاء تبعة التنظيم الواسع النطاق للإمبريالية على الأفراد أمر غير ممكن فمن الواضح أيضًا أن الأفراد يختلفون فى درجات دعمهم الإمبريالية أو مناهضتها[١]. فكان بعضهم ينتجون طروحات تزعزع استقرار التورط الاستعمارى البريطانى بينما أكد غيرهم على الحكم الاستعمارى فى كتاباتهم. ويبين برنارد بورتر أن كثرة من الكتّاب كانوا ينتقدون التدخل الاستعمارى صراحةً، وفى كثير من تحليلات كاتبات أدب الرحلات يتضح أن نقد النزعة الاستعمارية وبعض الممارسات الاستعمارية لا يقل وضوحًا عن تأكيد الحكم الاستعمارى[٢]. وإذا كانت أهمية كتابات فوكو تكمن فى أنها تسمح لنا بإلقاء الضوء على الطريقة التى لعبت بها الأطر الخطابية الواسعة النطاق دورًا فى النشاط الاستعمارى فمن الواضح أن القدرة على إعادة كتابة التأثير الفردى على مستوى ما تعد ضرورة كما بينا فى الفصل الرابع عن النظرية النسوية. ويرى دنيس بورتر أن عدم أخذ مقاومة الاستشراق من جانب أنصار الاستعمار:

«يعرّض سعيد لتهمة تشجيع الاستغراب ويسهم فى تعزيز الفكر الاستشراقى الذى شرع فى إماطة اللثام عنه أصلاً ... حتى عندما يثنى على باحث عابر

---

(١) الحكومات نفسها كانت منقسمة تجاه التوسع الإمبريالى ومتناقضة فى سياستها الاستعمارية.

(2) Porter, 1968; Mills, 1991; Foster and Mills, 2002.

لموضوعيته النادرة فهو لا يبين كيف أمكن لخطاب بديل كهذا أن ينشأ فى البنية المهيمنة المعطاة»[١].

التحليل النفسى ونظرية الخطاب

ظهر فى دراسة الخطاب الاستعمارى انشقاق بين المفكرين الذين اعتمدوا على نظرية الخطاب والذين لجأوا للتحليل النفسى واتخذوه إطارًا، واختلفت المدرستان اختلافًا جوهريًا فى تنظير التأثير. وهناك نقاد بعد استعماريين منهم روبرت يونج (١٩٩٥) وهومى بابا (a١٩٩٤) وآن مكلينتوك (١٩٩٥) استعانوا بنظرية التحليل النفسى لوصف عملية "إضفاء سمات الآخر" على الأمم المستعمَرة؛ فوصفوا النزعة الاستعمارية بأنها أحد أشكال الاضطراب المرَضى على مستوى دولة. والصلات بين الدولة المستعمِرة والسكان المحليين تعتبر مصابة بالفصام، أى الرغبة الملحة والخوف الشديد فى الوقت نفسه. ويصبح البلد المستعمَر مادة للفيتشية والغرابة الجنسية؛ إلا أنه يكون فى الوقت نفسه مستودع المخاوف اللا عقلانية أيضًا. وإذا تأملنا تقارير تمرد/انتفاضة ١٨٥٧ فى الهند يتبين أن الأحداث التى لقى فيها نساء الإنجليز وأطفالهم حتفهم على أيدى المتمردين كان رد فعل الجيش والحكومة البريطانيين حيالها لا يوصف إلا بالمرَضى؛ فى حين يتضح أن مئات من الإنجليز رجالاً ونساءً وأطفالاً قُتلوا وشاعت قصص لا نهاية لها عن طبيعة موتهم، وكانت تقوم على الخيال لا على الواقع. وقيل إن الأجنة كانت تنتزع من أرحام الأمهات أو تغرس فيها الحراب. وقيل إن النساء تعرضن لتعذيب واغتصاب وحشيين. وكان رد فعل بريطانيا إزاء تلك الأحداث ذبح مئات الآلاف من الهنود سواءً ممن كانت لهم صلة بالانتفاضة أم لا وبأبشع ما يمكن تخيله من صور – كضربهم بالمدافع وإذلالهم قبل قتلهم وما إلى ذلك[٢].

---

(1) Porter, 1982: 81.
(2) Sharpe, 1993.

إذا كان من المفيد أن يتمكن المرء من حين لآخر من وصف السلوك المرَضى لعناصر الحكم الفردية فمن المختلف فيه ما إذا كان لإضفاء صفة المرَضى على دولة قومية أية جدوى نظريًا. فنسبة المظاهر الفردية لتطور الأنا لدولة أو حكومة قد تخفى تأثير المشاركين الفرادى فى النزعة الاستعمارية. من ثم فإذا أرجعنا بعض أفعال بريطانيا فى الحقبة الاستعمارية إلى "رغبة" أسيء تفسيرها فقد يؤدى بنا هذا إلى تجاهل المعنى الذى يرى أن هذه الأفعال نشأت عن ظروف مادية واقتصادية وسياسية واجتماعية محددة ودفعت إليها قوى عديدة ولكن شكلتها فى النهاية بعض الأفعال البشرية الفردية. ومن الواضح أن للخيال دورًا رئيسًا فى تصوير البلدان الأخرى فى الحقبة الاستعمارية، ولكن يبدو أن من الضرورى إيجاد نوع من التنظير لا يصف هذه العملية ببساطة من منظور مفاهيم التحليل النفسى التى تلائم وصف النفس الفردية.

قد تثبت كتابات هومى بابا عن المحاكاة والازدواجية جدواها فى تنظير الخطاب ولو أنه يضع نفسه فى الأساس ضمن التنظير التحليلى النفسى[١]. واستعان بأعماله مفكرون غيره فى مسعى لتحديد معالم البنى الخطابية التى نشأت فى ظل النزعة الاستعمارية فى سياقات تاريخية بعينها، وساعد هذا العمل فى مجمله على التشكيك فى بعض الافتراضات عن الخطاب[٢]. ويؤكد بابا أن هذه الاستراتيجية وإن بدا أنها لا تمثل الآخر إلا فى علاقته بمعيار غربى وبالتالى اعتبار الآخر مفتقدًا فى علاقته بهذا المعيار فهى تميط اللثام عن ازدواجية فى جوهر النزعة الاستعمارية يعزى فى رأيه للازدواجية المتأصلة فى المحاكاة:

«إن المحاكاة الاستعمارية هى الرغبة فى آخَر محسَّن يمكن تمييزه، باعتباره موضوعًا لاختلاف يكاد يطابق ولكن ليس تمامًا. ما يعنى أن خطاب المحاكاة ينشأ حول ازدواجية؛ ولكى تكون المحاكاة فعالة لا بد أن تنتج عثرتها وغلوها واختلافها

---

(1) Bhabha, 1994a.
(2) Low, 1996.

بنفسها ... المحاكاة إذن علامة على تعبير مزدوج، استراتيجية إصلاح وضبط وتنظيم معقدة توائم الآخر وهى تتصور القوة. كما أن المحاكاة علامة على غير الملائم، على اختلاف أو جموح يربط الوظيفة الاستراتيجية السائدة للقوة الاستعمارية ويكثف الرقابة ويشكل تهديدًا للمعارف الممنهجة والقوى الصارمة»[١].

إن تقديم الآخر فى صورة تابع مفقود يعتبر رغبة معقدة من جانب المستعمِر لا مجرد فعل قهر واستيلاء. فالمستعمِر هنا تحت رحمة هذه الأنماط من الطرح كالمستعمَر تمامًا، وأسير بين الرغبة والخيال اللذين ينتجهما السياق الاستعمارى.

وتسعى آن مكلينتوك (١٩٩٥) لتناول بعض من النقد الموجه ضد هذا التنظير التحليلى النفسى وتحاول أن توجد نوعًا من التنظير أقدر على التعامل مع خصوصية السياقات الاستعمارية بينما يظل يعتمد على نظرية التحليل النفسى[٢]. ولنأخذ مثلاً تحليلها خارطة كنز فى رواية "مناجم الملك سليمان" لرايدر هاغارد[٣]. فهى ترى أن الخارطة تشبه جسدًا أنثويًا؛ فهناك:

«مثلث من ثلاثة تلال يكسوها "الخلنج الداكن". هذا المثلث الداكن يشير إلى ويُخفى فى آن معًا مدخلى ممرين محرمين: "باب كهف الكنز" - المدخل المهبلى الذى تسوق الأم السوداء غوغول إليه الرجال - ووراءه الحفرة الشرجية التى سينسل الرجال منها فى النهاية ومعهم الماس، فى طقسٍ ولادة ذكر تُترك الأم السوداء غوغول مستلقية ميتة»[٤].

هذا النوع من التحليل قد يبدو أنه يمتاز على قراءة أكثر حرفية من نوعية قراءة إدوارد سعيد؛ فالنص لا يؤخذ فيه بمعناه الحرفى، بل يأوَّل من منظور الخيال والرغبة، إلا أن هذا النوع من التحليل النفسى للنصوص الاستعمارية

---

(1) Bhabha, 1994b: 86.

(٢) انظر أيضًا Darian-Smith et al., 1996.

(3) Rider Haggard, King Solomon's Mines, 1881.

(4) McClintock, 1995: 3.

والعملية التى تُخضع بها أمة أمة غيرها اقتصاديًا وسياسيًا من منظور الجنسانية والرغبة والخيال لا يبدو مفيدًا. قد يهتم أى من أصحاب نظرية الخطاب بأن الاستعارات الجنسية كان تستخدم فى وصف معالم المشهد، إلا أنه قد يلاحظ أيضًا أن هذه المعالم هى التى تزداد وضوحًا عندما يعتمد المرء على التحليل النفسى فى دراسة النصوص. وما يهم أيًا من أصحاب نظرية الخطاب هو أن علاقات السلطة الكامنة فى العلاقات الجنسية فى ذلك الوقت كانت تستخدم باعتبارها مجازًا لوصف أنماط أخرى من علاقات السلطة. والتعرف على العلاقات الاستعمارية بتشبيهها بتطور النفس الفردية كما يفعل التحليل النفسى يقر التوسع الاستعمارى ويراه جزءًا "طبيعيًا" من بناء الذات لإحساسها بنفسها. ومن ثم تتمحى الأولويات السياسية وعلاقات السلطة بين الدول القومية.

ولنأخذ مثالاً نصيًا قد يساعدنا على تحديد الفروق بين رؤية الخطاب كما يستخدمها أصحاب الخطاب الاستعمارى من أمثال إدوارد سعيد وبرات وهولم والرؤى التى قدمها أنصار النظرية بعد الاستعمارية من أمثال بابا ومكلينتوك ممن استعانوا بالتنظير التحليلى النفسى. وفيما يلى الفقرة الأخيرة فى كتاب "ممر إلى الهند" لفورستر حيث يخرج كل من فيلدنغ وعزيز لركوب الخيل معًا:

«قال فيلنغ ساخرًا مرة أخرى: "الهند أمة! ياللهول! آخر الوافدات إلى جماعة عاهرات القرن التاسع عشر! تتهادى فى هذه الساعة من العالم لتتخذ مقعدها! هى التى كانت نظيرتها إمبراطورية الروم المقدسة، ستكون لها مكانة غواتيمالا وربما بلجيكا!". وأخذ عزيز يتململ هنا وهناك لا يدرى ما يفعل، ثم صاح قائلاً: "يسقط الإنجليز على أى نحو. هذا أمر مؤكد. عليكم بالجلاء أيها الرفاق وبأقصى سرعة فى رأيى، فقد يكره كل منا الآخر، لكن كرهنا لكم أكبر. إن لم أجلكم فسيجليكم أحمد أو كريم، لو استغرق الأمر خمسين وخمسمئة سنة سنتخلص منكم، نعم، سنقتاد كل إنجليزى لعين إلى البحر، ثم ..." واستدار بجواده ليواجهه وقال فى حدة منهيًا حديثه وهو يكاد يعانقه – "ثم سترتبط بينى وبينك

صداقة". قال الآخر وهو يربت على كتفه فى مودة: "لم لا نكون أصدقاء من الآن؟ هذا ما أريده. وهذا ما تريده أنت". لكن الجوادين لم يريدا، إذ أشاحا عن بعضهما – والأرض لم ترغب فى ذلك إذ أرسلت صخورًا كان على الراكبين أن يجتازاها متعاقبين؛ المعابد، الصهريج، السجن، القصر، الطيور، العربة، المضيفة ظهرت مع خروجهم من الوهدة ورأيا ماو بأسفل؛ لم يكونا يريدانه، وقالا بصوت مسموع: "لا، ليس بعد"، وقالت السماء: "لا، ليس هناك"»[1].

ركزت كثرة من النقاد ممن اعتمدوا على التحليل النفسى فى تحليل الخطاب الاستعمارى على الرغبة والعلاقات الجنسية الحميمة التى صورت فى النصوص الاستعمارية. والعلاقة هنا بين إنجلترا والهند والتى صورت من خلال شخصيتى عزيز وفيلدنغ تعد رغبة شاذة أحبطتها عوامل خارجية: السماء والجوادان والمشهد الطبيعى[2]. وأية قراءة تحليلية نفسية لهذه الفقرة سترى مسألة الإحباط كأنها مسألة كبت وإزاحة للقيد على الرغبة الشاذة. والحقيقة أن الكتاب نفسه يمكن قراءته بوصفه إزاحة لهذه الرغبة بين الرجال إلى أجساد النساء: فالحادثة التى "اعتُدى" فيها جنسيًا على أديلا كويستد فى الكهوف يمكن قراءتها باعتبارها إزاحة للرغبة الذكورية الشاذة، عملية الإزاحة التى أدت إلى ارتباك الحدث نفسه. لكن رؤية أية نظرية خطاب لهذه الفقرة لا تكتفى باعتبار هذه الصور رغبة. فلقراءة الفقرة على أنها رغبة لا بد من إبراز العناصر التى تشير بوضوح إلى الرغبة وتقليص العناصر التى تشير إلى سائر السمات. وهكذا فلا بد من تجاهل العناصر التى تصف التضاد الشديد بين بريطانيا والهند سياسيًا فى الفقرة؛ كما يجب تجاهل سخرية فيلدنغ من عزيز والنزعة القومية الهندية بقدر ما يجب تجاهل إصرار عزيز على أن الهنود سيتخلصون من ربقة الاستعمار. وأى تحليل لنظرية الخطاب

---

(1) E. M. Forster, A Passage to India, 1924: 316.
(2) Bakshi, 1994; Mills, 1994c.

سيركز على أن مسائل الجنسانية تعد محورية بالنسبة للحكم الاستعمارى؛ وكما سبق أن أشرنا فهذه النظرة للنصوص الاستعمارية سترى علاقات السلطة المفترضة فى العلاقات الجنسية مستخدمة مجازيًا بمعنى علاقات قوة أخرى. وأى منظور لنظرية الخطاب سيتخذ موقف تفسير للذات. سيرى أن للتداخل بين السياسى والجنسى وحذفهما فى بعض المعانى أهمية – فهى العملية التى كانت العلاقات الجنسية بين الذوات ترى فيها على أنها علاقات بين الدول.

النتائج

وجدت كل من نظرية الخطاب الاستعمارى ونظرية ما بعد الاستعمار أن مفهوم الخطاب مفيد فى تمييز الطبيعة النظامية للطروحات عن البلدان المستعمَرة. ومع أن الأعمال الأولى كانت تركز على البلدان المستعمَرة وكيف كانت قوى الاستعمار تجعلها آخَر ووضعت الاستراتيجيات التى استعان بها المستعمِرون فى إنتاج طروحات الشعوب المحلية باعتبارها مقصورة بالمعيار البريطانى، سعت الكتابات الأحدث لتمييز هذه النصوص باعتبارها أقل تجانسًا وأكثر اضطرابًا بسبب لغات الخطاب المتضاربة. وأدى هذا لتغيير تعريف الخطاب وغيّر الطريقة التى يستخدم بها الخطاب باعتباره مصطلحًا. فبدلاً من افتراض أن الخطاب مجموعة عبارات أو صيغ معرفية، يتميز الخطاب الآن بالانفتاح على مختلف التأويلات ومن ثم على المقاومة، حتى حين يبدو فى أقوى صوره. وهكذا ففى تحليلات الخطاب الحالية لم يعد يفترض أن المعنى السائد لخطاب ما هو المعنى الوحيد المتاح فى النص؛ وعوضًا عن ذلك أصبحت المعارف التى تستبعدها لغات الخطاب الاستعمارية لا تقل أهمية عن المعارف المدركة فى النص. وبالتالى فإن نظرية الخطاب بعد الاستعمارى تشكك فى آراء إدوارد سعيد التى تضفى التجانس على

النصوص الاستعمارية بحيث يمكن تمييز علاقات السلطة بين المستَعمَر والمستعمِر لا من مجرد منظور السيد والعبد، وهذه النصوص الاستعمارية تحلل لا من حيث نجاحها فى توكيد السلطة الاستعمارية. بل أصبحت مشاركة الشعب المحلى فى إنتاج المعرفة الاستعمارية وفى المقاومة الاستعمارية معترفًا بها وهناك نموذج خطاب أخصب سياسيًا فى طور النشأة.

(٦)

تحليل الخطاب وتحليل الخطاب النقدى

فى مجالات الدراسة التى تعتمد على اللغويات بوصفها نهجًا للتحليل كثيرًا ما يستخدم مصطلح خطاب بصور تتناقض بحدة مع التعريفات التى يستعين بها أصحاب نظريات الثقافة والأدب. ونتناول فى هذا الفصل ثلاث فئات من أصحاب النظريات يختلف تعريف الخطاب عند كل منها اختلافًا طفيفًا وهى: محللو الخطاب، وباحثو علم النفس الاجتماعى، ومحللو الخطاب النقدى[١]. يتناول كل من هذه المجالات الدراسية مسألة كيفية تحليل الأفعال الصريحة فى السياق بالاستعانة بصيغة تحليل دقيقة تقوم على المبادئ العلمية. كما يهتم كل من هذه المجالات الدراسية بكيفية تحليل النص (محاورات، إعلانات، خطب سياسية مثلاً) والتى لم تكن تحظى باهتمام كبير وإن كانت عاملاً ضمن النظرية الثقافية/الأدبية. وسنتناول بإيجاز كلاً من السبل المختلفة التى استخدمت بها هذه المجالات مصطلح خطاب قبل أن نواصل إلى تناول أكثر تفصيلاً لها.

---

(١) هذه الفئة الأخيرة من اللغويين ظلت حتى وقت قريب تستخدم مصطلح "علم اللغة النقدى" فى وصف كتاباتها؛ ويستخدم مصطلح "تحليل الخطاب النقدى حاليًا فى تمييز هذه الكتابات عن التحليل اللغوى التقليدى. وخرجت جوديث باكستر مؤخرًا بصيغة تحليل هى تحليل الخطاب بعد البنيوى النسوى الذى ترى أنه إلى جانب تحليل الخطاب بعد البنيوى يتحدى على مستوى تحليلى ومنهجى ثوابت كل من تحليل الحوار و"تحليل الخطاب النقدى" ويحلل «الطرق الدائمة التذبذب التى يتموضع المتكلمون فيها ... باعتبارهم أقوياء أو بلا قوة نتيجة للغات الخطاب الاجتماعية والمؤسسية المتضاربة» (Baxter, 2002a, 2003).

فى علم اللغة، ولا سيما فى تحليل الخطاب، يستعان بالخطاب فى توصيف بنية تمتد إلى ما وراء حدود الجملة. وبالاستعانة بقياس بنية الجملة ومكوناتها الداخلية (كالفعل والفاعل والمفعول أو الاسم والفعل والمتمم) هناك افتراض بأن العناصر فوق مستوى الجملة تشمل بنى مماثلة. وهذا المعنى للخطاب أوجده فى المقام الأول لغويون يرتبط كثير منهم بالبحث فى اللغة الإنجليزية فى جامعة برمنجهام منهم مالكوم كولتهارد وديرِد بيرتون وجون سينكلير وديفيد برازيل ومارتن مونتجومرى ومايكل هوى، حيث أوجدوا نمطًا خاصًا لتحليل الخطاب، هو تحليل البنى فى العبارات المنطوقة أو النص المكتوب فوق مستوى الجملة[١]. كان همّ هؤلاء المحليين أن يحللوا استخدام اللغة فى السياق بدلاً من التركيز على نسخ مجردة مثلى من اللغة. وسنطلق على هذا النوع من الأعمال "تحليل" الخطاب لتمييزه عن "نظرية" الخطاب عند ميشيل فوكو وغيره[٢]. واعتمد باحثون فى علم النفس الاجتماعى من أمثال جوناثان بوتر ومارغريت ويذريل وسيليا كيتسنجر وسو ويلكنسون على المناهج التحليلية التى نشأت ضمن تحليل الخطاب وأيضًا ضمن المنهجية العرقية وتحليل الحوار لإيجاد نوع من التحليل يحلل الكلام ولا سيما بنية النقاش[٣]. وكتحليل الخطاب يركز هذا التوجه على الوحدات البنيوية فوق مستوى الجملة بينما يسعى فى الوقت نفسه للتعامل مع نوعية الأسئلة التى تشتبك معها النظرية بعد البنيوية بالتركيز على قضايا من قبيل علاقات السلطة وإنتاج المعرفة. تقول ويذريل وبوتر:

---

(1) Sinclair and Coulthard, 1975; Coulthard, 1977, 1992, 1994; Brazil et al. 1980; Burton, 1980; Coulthard and Montgomery, 1981; Hoey, 1983.

(٢) يمثل Brown and Yule, 1983 مقدمة مفيدة عن هذا النوع من تحليل الخطاب إلى جانب أعمال محللين آخرين.

(3) Wetherell and Potter, 1992; Wilkinson and Kitzinger, 1995.

«ما لم تقدم عليه ما بعد البنيوية تناول الخطاب اليومى - كلام الناس ونقاشاتهم - كما لم تول اهتمامًا لمواد توثق التفاعل من نوع ما أو غيره. من ثم فهدفنا العام تتبع التساؤلات بعد البنيوية بالحماس التحليلى لباحثى علم النفس الاجتماعى، ولكن فى مجال من مواد استكشفه باحثو المنهجية العرقية ومحللو الحوار بكل دقة»(١).

يعد تحليل الحوار إطارًا منهجيًا مهمًا لهذا النوع من التحليل حيث إن من سماته الجوهرية التركيز على التوجه التأويلى لدى المشاركين فيه ضمن تفاعل. وبالتالى فهدف "تحليل الحوار":

«وصف وإيضاح القدرات التى يستعين بها المتكلم العادى ويعتمد عليها فى المشاركة فى التفاعلات المفهومة والمنظمة اجتماعيًا ... فليس مطلوبًا من المحلل أن يحزر ما فهمه المتفاعلون افتراضيًا أو تخيليًا ... بل قد ينشأ التحليل من مراقبة المشاركين»(٢).

هذا النوع من التناول المتكامل يختلف عن كل من تحليل الخطاب والنظرية الثقافية فى استخدامها مصطلح خطاب فى أنه يهتم بقضايا السلطة (وهو ما لا يهتم به تحليل الخطاب) بينما يركز أيضًا على تحليل النص، ونظرًا لموقفه الصارم من العلم الاجتماعى فهو يهتم بقضايا جمع البيانات وتحليلها (وهو ما لا تهتم به النظرية الثقافية). ونظرًا لهذا الاهتمام بالمسائل المنهجية وبعوامل اجتماعية-ثقافية أكبر فإن تعريف الخطاب يختلف كثيرًا حيث يستقى عناصره من كل من نظرية الخطاب لدى فوكو وتعريفى تحليل الحوار وتحليل الخطاب. وتبين ويذريل وبوتر فى تحليلهما البنى الخطابية للعنصرية أن هذا التزاوج بين وجهتى نظر مختلفتين عن الخطاب - تستلزم إحداهما اهتمامًا بالمناهج العلمية للتحليل، وتطرح الأخرى

(1) Wetherell and Potter, 1992: 89.
(2) Atkinson and Heritage, 1984: 1.

تساؤلات أكبر عن المعنى الاجتماعى-الثقافى - أدى إلى صعوبة بالغة فى إنتاج نهج تحليلى فعال لا يخل بسعيه للحقيقة(١).

ثالث تعريف نتناوله للخطاب فى هذا المقام ذاك الذى قالت به جماعة من اللغويين يستخدمون مصطلح خطاب بصورة تختلف قليلاً عن التعريفين السابقين وعن النظرية الثقافية فى مجملها. وهؤلاء اللغويون يصنفون بصفة عامة بوصفهم محللى "خطاب نقدى"، أى لغويون يحللون النصوص من منظور سياسى. وبما أنهم يقولون إن اللغة أداة محورية فى العملية التى تشكل الناس باعتبارهم أفرادا وذوات اجتماعية، وبما أن اللغة والإيديولوجيا متداخلتان بصورة وثيقة، فإن التحليل النظامى الدقيق للغة النصوص يمكن أن يكشف بعضًا من جوانب النصوص وبصورة أعم الطريقة التى يُقهر بها الناس فى البنى الاجتماعية الراهنة. فهما تدمجان قضايا السلطة والحقيقة والمعرفة بعد البنيوية واهتمام الماركسية بالظلم والقهر فى مناهجها التحليلية اللغوية. وتشمل هذه الجماعة "محللى خطاب نقدى" من أمثال نورمان فيركلو وروث ووداك وتونى تريو وجونثر كريس وجوانا ثورنبورو وروجر فاولر وتيرى ثريدغولد الذين وجدوا أن مصطلح خطاب يفيد فى وصف البنى فوق مستوى الجملة ولكنهم أكثر تأثرًا بأعمال ميشيل فوكو واللغويين الماركسيين والنظرية السياسية من محللى الخطاب(٢). وتعريفهم الخطاب أكثر تأثرًا بتعريف فوكو ولو أنهم أدخلوا تعديلاً جوهريًا على المصطلح، وذلك لاهتمامهم بموقف أكثر قربًا للأرض من فوكو؛ لذا فهم يقدمون نماذج عمل وأمثلة ملموسة على كيفية عمل النصوص على إيجاد تفاوتات فى القوة وكيف أنها أكثر اهتمامًا بآليات أداء العمل الخطابى. ومع أنهم يشاركون بعض باحثى علم النفس الاجتماعى

---

(١) المرجع نفسه؛ Sinclair and Coulthard, 1975; 101; Wetherell and Potter, 1992.

(2) Fowler et al, 1979; Trew, 1979a, 1979b; Hodge and Kress, 1988; Threadgold, 988, 1997; Fairclough, 1989, 1992a, 1992b, 1995; Wodak and Meyer, 2001; Wodak, 1998; Thornborrow, 2002.

ومحللى الحوار هذا الاهتمام فهم يختلفون منهجيًا، حيث إن إطارهم النظرى علم اللغة[١] لا تحليل الخطاب وتحليل الحوار كباحثى علم النفس الاجتماعى. وهم يميلون قليلاً لتبنى نماذج أكثر تعقيدًا للتأويل والمعنى. ونمط التحليل عندهم أقل اهتمامًا فى العادة بتحليل المضمون وأكثر انشغالاً بمسائل تأثير الاختيارات النظامية لبعض أدوات اللغة أو البنى النحوية فى النص.

يهتم هؤلاء المفكرون جميعًا كما بينا فى مستهل هذا الفصل بالتحليل الدقيق للنص المكتوب أو الكلام، وبالتالى فتعريفاتهم للخطاب تختلف عن تعريفات أصحاب النظريات الثقافية والأدبية. ولكن نظرًا للتباين فى الدرجة فى انتماءاتهم النظرية لعلم اللغة والعلوم الاجتماعية والنظرية الأدبية والثقافية فإن تعريفاتهم للخطاب تختلف، وتتباين التحليلات التى ينتجون اختلافًا كبيرًا عن بعضها البعض.

تحليل الخطاب

قد يعد تحليل الخطاب رد فعل لعلم اللغة التقليدى (علم اللغة التركيبى الشكلى) الذى يركز على الوحدات الأساسية وتركيب الجملة ولا يهتم بتحليل اللغة المتداولة[٢]. وتحليل الخطاب وعلى خلاف علم اللغة الشكلى يهتم بتطبيق مفهوم التركيب فوق

---

(١) انظر Christie, 2000; Walsh, 2001.

(٢) ينصب اهتمام علم اللغة الشكلى على بناء الجملة (ترتيب الكلمات) والنحو (التراكيب واحتمالات ربط عناصر اللغة). كما يرى البعض أن علم اللغة يشمل بعض الاهتمام بعلم الدلالة (معانى الألفاظ). وهذا النوع من درس اللغة على مستوى مجرد إلى حد ما ويركز على نظام اللغة فى مجمله لا على تعبيرات أو نصوص بعينها. وقد تعتبر ذلك اهتمامًا بمفهوم دى سوسور عن "النظام اللغوى" (langue) لا بحالات بعينها للغة (parole).

مستوى الجملة، أى أخذ قياس العلاقات النحوية كالفعل-الفاعل-المفعول وتطبيقه على تحليل نص أطول. وبما أن من النادر أن يتواصل المرء مع غيره من خلال جمل فقط فإن محللى الخطاب هؤلاء ينتقدون اتجاه اللغويين لقصر تركيزهم على تركيب الجملة. يقول مايكل هوى:

«يتضمن الحوار تبادلاً بين فردين من الناس أو أكثر قد ينتج كل طرف فيه أكثر من عبارة واحدة ويقوم كل إسهام فيه على الإسهامات السابقة إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ونحن نعرف على الفور إذا تغير موضوع الحوار مثلاً ونعلق عليه بما يوافقه لو بدا أنه قائم على دوافع خفية أو بسبب سوء فهم ما. كذلك فى الكتابة، تندمج الجمل فى وحدات اصطلاحية تسمى فقرات، وتندمج الفقرات فى فصول، والفصول فى كتب. خلاصة القول إن الجملة فى كلامنا وما نكتب فى حياتنا اليومية ليست سوى ترس فى آلة أكبر كثيرًا عادةً»(١).

إذن فهذا الضرب من تحليل الخطاب نشأ عن رغبة لتحليل الوحدات والبنى الأكبر التى يدركها المتكلم والمستمع ضمنًا على مستوى الخطاب لا على مستوى الجملة. هذه البنى الأكبر قد يكون تحليلها أصعب نظرًا لطبيعتها غير التى لم تحلل والتى تؤخذ مأخذ التسليم. أما المحاورات فيمكن اعتبارها مركبة ويمكن تحليلها من حيث الحركات التى يقوم بها المشاركون فيها فى إشارة لبدء موضوع حوار جديد أو لتجديد موضوع حوار سابق؛ هذه الحركات التى تقطّع الكلام إلى كتل وظيفية ويتعرف أطرافه عليه باعتباره مقطّعًا يدل عليها استخدام علامات خطاب من قبيل «حسنٌ»، «ليكن»، «أيًا كان»(٢). وعلامات الخطاب هذه لا تعمل إلا على مستوى الخطاب لتشير إلى نهاية حوار أو بداية موضوع جديد، وليست لها وظيفة على مستوى الجملة. وهكذا فعلامة مثل «أيًا كان» تشير بوضوح لأطراف فى حوار

---

(1) Hoey, 1983: 1.
(2) Schiffrin, 1987.

إلى أنهم بلغوا لحظة انتقالية وأن هناك تغييرًا للموضوع أو استئذانًا بالانصراف على وشك الحدوث. ويصعب القول إن «أيا كان» لها معنى أو وظيفة غير علامة خطاب. هذه الخصائص التنظيمية الأعلى مستوى للحوار والنص، وبناء النص وتقطيعه هي ما له أهمية بالنسبة لمحللي الخطاب.

يفترض محللو خطاب من أمثال جون سينكلير ومالكوم كولتهارد (١٩٧٥) أن هناك ترتيبًا للبنى داخل الخطاب؛ من ثم فكما أن هناك علاقة تراتبية بين الجمل والعبارات (الجمل تتكون من عبارات) فهناك علاقة تراتبية بين التعاملات والحوارات والحركات والأفعال، والأفعال هي الوحدة الأدنى للتحليل. وعندما حلل سينكلير وكولتهارد بنى الخطاب في قاعة الدرس كان همهما «مستوى وظيفة عبارة بعينها في موقف اجتماعي بعينه وفي موضع بعينه في جملة، باعتباره إسهامًا في خطاب»[1]. كانا يعتبران أن مهمتهما فصل مهام عدد محدود من هذه الوحدات الوظيفية ووصفها؛ والتعامل، كالتعامل بين المعلم والتلميذ، يتكون من تبادلات حوارية، وصنفاها بأنها استنباطية وتوجيهية وتعليمية، إلخ. وبذلك فإنهم كانوا يهتمون بما يعمله المشاركون بالألفاظ (القيمة الوظيفية) لا بمعاني الألفاظ أو ما يقال. ويتكون أي حوار، حوار استنباطي مثلاً، من وحدات أصغر أطلقا عليها "حركات"، وصنفا هذه الحركات مستعينين بمصطلحات مثل بدء واستجابة وما إلى ذلك. ولننظر إلى مثال على تحليلهما لتفاعل في درس:

المعلم: هل لك أن تخبرني لم تتناول كل هذا الطعام؟ نعم.

التلميذ: لتجعلني قويًا.

المعلم: لتجعلك قويًا. نعم. لتجعلك قويا. لم تود أن تكون قويًا؟[2]

---

(1) Sinclair and Coulthard, 1975: 13.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٧.

يحلل سينكلير وكولتهارد ذلك بأنه جزء من حوار استنباطى، لأن وظيفته الأولى استنباط المعلومات. والحوار مؤلف من حركات: فالجملة الأولى فى السطر الأول للمعلم حركة بداية؛ ثم يقوم التلميذ بحركة استجابة فى السطر الثانى؛ ثم يقوم المعلم بحركة استرجاعية فى السطر الثالث حيث يردد كلام التلميذ ليؤكد أنه الرد الذى ينتظر. ثم يواصل ليقوم بحركة بداية أخرى تمثل حوارًا جديدًا. وتوصف الحركات بأنها تتكون من أفعال، وهى ليست بالضرورة ذات حدود مشتركة مع الجمل ولكن يمكن القول إنها تتألف من مجموعات ألفاظ فى كلام/نص ولها وظيفة يمكن تمييزها. ففى السطر الأول يقول المعلم «نعم»، وهو لفظ يمكن تصنيفه بأنه فعل تعيين، حيث يختار المعلم تلميذًا لكى يجيب. وفى السطر الثالث نجد لفظ «نعم» نفسه بوظيفة أخرى ويمكن تصنيفه بأنه فعل توكيد حيث إنه كترديد المعلم كلام التلميذ يساعد على التعبير للتلميذ عن أن الإجابة مقبولة[١]. ويقول فيركلو إن هذه من مواطن القوة فى تحليل سينكلير وكولتهارد، حيث إنها «تلفت إلى السمات التنظيمية المنتظمة للحوار وتقدم طرقًا لتوصيفها»[٢].

إلى جانب التركيز على توصيف الوحدات البنيوية فى النص أو الكلام يهتم تحليل الخطاب باللغة المستخدمة؛ فبدلاً من الأمثلة التى اخترعها الباحث اللغوى أو التى عُثر عليها فى الكتب الدراسية يهتم محللو الخطاب باللغة "الحقيقية" التى ترد

---

(١) أثبت تصنيف وحدات الخطاب فعاليته ولكنه إشكالى أيضًا؛ فلا يبدو أن هناك مبررًا لبعض التصنيفات المختارة. وتسمية وحدة خطاب كما سنشير فيما بعد تعنى أنك قررت بالفعل أن للوحدة وظيفة واحدة بعينها – وبالتالى تبنيت موقفًا بعينه من الوحدة. وإذا كان سينكلير وكولتهارد أوجدا فى أعمالهما الأولى عددًا محدودًا للغاية من المصطلحات لتسمية وحدات الخطاب فإن هذه المصطلحات انتشرت بمرور الزمن حتى بات من الصعب تحديد الوظيفة التى كانت لكل وحدة. للاطلاع على أعمال أحدث فى هذا الصدد انظر **Coulthard (1992, 1994); Caldas-Coulthard and Coulthard (1996)**.

(2) Fairclough, 1992b: 15.

بصورة طبيعية، إما كلام مسجل على أشرطة عادةً (كالتفاعل بين معلم وفصل من التلاميذ، أو حوار بين طبيب ومريض) أو نصوص كنشرات التعليمات وكتب الأطفال وافتتاحيات الصحف وما إلى ذلك مما له وظيفة صريحة وبالتالى غير مخترعة لغرض التحليل[1]. ولنأخذ على سبيل المثال هذه النبذة من حوار حلله براون ويول:

س: إذن فأبونا كان يكتب ... كتابًا كبيرًا ... للذاكرة

ص: نعم

س: ليعطيه وكان يكتب فى البداية كان يكتب ... يكتب كل ... لكل سنة من عمره كتب شيئًا ... مخترعًا أو

ص: نعم

س: كتاب كان مكتوبًا أو مقطوعة موسيقية كانت مكتوبة أو لوحة أو ...

---

(١) Coulthard, 1977, 1994; Brown and Yule, 1983 إلى جانب استخدامه من جانب هؤلاء المحللين فى الإشارة إلى أجزاء أكبر من النص تتكون من حركات ومحاورات يستخدم مصطلح خطاب أيضًا لدى بعض اللغويين فى الإشارة إلى نوع بعينه من استخدام اللغة أو وصف مجموعة ما من النصوص ترد فى سياق بعينه من قبيل "الخطاب الصحفى"، "الخطاب الدينى"، "الخطاب التعليمى"، "الخطاب الإعلانى" (Cook, 1992). وهنا يبدو أن سياق إنتاج النص هو ما يحدد الخطاب، ويستخدم المصطلح هنا بشكل تبادلى مع كلمات مثل "النوع الأدبى". ولا ينبغى الخلط بين هذا وتعريف الخطاب عند فوكو والذى لا يقتصر على سياق الإنتاج أو موضوع مجموعة من العبارات، ولا التعريف الذى يستخدمه محللو الخطاب بصورة عامة حيث يؤخذ الخطاب بمعنى امتداد قابل للتحديد لنص نظامى منطوق أو مكتوب.

ص: شيء غريب جدًا نعم

س: أو أيًا كان وفى حياته اختُرِع الهاتف

ص: كان شيئًا رائعًا فعلاً(١).

هذه النبذة تختلف تمامًا عن الأمثلة التى جرى تحليلها فى اللغويات التقليدية؛ فهى نسخ لحوار يعرض البدايات الزائفة ونقاط التردد واللا ترابط فى حوار عفوى. ولا يهتم براون ويول بالمعنى فى تحليلهما، بل يركزان على وظائف مواد بعينها ضمن الخطاب الأكبر. يهمهما التحكم فى الموضوع ويعلقان قائلين «المتحدث ص يتوقف ويحاول أن يلتف فى مجرى الموضوع وينتظر المتحدثة س لتوضح أن ما تقوله له صلة ما بإطار الموضوع الحالى»(٢). وهكذا فعبارات ص (المصنفة بأنها "تصرف داعم" – أى تلك الأصوات التى تصدر عن المرء فى الحوار من قبيل "أممممم"، "آه"، "نعم"، ولكنها لا تقاطع المتحدث) تشير إلى المتحدث بأن يواصل كلامه وأن المستمع يدرك ما يقال. كما تبين للمتحدث س أن المتحدث ص مستعد أن يترك للمتحدث س فرصة تحديد موضوع الحوار عند هذه النقطة ويوضح له مدى صلته بالموضوع العام للحديث. وما أن يستقر الأمر يتمكن المتحدث ص من الإسهام فى الحديث. وهذا النوع من التحليل كتحليل سينكلير وكولتهارد يهتم بوظيفة مواد بعينها فى الحديث الجارى أو النص فى مجمله لا بمعناها أو تفسيرها كل بمعزل عن غيره.

وإلى جانب تحليل المحاورات يتناول محللو الخطاب النصوص المكتوبة أيضًا. فيطبق ديردر بيرتون أنواع الأطر الوصفية التى وضعت لتحليل التفاعلات الحوارية على الحوار المسرحى وابتكر نموذجًا لوصف بعض أشكال الحوار فى

---

(1) Brown and Yule, 1983: 92.

(٢) المرجع نفسه.

المسرحية الحداثية والتى تحوى مخالفات للمعايير المنطقية[1]. كما أوضح كل من مايكل هوى وجيليان براون وجورج يول أن تحليل الخطاب يمكن تطبيقه على النص المكتوب[2]. ويتناول براون ويول كيفية عمل العلاقات المتلاحمة فى الخطاب وكيفية "تلازم" كتل النص معًا. وفى هذا المثال يحللان كيفية بناء المعلومات في وصفه لحساء الدجاج:

«قطعى البصل جيدًا وحمريه فى الزبد ثم ضعيه فى طبق صغير. أضيفى التوابل الأساسية فى كوب ماء ثم أضيفيه للمادة الدهنية فى الطاسة واطه المحتوى لثلاث دقائق مع التقليب. والآن أضيفى الدجاج واخلطى جيدًا واحرصى أن يغطى الماء اللحم واتركيه يغلى لمدة عشرين دقيقة مع تغطية الطاسة»[3].

ما يهم براون ويول هنا الطريقة التى يفهم بها القارئ هذه الفقرة، ما يرجع فى جزء منه لمعرفتهما بالبنى الموجودة عادةً فى النوع الأدبى لوصفات الطهى، وفى جزء منه أيضًا لاستلهام القارئ مجموعة من نماذج تنظيم الخطاب؛ من ثم فالقارئ يعلم أن الكاتب عندما يقول فى الجملة الأولى «حمريه فى الزبد ثم ضعيه فى طبق صغير» فالمشار إليه ضمنًا "البصل"، والبصل الذى يجب وضعه فى الطبق الصغير لا بد أن يكون تحمر فى الزبد. هذه القواعد الخاصة بفهم المفردات التى يشير إليها النص ضمنًا لا تحلل صراحةً فى العادة، لكن لها دورًا أساسيًا فى بنى معلومات الخطاب فى النصوص المكتوبة. وبهذا النوع من تحليل النصوص كما يقول براون ويول:

«لا يتركز اهتمامنا ببساطة فى توصيف شكل التعبير والذى يعد ذا أهمية أولية بالنسبة لنحاة الجملة. بل ينصب اهتمامنا على مراعاة الأشكال فى السياق

---

(1) Burton, 1980.
(2) Brown and Yule, 1983; Hoey, 1983.
(3) Brown and Yule, 1983: 175.

الذى ترد فيه. نريد أن نعرف كيف يتسنى للمتكلمين إذا أعطوا كمًا من المعلومات أن يتعرفوا على تلك المعلومات ويحزموها»[1].

وهكذا فتحليل خطاب النص المكتوب يهدف إلى جعل المعايير والقواعد الضمنية لإنتاج اللغة صريحة، وينصب اهتمامه بصفة خاصة على كيفية تكون الخطاب من مجموعة من الوحدات المتراتبة المركبة.

لتحليل الخطاب أهمية بالغة فى فتح مجالات جديدة للتحليل: بدء تحليل السمات التنظيمية المنتظمة للغة ومحاولة إيجاد منظومة لتدوين هذه الوحدات التنظيمية وتوصيفها. ومع ذلك فقد وجه إليه النقد لعدد من الأسباب، أولها أن تحليل الخطاب وإن كان يتناول اللغة المتداولة فى السياقات اللغوية الحقيقية لا يولى اهتمامًا لكيفية تأثير العلاقات الاجتماعية على إنتاج الكلام أو النصوص المكتوبة وعلى علاقات القوة بين الأطراف المشاركة ولا يهتم بقضايا التأويل أو برأى مَن يأخذ المحلل فيما يتعلق بوظيفة مفردة بعينها ويطلق عليها "غير ملحة". وعن تحليل سينكلير وكولتهارد للتفاعل بين المعلم والتلميذ يقول:

«تتمثل أوجه قصوره فى غياب توجه اجتماعى كامل نحو الخطاب وضعف الاهتمام بالتأويل. وهى أوجه قصور قد ترجع لاختيارهما البيانات؛ إذ يركزان على نمط خطاب تقليدى يتمحور حول المعلم فى قاعة الدرس، وبياناتهم لا تعكس تعدد الأنشطة حاليًا بقاعة الدرس. ما يجعل خطاب قاعة الدرس أكثر تجانسًا مما هو عليه فى الحقيقة، ويؤقلم الأنشطة السائدة. وفى تقديمها بالإشارة إلى أنها "موجودة" لا أنها وضعت فى مكانها من خلال عمليات سجال مع الأنشطة البديلة وأنها "وظفت" بإيديولوجيات بعينها (كآراء الدارسين والتعلم) وأنها تساعد على الحفاظ

---

(١) المرجع نفسه، ص١٧٦.

على علاقات سلطة معينة فى المجتمع. موجز القول إن موقف سينكلير وكولتهارد ينقصه توجه اجتماعى كامل جعله يخفق فى تناول الطريقة التى تصوغ بها علاقات السلطة أنشطة الخطاب، وفى تحديد موقع خطاب قاعة الدرس تاريخيًا فى عمليات النضال والتغيير الاجتماعيين»[1].

ومشكلة التأويل ليست مشكلة تحظى باهتمام تحليل الخطاب أصلاً؛ فالنص كان يعتبر منتجًا بسيطًا يمكن للمحلل أن يأوله. وما أخفق سينكلير وكولتهارد فى إدراكه هو أن تأويلهما وتحليلهما النص كان ينصب على تأويل المتكلم المسيطر فى موقف الخطاب، أى المعلم[2]. وتبين الأعمال الأحدث زمنًا فى مجال تحليل الخطاب وتحليل الخطاب النقدى (وعلى رأسها كتاب فيركلو [١٩٩٢b]) أن العبارات لا تعنى شيئًا واحدًا ببساطة وبالتالى فلا مجال لتأويلها من منظور المتكلم أو المستمع وحده؛ فالعبارات تتناقض فى جوهرها ويؤولها المشاركون فيها وفقًا للافتراضات ونماذج العمل التى ينتجون فى أثناء الحوار[3]. وهو ما يمكن رؤيته بوضوح فى التناقض بين نمط تحليل الخطاب فى لقاءات الأطباء بمرضاهم والذى أجراه ديفيد برازيل (١٩٧٥) ونمط تحليل الخطاب النقدى الذى قام به فيركلو والذى نتناوله فيما بعد فى هذا الفصل. يرى برازيل بإيجاز أن وظيفة بعض العبارات واضحة وأن موقف المحلل فى تخصيص كل تصرف أو حركة من تصنيف بعينه هو موقف حياد علمى، بينما يرى فيركلو أن كلاً من الأطراف المشاركة يرى توظيف العبارات من منظور مكوّن من اهتمامات ومشاغل متباينة - وبالتالى فعلى المحلل أن يحرص ألا يلتبس موقفه التحليلى مع موقف أحد الأطراف المشاركة.

---

(1) Fairclough, 1992b: 15.
(2) Manke, 1997; Thornborrow, 2002.
(3) Mey, 1993; Mills, 2003.

هكذا يوفر تحليل الخطاب كمًا من الأدوات لوصف بنى مفردات اللغة ووظائفها فيما يقال، كما أرغم كثرة من لغويى التيار السائد واللغويين التقليديين على تحويل انتباههم عن الألفاظ كل على حدة إلى الألفاظ فى سياق. كما أن له شأنًا كبيرًا فى علمى النفس والاجتماع باعتباره نهجًا لتحليل تمددات التفاعل لا العبارات المنفصلة. ومنهجيته اتبعها كثير من المحللين فى شتى المجالات، ولكن ربما كانت المنهجية نفسها المعرضة للنقد؛ وهذه الصعوبات المنهجية ستبرز فى تناول الطريقة التى استفاد بها باحثو علم النفس الاجتماعى من تحليل الخطاب.

باحثو علم النفس الاجتماعى وتحليل الحوار

يهتم باحثو علم النفس الاجتماعى كما أشرنا فى مقدمة هذا الفصل بدمج التساؤلات التى تطرحها النظرية بعد البنيوية وبصورة أعم التحليل السسيولوجى فى منهج لغوى دقيق وقابل للتكرار. وهكذا فتعريف الخطاب الذى يستعينون به يقترب إلى حد بعيد مما صاغه فوكو، ولكن نظرًا لأن إطارهم المنهجى مستمد من تحليل الخطاب حيث يستعان بنموذج خطاب مختلف فإن استخدامهم مصطلح خطاب يتذبذب بشكل محرج من أحدهم إلى غيره. ونتناول نوعين من تحليل الخطاب الذى يتبعه باحثو علم النفس الاجتماعى يهدف كل منهما إلى تناول قضايا السلطة والقهر اعتمادًا على نوعية تحليل الخطاب التى فصلنا الحديث عنها فيما سبق، إلى جانب تحليل الحوار الذى نتناوله بإيجاز فيما يلى.

يهتم تحليل الحوار بوصف السمات التنظيمية والبنيوية للتفاعل اعتمادًا على التصنيفات التى يستخدمها المشاركون أنفسهم. ومن الصعب ألا نستورد التصنيفات ووجهات النظر التحليلية للمحللين أنفسهم، وبالتالى فإن أى تفاعل لا يعد متأثرًا بمتغيرات أكبر كالنوع أو العرق أو الطبقة أو علاقات السلطة إلا إذا تكيف

المشاركون صراحةً مع هذه السمات نفسها فيناقشونها صراحةً مثلاً أو يميزون المواضع التى يمكن رؤية هذه المتغيرات فيها وهى تعمل. وهكذا فجنس المشاركين أو عرقهم لا يعد ذا بال إلا إذا أوضح المشاركون أنفسهم أهمية هذه العوامل(١).

فى كتابهما "خارطة لغة العنصرية" تبين مارغريت ويذريل وجوناثان بوتر كيف يمكن لتحليل الخطاب وتحليل الحوار أن يساعدا على درس لغات خطاب كالعنصرية. ويرجع اختيارهما مجال العنصرية إلى أنهما وجدا أن تنظير الخطاب عند فوكو يكاد يبدو تجريديًا ومنبتًا عن حياة الناس الواقعية. ويشبّهان تحليل نظرية الخطاب بتحليل تكتونيات الصفائح فى علم الأرض:

«من الواضح أن طحن مزيج من الصفائح ولغات الخطاب سيكون عنيفًا ويؤدى إلى زلازل وبراكين أو قد تنزلق إحداها تحت الأخرى فى صمت. ولغات الخطاب تصبح مرئية على شكل عناصر علية قوية فى حد ذاتها، والمهم فيها عمل خطاب (مجرد) على خطاب (مجرد) آخر ... وعلى النقيض من ذلك نتطلع لمزيد من التوكيد على الخطاب باعتباره عملية اجتماعية، على سياق الاستخدام وبالتالى على فعل التدليل المنطقى»(٢).

وبدلاً من افتراض أن هناك خطابًا واحدًا للعنصرية وتفنيده على أساس أخلاقى كما فعل عديد من المحللين السياسيين حاولا أن يضعا العناصر المكونة ضمن مجموعة من المقتطفات مأخوذة من أحاديث عنصرية لجماعة من النيوزيلنديين البيض (پاكيها) وأن يحللا الطريقة التى تتناول بها هذه الجماعة العنصرية والتفرقة العنصرية منطقيًا فى لغتهم. ويريان أن للخطاب العنصرى نتائج فى عالم الواقع حيث يؤدى إلى التصنيف والتمييز بين جماعات بعينها

---

(1) Schegloff, 1997.
(2) Margaret Wetherell and Jonathan Potter, Mapping the Language of Racism, 1992: 90.

والإبقاء على النيوزيلنديين البيض فى مواقع القوة. ويهدفان إلى فصل بنى الجدل داخل لغات خطاب العنصرية التى تجعل الماوريين مختلفين وأدنى مكانة من الپاكيها. وفى اللقاء التالى مثلاً يحللان العمل البيانى الذى يدلى بعبارات عنصرية دون أن يبدو عنصريًا:

ويذريل: هل ترى أن نيوزيلنده يمكن أن توصف بصفة عامة بأنها مجتمع عنيف؟ من حيث معدل الجريمة و

جونز: نعم، بها معدل جريمة مرتفع للغاية. نعم أرى ذلك، وإن كان الحال فيها ليس سيئًا كأماكن غيرها، لكن معدل الجريمة فيها فى صعود.

ويذريل: آه. ما السبب فى رأيك، علام تقع المسؤولية فى ذلك، وما العمل فى ذلك (وقفة)

جونز: للإجابة عن ذلك عليك أن تنظرى إلى، نوعية الجرائم لديك، آه، ومن يرتكبها.

ويذريل: نعم، آه

جونز: هناك - كما تعلمين - أفكار بأن أغلبية جرائم الاغتصاب يرتكبها أهل الجزر أو الماوريون وكثيرًا من حوادث السطو على البيوت يرتكبها فى رأيى صبية؛ ومعظم الصبية الذين يتسكعون فى الشوارع من أهل الجزر، وليسوا من الماوريين. من الإجحاف أن نقول الماوريين، فالماوريون كما أعرفهم قوم فى غاية الدعة فعلاً. نعم الماوريون قوم طيبون جدًا. إنهم أهل الجزر، يفدون إلى هنا ولا يستطيعون مواجهة ظروف الحياة[1].

---

(١) المرجع نفسه، ص٩٦.

ما تعتبره ويذريل وبوتر ذا أهمية فى هذه النبذة الجهد الذى يبذله المتكلم للخروج من مأزق هو كيف تعبر عن آراء عنصرية دون أن تبدو عنصريًا. فيقولان إن «المأزق يحل باعتبار الآراء التقديرية جزءًا من الواقع، شيئًا سيئًا يوصف ببساطة، وليست تعبيرًا عن مواقف سلبية شخصية من هذه الفئة»(١). وهكذا فبدلاً من أن يكون المتكلم صريحًا فى مواقفه العنصرية يعزو ارتفاع معدل الجريمة لفئات معينة من الماوريين أو المهاجرين البولينيزيين (أهل الجزر)، ويُطرح الأمر كأنه حقيقة. وينأى بنفسه عن هذا الرأى بصورة ما بقوله إن الماوريين كما يعرفهم «قوم فى غاية الدعة»؛ وهكذا يقدم نفسه باعتباره شخصًا غير متحامل وهو يعبر عن آراء عنصرية. ويتضح الانتباه للخطاب هنا فى الاهتمام بعلاقات السلطة والذى يوضحه تحليل للعنصرية، لكن هذا النوع من التحليل البيانى وتحليل النقاش يعتمد على مناهج تحليل الخطاب وتحليل الحوار ويعدلها، وما يهم ويذريل وبوتر السمات البنيوية المشتركة بين هذا المط فى الكلام والتفاعلات الأخرى.

والموضع الذى يمكن نقد هذا النوع من التحليل فيه هو استعانته بنوع من تحليل الخطاب وتحليل الحوار يركز على قضايا أكبر كالسلطة والعرق والنوع نظرًا لتركيزه على التفاعل نفسه وتوجهات الأطراف المشاركة، فى حين أنه يؤدى إلى تحليل المضمون؛ وهكذا يدون أحد التفاعلات، ثم تفسر أجزاء من الحوار أو النقاش باعتبارها تنتمى لبعض أنواع التجمعات الهيكلية. وهكذا فكثير من تحليل ويذريل وبوتر للعنصرية يتكون من فصل الوظائف والقيم التى تعزى للمصطلحات الأساسية من قبيل "ثقافة" فى لغات الخطاب العنصرية. ولنأخذ هذا المثال الذى يقول أحد أطرافه:

---

(١) المرجع نفسه، ص٩٧.

«أعتقد أن من المهم لهم [الماوريين] أن يلزموا ثقافتهم، لأنى لو حاولت أن أفكر فى الأمر فالنيوزيلندى الأبيض (پاكيها) ليست له ثقافة. وحد علمى أن ليست له ثقافة سوى الرجبى والسباق والجعة، وهذا قدره»(١).

يفسر ويذريل وبوتر ذلك بقولهما: «الماوريون فى هذه المعادلة يصبحون أمناء متاحف. فهذه ميزة التراث وعبئه (المرجع نفسه). وهكذا فالتحليل هنا يسعى لإعادة صوغ عناصر البنية البيانية التى تظهر باستمرار فى أى خطاب والتى يبدو أنها تعرّف ذلك الخطاب. وهو فى جوهره شكل من تحليل معنى مصطلحات أساسية بعينها ضمن العنصرية. وهذا التوجه يشترك مع تحليل الخطاب فى اختزال موقف المتكلم مع موقف المحلل، ما سبق أن تناولناه فى الفصل السابق. وهكذا ففى هذا النقاش عن العنصرية يعد كلام النيوزيلنديين البيض واضحًا فى معناه؛ وآراء الماوريين والمهاجرين البولينيزيين لا أحد يسعى للتعرف عليها وتفسيراتهم لهذا الكلام لا أحد يعيرها التفاتًا.

وهناك اهتمام مماثل بقضايا علاقات السلطة يطالعنا فى مجموعة المقالات التى نشرتها سو ويلكنسون وسيليا كيتسنجر تحت عنوان "الحركة النسوية والخطاب"(٢). تسعى هذه المقالات لاستخدام اهتمامات نظرية الخطاب (التى تقتصر فيها على علاقات السلطة والحقيقة/المعرفة) مع منهجية تحليل الخطاب لأغراض نسوية وتناول قضايا من قبيل التحرش الجنسي والطمث وفقدان الشهية والرغبة الجنسية الغيرية. وفى مقال يحاول تطبيق تحليل بعد بنيوى نسوى للطمث توضح كاثرين ماثيوس لافرينغ كيف انتقلت من تحليل نفسى تقليدى للطمث إلى رؤية خطابية للموضوع فى محاولة منها لبيان الطريقة التى يبنى بها الطمث منطقيًا للفتيات المقبلات على الحيض. وتركز على أن هذه البنى المنطقية تحدد بعد ذلك

---

(١) المرجع نفسه، ص١٢٩.

(2) Sue Wilkinson and Celia Kitzinger, Feminism and Discourse, 1995.

مواقف الذات للمراهقات والمراهقين. وتحلل بعض الأجوبة على سؤال طرحته على بعض فتيات المدارس عن التغيرات النفسية فى المراهقة:

- هن [فتيات المدارس] لا يتحدثن عن الفتيان كثيرًا، بل لا يتحدثن إلا عن الفتيات.

- هذا ليس عدلاً. فهم يسخرون منا. فهذا لا يحدث كثيرًا للفتيان.

- الفتيات يتخذن أشكالاً مضحكة.

- لأن الفتيان ... لا يطرأ عليهم تغير كبير. كل ما هنالك أنهم يكبرون[١].

ومن تحليلها عبارات مماثلة أدلى بها عدد من الفتيات تتمكن من إطلاق بعض الأحكام العامة عن المواقف المنطقية المتاحة لهن ليعبرن عن أنفسهن فيما يتصل بمسألة الطمث: وتعلق قائلة: «تحول الجسد الأنثوى إلى الجسد المنجب والجنسى، وموضع الإعجاب والتقنين ... وتراكيب الجسد الأنثوى والذكورى هذه بما فيها من اختلاف جوهرى تحدد المعرفة التى يكتسبها الأطفال (والكبار) عن الجسد ودورة الطمث»[٢]. وهكذا فالبناء المنطقى للطمث باعتباره فيصلاً بين جسدى الذكر والأنثى له تأثير عميق على النظرة للطمث وعلى نظرة هؤلاء المراهقين لغيرهم من الذكور والإناث.

والتحليلات كتلك التى تتضمنها المقالات التى تتناول الحركة النسوية والخطاب لها أهمية فى مناقشة البناء المنطقى للمعرفة عن المرأة. إلا أنها كما ذكرنا فى تناولنا كتاب ويذريل وبوتر ليست نقدية بما يكفى بالنسبة للتشابه بين تحليل الخطاب وتحليل الحوار ونظرية الخطاب[٣]. ولا يبدأ تناول مشكلات مثل

---

(1) Kathryn Matthews Lovering, 1995: 17.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣-٢٤.

(3) Parker and Burman, 1993.

هذا الدمج بشكل أكمل إلا حين نتحول إلى تحليل الخطاب النقدى كما تثبت المناقشات الحامية المتواصلة حول مزايا تحليل الحوار فى مقابل تحليل الخطاب النقدى[١].

تحليل الخطاب النقدى

نظرًا لهذه الصعوبات فى التحليل وضع محللو الخطاب النقدى صيغة مختلفة تمامًا للتحليل تضع تعريفًا مختلفًا لمصطلح خطاب[٢]. فهذه الجماعة من اللغويين أوجدت تحليلاً سياسيًا للنص، وفى حالة باحثين لغويين مثل نورمان فيركلو دمجوا تعريف الخطاب عند ميشيل فوكو بإطار تنظيمى للتحليل يقوم على تحليل لغوى للنص[٣]. ومن أفضل النماذج الأولى لما كتب فى هذا المجال مجموعة مقالات فاولر وهودج وكريس وتريو بعنوان "اللغة والتحكم"، لا سيما مقال طونى تريو المهم الذى يبين أن الاختيارات اللغوية ضيقة النطاق تسفر عن رسائل خاصة للنص ككل. فهو على سبيل المثال يحلل سلسلة من عناوين صحف جنوب أفريقيا يبدو فيها أن الرسالة الإجمالية للنص تتوقف على اختيارات استخدام المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول. فمنها عنوان صحيفة يقول:

إطلاق النار على المتظاهرين السود من جانب الشرطة

مع بدء اجتماع قادة "حزب المؤتمر الأفريقى"[٤]

(1) Parker and Burman, 1993; Widdowson, 1996; Fairclough, 1996; Schegloff, 1997; Baxter, 2002a; 2002b; 2003.

(٢) للاطلاع انظر Van Dijk, 2001 and Wodak, 2001.

(3) Fairclough, 1989, 1992a, 1992b, 1995; وانظر Fowler et al. 1979; Hodge and Kress, 1988.

(4) The Times, 1975 نقلاً عن Trew, 1979a: 94.

يقول تريو إن اختيار المبنى للمجهول (إطلاق النار على السود من جانب الشرطة) يبرز ما فعله السود على ما فعلته الشرطة. كما أن اختيار تقديم عبارة "المتظاهرين السود" يساعد على التقليل من شأن ما فعلته الشرطة. ويضعها في تناقض مع عبارة مثل "الشرطة تطلق الرصاص على السود" حيث يبدو واضحًا فيها من المسؤول عن الاضطرابات. وبتعديل مصطلح "السود" بكلمة "المتظاهرين" كما يرى تريو يصبح هناك حكم ضمنى فى العنوان يحدد المسؤول عن الاضطرابات. ويركز تريو على ترجيح عناصر كالمبنى للمجهول على المبنى للمعلوم فى النص، فيتجه بذلك نحو تحليل للنص لا يركز على تفاصيل اللغة الفردية، بل على تأثير الاختيارات النحوية على معنى النص ككل. إلا أن هذا الضرب من التحليل يعانى المشكلات النظرية نفسها التى يعانيها تحليل الخطاب؛ كاعتبار النص منتجًا مثلاً أو افتراض أن مفردات اللغة لها معنى واحد يتفق عليه اللغويون جميعًا وما إلى ذلك. ومع ذلك ففى عمل لاحق نجد أن القضايا النظرية التى يستنبطها فوكو تندمج بصورة أكمل فى السياقات التحليلية ضيقة النطاق؛ ويبدأ الخطاب بوصفه مصطلحًا يُستخدم بصورة منتظمة بحيث يمكن وصف مكونات الخطاب. وبعبارة فيركلو يُستخدم الخطاب غالبًا من جانب محللى الخطاب النقدى فى:

«الإشارة للطرق المختلفة لبناء نطاقات معرفية وتطبيق اجتماعى. وهكذا فخطاب "علم الطب" هو حاليًا الخطاب السائد فى تطبيق الرعاية الصحية وإن كان يناقض لغات خطاب كلية "بديلة" شتى (كالعلاج المثلى والوخز بالإبر) ولغات خطاب "شعبية" ... ولغات الخطاب لا تعكس كيانات وعلاقات اجتماعية أو تمثلها وحسب، بل تنشئها وتشكلها أيضًا»[1].

---

(1) Fairclough, 1992b: 3.

من ثم فهؤلاء اللغويون يهتمون بلىّ تحليل الخطاب عند فوكو مع اهتمام سياسى بتأثيرات الخطاب؛ ومن الأمثلة على ذلك الطريقة التى يوضع بها الناس فى أدوار من خلال بنى خطابية، والطريقة التى تستبعد بها معارف بعض الناس أو لا تؤخذ على محمل الجد فى مقابل المعارف المجازة[1]. وبهذه الطريقة يمكن اعتبار أن محللى الخطاب النقدى من أمثال فيركلو يقدمون نماذج عمل وصور تطبيق من مداخلات فوكو النظرية إلى جانب وصف تأثيرات البنى الخطابية على الأفراد. وفى مقابل اللغويين "غير النقديين" فإن تسمية "اللغويين النقديين" لا تصف «البنى الخطابية وحسب، بل تبين أيضًا أن الخطاب تصوغه علاقات قوة وإيديولوجيات، وتوضح ما للخطاب من تأثيرات بناءة على الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية وأنساق المعرفة والعقيدة والتى لا يظهر أى منها لأطراف الخطاب»[2]. وهذا التحول عن مجرد الوصف إلى منظور أكثر تحليلاً ونقدًا هو ما يعد إعادة تأويل مهمة لآراء فوكو من خلال اهتمام قالب علم اللغة بالتحليلات القابلة للتكرار والإثبات[3].

لإيضاح هذا الاستخدام الخاص للخطاب نركز على ما كتبه نورمان فيركلو حيث يقر بفضل كل من فوكو وبيشو عليه فى إيجاد نهجه التحليلى اللغوى بينما ينص صراحةً على أن نهجه ليس مجرد تطبيق لعملهما. ويقول إن نموذجه من تحليل الخطاب النقدى لم ينشأ إلا لبنية نصوص اللغة المنطوقة والمكتوبة، وبالتالى فإن اهتماماته ستختلف حتمًا عن اهتمامات فوكو. أما سبب اعتقاده بأهمية فوكو بالنسبة لعلم اللغة فهو تركيز أعماله على «الدور الرئيس للخطاب فى بناء الذوات

---

(1) Walsh, 2001; Thornborrow, 2002.
(2) Fairclough, 1992b: 12.
(٣) هذا الاهتمام بالسمات النحوية يتضح أيضًا فى تحليل الخطاب النقدى للتعدى، أى «مَن يفعل ماذا لمن» (Burton, 1982; Mills, 1995b).

الاجتماعية»[١]. فعلم اللغة يتجاهل قضايا دور اللغة فى تكوين الذاتية والأنوية، ولهذا فمفهوم فوكو عن الخطاب قد يسمح لهذا النوع من التحليل بالاندماج فى الدرس اللغوى[٢].

يرى فيركلو أن ما كتبه فوكو عن الخطاب يمكن أن يعتمد عليه اللغويون لميزتين أساسيتين:

١. الطبيعة التكوينية للخطاب – فالخطاب يكوّن الاجتماعى بما فى ذلك "المفاعيل والفواعل الاجتماعية"؛ ٢. أولية الخطابية والتناصية – أى فعل خطابى تحدده علاقته بغيره من الأفعال ويعتمد على غيره بصور معقدة[٣].

يقصد بذلك أنه مهتم بأن ما نعتبره الاجتماعى ينشأ من خلال عمليات الخطاب؛ ثانيًا، هو مهتم بالصلات بين بنى الخطاب وما فى داخلها. وما يضيفه فيركلو لأعمال فوكو هو التحليل اللغوى الوثيق والإحالة لنصوص "حقيقية" فى السياق، إلى جانب فكرة أن لغات الخطاب تحيل إلى بعضها البعض وتنشأ فى عملية الإحالة هذه. وهو يجد مشكلة فى افتقار فوكو للإحالة إلى فعل حقيقى للأفراد وافتقاده أيضًا لمخاطبة مزايا الكفاح والتغيير. وسأتناول هذين العنصرين فى أعمال فوكو. أولاً، فكرة أن الخطاب يشكل الاجتماعى والذوات الاجتماعية: يركز على

(١) المرجع نفسه، ص٤٤.

(٢) لأعمال فالنتين فولوسينوف أيضًا فائدة كبيرة فى هذا السياق ولها تأثير بالغ على عديد من أعمال محللى الخطاب النقدى، إذ يبدأ من فرضية أن اللغة ليست تعبيرًا عن النفس، بل إن الاجتماعى يعلن عن نفسه فى الوعى الفردى من خلال أداة اللغة وبذلك فقيم المجتمع وإيديولوجياته والتى تنطوى عليها الاختيارات اللغوية للمعرفة والتى تعتبر بدهية فى الثقافة تصبح هى آراء الفرد ومشاعره والتى يتصور هذا الفرد أنها تخصه (Volosinov, 1973).

(٣) المرجع نفسه، ص٥٥.

البناء الخطابى للعلاقات الاجتماعية و"النفس" فى سياقات بعينها لا سيما فى مجال الطب. ويعطى أمثلة عدة للحوار بين طبيب ومريض حيث يبدو أن الطبيب يتحكم فى منظومة الأدوار (من يتكلم ومدة كلامه وموضوع كلامه ومن يعلق على الكلام ويفسره لاستنباط معناه الكلى). وفى تحليل لنبذة من حوار بين طبيب ومريض يوضح فيركلو أن المريضة تحاول أن تدفع بهمومها فيما يتصل بحالتها الطبية إلى المقدمة، لكن الطبيب يهملها ولا يريد أن يتناول من عناصر حالتها إلا ما يتصل بتشخيصه. فتصف المريضة مثلاً إحساسها بالمغص قائلة:

المريضة: هنا فى الأمام

الطبيب: ومتى تشعرين بذلك؟

المريضة: ااااا ... عندما أتناول شيئاً خطأ

الطبيب: بعد كم من الوقت من تناوله؟

المريضة: ربما ساعة ... ربما أقل

الطبيب: حوالى ساعة؟

المريضة: ربما أقل ... أنا أكذب، فأنا أعاقر الخمر وما كان ينبغى لى أن أفعل

الطبيب: هل معاقرة الخمر تفاقم الألم؟

المريضة: ها ها نعم نعم ... لا سيما الكربنة والكحول

الطبيب: كم تشربين؟

المريضة: لا أدرى ... ما يكفى ليجعلنى أنام الليل ... وهو كثير

الطبيب: كأس أو اثنان فى اليوم؟[1]

---

(١) Mishler نقلاً عن المرجع السابق، ص١٣٩.

فى هذه النبذة من الحوار يراود المرء «شعور بأن الطبيب يحوّل الموضوع ويقيده بما يتفق وأولويات معدة سلفًا ولا يُسمح للمريضة بأن تفسدها»(١). ويهتم فيركلو بأن الطبيب لا يركز إلا على ما يشعر بأنه ذو صلة بالموضوع. وبالتالى فالمريضة تحاول أن تبلغ الطبيب بأن لديها عددًا من المتاعب، مع النوم مثلاً، ويبدو أن الكحول يخفف منها؛ ولا يركز الطبيب إلا على كمية الكحول ويتجاهل المعلومات المتعلقة بمشكلات النوم. وما يجعل هذا النوع من التحليل مختلفًا عن تحليل الخطاب أن فيركلو لا يقل اهتمامًا بالمحاولات الفاشلة للمريضة للتأكيد على حقها فى التعبير عنه بمداخلات الطبيب الناجحة. كما أن فيركلو لا يفترض أنه يعلم ما تقصده المريضة أو دافعها. وعندما تتردد فى بعض مراحل الفحص الطبى (بقولها "آآآآ"، "أمممم") وتبدى ارتباطًا ضعيفًا باختيارها المشروط (أى تبدى درجة منخفضة من الالتزام باحتمال قيمة حقيقة إحدى عباراتها؛ فحين تجيب مثلاً بعبارة «لا أدرى» على سؤال تبادر بالإجابة عليه بعد ذلك) يقول فيركلو معلقًا:

«من الصعب تفكيك عوامل الحقيقة الافتراضية والصلات الاجتماعية فى تعليل المريضة لهذا الاختيار؛ فهل تختار النمط الأقل لعدم ثقتها فى مدى دقته أو لترددها فى ادعاء شيء يشبه المعرفة الطبية فى تفاعل مع خبير طبى مجاز؟ فالحقيقة الافتراضية والصلات الاجتماعية والمعرفة والسلطة تبدو متداخلة فى حالات كهذه»(٢).

هكذا لا يكتفى فيركلو بوصف مكونات التفاعل كما يفعل محللو الحوار، ولا يكتفى بوصف فرض السلطة فى مناخ بعينه كما يفعل بعض محللى الخطاب النقدى؛ بل يهتم بأن هذا الضرب من التفاعل يبين تعقيد علاقات القوة فى المجتمع

---

(١) المرجع السابق، ص١٤١.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٢.

ككل. ولا يقتصر اهتمامه على تحليل الطريقة التى يؤكد بها الطبيب سيطرته، ولكنه بتركيزه على أجوبة المريضة المتضاربة فى أغلبها وعباراتها الاعتراضية يتمكن من رؤية التفاعل أكثر تفتتًا وأقل نظامًا مما يبدو لأول وهلة. فيرى مداخلات المريضة وتكوين الطبيب لغات خطاب مختلفة تتصادم فى هذا اللقاء: صوت الطب التقنى ("منطق تقنى يعالج المرض من ناحية تجمعات الأعراض النفسية خارج السياق") وصوت "عالم حياة" المريضة («منطق "فطرى" يضع المرض فى سياق سائر جوانب حياة المريض»)(١). ويتكون خطاب المنطق التقنى من سلسلة تساؤلات تبدو غير مترابطة لا تركز إلا على بعض جوانب حياة المريض وسلوكياته؛ ويركز خطاب عالم حياة المريضة على المرض الذى يصيب المريضة فى علاقته بسائر جوانب حياة المريضة. ويقارن فيركلو هذا النوع من الحوار الطبى بحوار بين معالج بالعلاج المثلى بمريضه فيتمكن بذلك من وضع الحوار الطبى التقنى جنبًا إلى جنب مع نوع من الخطاب يتحدى أسسه الجوهرية. وهذان النوعان من الخطاب الطبى لا يتعايشان؛ بل هما فى صراع. ويقول: «جوهر الموضوع فى الصراعات بين أنواع الحوار الطبى هى الحدود فى داخل أنساق الخطاب، كالحد الفاصل بين الاستشارة والحوار الطبى والتعبير الخطابى عن العناصر داخل أنساق الخطاب»(٢). وبذلك يتمكن فيركلو من بيان أن العلاقات الاجتماعية ليست فرض نوع ما من الخطاب أو غيره (أى فرض خطاب الطبيب على المريض)، بل ينشأ عن صدام بين أنواع مختلفة من الخطاب على السيادة فى التفاعلات.

تدحض جوانا ثورنبورو (٢٠٠٢) تحليل فيركلو لهذا التفاعل، وهى فى ذلك تهدف مثل جوديث باكستر (٢٠٠٣) إلى التأكيد على الدور الذي يلعبه الطرفان فى انتهاج هذا التفاعل على نحو نظامي. وترجح ثورنبورو المزيد من تركيز تحليل

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٨.

الخطاب على تحليل التفاعل بالدور وتبدل الأدوار ومواقف السلطة التى يتخذها الطرفان ويتباريان فيها بدلاً من تركيز فيركلو على تحليل لغات خطاب العقلانية التقنية وعقلانية الفطرة السليمة التى يعتمدها الطبيب والمريض.

والعنصر الثانى الذى يركز عليه فيركلو - الطبيعة الارتباطية للخطاب - يجرى التعامل معه بصفة خاصة فى تناوله مصطلح "التداخل النصى" لجوليا كريستيفا والذى يمكن تعريفه بصورة عامة فى تداوله الأصلى بأنه ميل النصوص للإحالة لغيرها ولأن تُبنى بتلك الإحالة إلى نصوص أخرى. وهذا المصطلح لا يستخدم بصورة عامة فى المناقشات حول الخطاب، بل يسعى فيركلو هنا إلى التعامل مع مكونات الخطاب لا مع تكوينه المجرد. ويعدل فيركلو تعريف كريستيفا ويضعه فى إطار فوكوى، ويضع هذه الإحالة التناصية فى سياق اجتماعى ويؤكد على أن التداخل النصى أحد الآليات الخطابية التى تحقق التغيير داخل لغات الخطاب. ويربط فيركلو التداخل النصى بالهيمنة، أى الطريقة التى يتآمر بها الأفراد فى طغيانهم:

«يشير مفهوم التداخل النصى إلى خصوبة النصوص، وإلى الطريقة التى تحول بها النصوص النصوص السابقة وتعيد بناء الأعراف القائمة (الأنواع الأدبية ولغات الخطاب) لكى تفرز أعرافًا جديدة. إلا أن هذه الخصوبة ليست متوفرة عمليًا للناس باعتبارها فراغًا بلا حدود للتجديد والتلاعب النصى؛ فهى محدودة ومقيدة اجتماعيًا ومشروطة بعلاقات السلطة. ولا يمكن لنظرية التداخل النصى نفسها أن تعلل هذه القيود الاجتماعية. لذا فهى تحتاج للربط بنظرية علاقات سلطة وكيف تصوغ هذه العلاقات البنى والممارسات الاجتماعية (وتصاغ بها)»[1].

(1) **Fairclough, 1992b: 103.**

موجز القول إن فيركلو يضيف اهتمام فوكو بعلاقات السلطة إلى مفهوم كريستيفا النصي الخالص حتى يتمكن من وصف بعض الآليات التي يكون بها للغات الخطاب تأثير على الأفراد بوصفهم ذوات اجتماعية.

والنقطة التي يختلف فيها فيركلو بصورة واضحة عن محللي الخطاب ومحللي الحوار هي اهتمامه بالازدواجية. فمعنى وحدات الخطاب واضحة لا لبس فيها عند محللي الخطاب من أمثال سينكلير وكولتهارد (١٩٧٥)، ويبدو أن أغلب محللي الحوار يفترضون أن تأويل بعض امتدادات الكلام مشترك بين الطرفين[1]. ويؤكد فيركلو على أن المعنى النصي يكون غير محدد أحيانًا وأن الوحدات داخل الخطاب تخضع لتأويلات شتى. والتداخل النصي عنده مجرد جانب واحد من البناء النصي يؤدي إلى الازدواجية في النص؛ فإذا أدمجت عبارة من نص ما في نص غيره فهي تسبب نوعًا من التفكك: «لو أن سطح نص ما حددته النصوص الأخرى المختلفة التي تتخلل تكوينه فإن عناصر هذا السطح النصي قد لا توضع في علاقة بالشبكة التناصية للنص»[2].

ولننظر في مثال يعطيه فيركلو للطريقة التي يعلن بها التداخل النصي عن نفسه في النصوص والطريقة التي يمكن أن يكون بها هذا محور تحليل يهتم بتأثير بني الخطاب على علاقات السلطة. فهو يأخذ تقريرًا في صحيفة "صن" في سنة ١٩٨٥ عن تجارة المخدرات بعنوان "حشد القوات في معركة المخدرات!":

«طالب أعضاء البرلمان بالأمس بضرورة حشد القوات المسلحة لصد غزو مكثف لتجار المخدرات، وقالوا إن تجار الكوكايين أكبر خطر واجهته بريطانيا في وقت سلم وقد يقضي على أسلوب حياة البلاد. وينظر أعضاء البرلمان والوزراء في إمكانية تكليف القوات البحرية والجوية بتعقب سفن تهريب المخدرات التي

(1) Schegloff, 1997; Antaki, 1998.
(2) Fairclough, 1992b: 105.

تدخل سواحلنا. وفى الثغور لابد من تشديد تنفيذ القانون من جانب الجمارك والشرطة وقوات الأمن ... فى واحد من أقسى تقارير مجلس العموم منذ سنوات حذرت اللجنة التى يرأسها المحامى وعضو البرلمان عن حزب المحافظين سير إدوارد غاردينر من أن "المجتمع الغربى يواجه ما يشبه الحرب من جانب صناعة المخدرات. فالتجار يحققون دخولاً هائلة من استغلال الضعف الإنسانى ..." ومن المتوقع أن تسن الحكومة تشريعات مشددة فى الخريف»[1].

يهتم فيركلو فى تحليله بالعلاقة التناصية بين الوثيقة الأصلية – تقرير لجنة الشؤون الداخلية المكونة من كل الأحزاب – والمقال الصحفى. ويشير إلى أن مقاطع النص التى "تخص" الكاتب الصحفى ديفيد كيمب والمقاطع التى "تخص" رئيس اللجنة محددة بصورة واضحة: فكلمات غاردينر وضعت بين علامات تنصيص مباشرة، وكلمات أعضاء البرلمان وردت بصيغة الكلام غير المباشر تميزها عبارات من قبيل "طالبَ أعضاء البرلمان" و"قالوا إن". ولكن بالإشارة إلى وثيقة اللجنة الأصلية يتمكن فيركلو من بيان أن المقال فى مجمله مزيج من صوت صحيفة "صن" وصوت تقرير اللجنة بحيث يصبح من غير الواضح من المتكلم فى أغلب المواضع. ويأخذ العنوان "حشد القوات فى معركة المخدرات!" مثالاً. فالعنوان نفسه لا يتميز بوجود علامات تنصيص، ولكن نظرًا لاحتوائه على علامة تعجب، وهى من علامات الكلام المباشر فإننا نُدفع للاعتقاد بأن الصحيفة هنا تسوق كلام أحد الناس؛ وبالتالى فثمة تردد جوهرى فيما يتعلق بهوية المتكلم. ويورد فيركلو فقرة من التقرير الأصلى ويقارنه بمقال الصحيفة:

«على الحكومة أن تنظر فى الاستعانة بالبحرية الملكية وسلاح الجو الملكى للقيام بمهام استطلاع جوى وبحرى بالرادار. من ثم فإننا نوصى بتشديد تنفيذ

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق، ص١٠٦.

القانون ضد المهربين من جانب الجمارك الملكية والشرطة وقوات الأمن وربما القوات المسلحة»[١].

يبين فيركلو أن المقال يمسخ التقرير الأصلى بترجمة المفردات وتبديل كلمات مثل "تاجر" بـــ "مهرب"، بل إنه يضع التقرير فى إطار حرب أو معركة مجازية، ما يستتبع الاستعانة بعبارات من قبيل "حشد القوات" و"غزو" و"صد" وغير ذلك. وفى هذا المثال على التناص يرى فيركلو أن هناك غموضًا فيما يتعلق بالمتكلم، ويرى أيضًا أن عبارات تقرير اللجنة تدمج فى كلام الصحيفة بحيث تصبح التوصيات التى يقدمها التقرير هى مطالب الصحيفة بصيغة أوضح. يتتبع فيركلو ميل الصحيفة للعب دور الوسيط بين الكيانات الرسمية والناس، فتترجم هذه الوثائق إلى صيغة تقترب فى رأيها من الاستخدام اللغوى لقرائها المستهدفين. وهى بذلك تحدث:

التأثير الإيديولوجى لنقل كلام السلطة بصيغة مستترة ومموهة. فترجمة لغة الوثائق المكتوبة الرسمية إلى نسخة لغتها شعبية تعد من أمثلة الترجمة العامة للغة الدارجة ... إلى لغة خاصة؛ وهو تحول لغوى يعد فى حد ذاته جزءًا من إعادة صياغة العلاقة بين المجال العام للأحداث السياسية (الاقتصادية، الدينية) والعناصر الاجتماعية، والمجال الخاص أى مجال "عالم الواقع" والتجربة العامة»[٢].

فى هذا النوع من التحليل يتمكن فيركلو من ربط التحليل النصى الدقيق والمفصل بعمليات الخطاب التى تجرى داخل الدائرة الاجتماعية الأكبر والتغيرات الاجتماعية الأكبر التى تؤثر على العلاقة بين النطاقين العام والخاص.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص١١٠.

مع ذلك فإن تحليل الخطاب النقدى تعرض للنقد من جانب محللى الحوار، ومن جانب لغويين غيرهم أيضًا لعيوب نظرية ومنهجية وتحليلية تعتوره[١]. ونموذج العلاقة بين السلطة والنصية الذى يستعان به فى تحليل الخطاب النقدى بسيط للغاية (ولو أن هذا تغير فى أعمال أحدث) حيث يفترض أحيانًا أن الأطراف الأقوياء يسيطرون خطابيًا بطرق مباشرة تمامًا. كما أن متغيرات النوع والعرق والطبقة وإن كانت تعالج بشكل مستمر فى تحليل الخطاب النقدى لم تدرس بدقة ويفترض أن بها قدرًا من الاستقرار والثبات عبر السياقات. كما يفترض بعض محللى الخطاب النقدى وجود علاقة بسيطة بين الشكل اللغوى والوظيفة ويرون على سبيل المثال أن اختيار المبنى للمجهول فى نص ما يؤدى إلى نوع بعينه من المعانى. وإذا كان فيركلو وغيره من محللى الخطاب النقدى سعوا فى أعمال أحدث إلى السماح بالتأويل المركب للنصوص فلم ينشأ بعد أى تحليل ثابت للقارئ ودوائر القراء بتوقعات وتأويلات مختلفة[٢]. من ثم فهناك عديد من التحليلات اللغوية للنصوص لا تشغلها الشواغل السياسية، فى حين أن فيركلو من المحللين القلائل ومعه محللو الخطاب النسوى من أمثال ثورنبورو وباكستر ممن سعوا لإيضاح العلاقة بين تحليل نصى وثيق وبنى خطابية وسياسية أكبر. من ثم فتحليل الخطاب النقدى وإن كان يشكل اشتباكًا مع ما تعنيه فكرة الخطاب وكيف تنم عن إنتاج النص فهو لا يزال بحاجة لتنظير الصلة بين النصوص وسياقاتها بشكل أدق.

النتائج

سعينا فى هذا الفصل للتفرقة بين اللغويين الذين يستخدمون الخطاب بمعنى تحليل بنى نص ممتد، وهو تحليل يركز على التنظيم الأعلى مستوى لهذا النص،

---

(1) Widdowson, 1996; Stubbs, 1997.
(2) Christie, 2000.

وغيرهم ممن استعانوا بأعمال فوكو لإيجاد نمط تحليل متكيف سياسيًا. ويهتم محللو الخطاب بالبنى الداخلية للتفاعلات في سياقها المباشر، ولكنهم لا يكترثون كثيرًا بربط هذه البنى الفردية ببنى اجتماعية أكبر. والاهتمام بالصلة بين التفاعل الفردى والبنية الخطابية والاجتماعية الأكبر يؤدى إلى نمط تحليلى أدق وأكثر تعقيدًا، بل إلى تحليل ينتقد ذاته فى ادعاء "الحقيقة" وعلى وعى بأخطار إضفاء المعنى على النصوص بشكل ساذج. وهذا النوع من دمج القضايا الاجتماعية الأكبر بقضايا تحليلية أضيق نطاقًا هو ما يبشر بإمكانات العمل المستقبلى فى هذا المجال.

تعـريفـات

تحليل أثرى (فوكو): هذا النوع من التحليل فى جوهره تحليل تاريخى لكم كبير من المادة التاريخية؛ إلا أنه يختلف عن التحليل التاريخى المتعارف عليه فى أن هدفه ليس التأويل أو السعى لصياغة معنى أعمق لما يتناول من أحداث. بل هدف التحليل الأثرى الوصف.

وظيفة المؤلف (فوكو): كان المصطلح يشير إلى استخدام المؤلف من جانب النقاد لعمل وحدة قصصية لأعمالهم.

الخطاب الاستعمارى: هى النصوص القصصية وغير القصصية التى نشرها كتّاب إنجليز فى سياق الاستعمار والإمبريالية البريطانية.

تعليق (فوكو): العملية التى تظل الكتب بها منشورة ومتداولة بكتابة النقاد عنها.

اعترافى (فوكو): هى عملية حث الأفراد فى المجتمع المعاصر على الكلام عن الأحداث أو المشاعر التى تقلقهم والتى يشبهها فوكو بالاعتراف الكاثوليكى بالخطايا. ويرى أن هذا الحث يتغلغل فى المجتمع.

منطقة الاتصال (برات): التأثير المتبادل للثقافات المحلية والوافدة كل على غيرها فى المواجهة الاستعمارية.

تحليل الحوار (شيغلوف): هو التحليل المفصل لعمل البنى فى الحوار والمعانى التى يضفيها المتفاعلون على تلك البنى.

تحليل الخطاب النقدى (فيركلو): هو تحليل النصوص والحوار بالاستعانة بعلم اللغة من منظور ملتزم سياسيًا.

المجتمع المنضبط (فوكو): يتكون المجتمع المعاصر من عدد من الآليات الانضباطية التى يخضع بها الأفراد للرقابة سواءً من جانب غيرهم أو ذاتيًا.

الانقطاع (فوكو): بدلاً من افتراض أن أحداث التاريخ تتكشف بشكل متواصل يرى فوكو أن التاريخ يمتاز بسلسلة من الوقفات وردود الفعل العنيفة ضد أحداث الماضي.

تحليل الخطاب (كولتهارد وسينكلير): تحليل القياسي في اللغة لا سيما الحوار فوق مستوى الجملة.

التشكيل الخطابي (فوكو): مجموعة لغات الخطاب التي بينها أوجه تشابه سواءً في المضمون أو الوظيفة.

البنى الخطابية (فوكو): لبنات الخطاب.

البنية الفكرية (فوكو): مجموعة بنى خطابية تفكر الثقافة في نفسها في إطارها وتصوغ أفكارًا جديدة. فهي أقرب للأدوات المستخدمة في التفكير منها لرؤية عن العالم.

الفاصل المعرفي (فوكو): انقطاع تاريخي يحدث حين ينهار نظام معرفي ويبدأ غيره في الحلول محله.

الحاضر العرقي (فابيان): هو الاستعانة بزمن المضارع في سرد حكايات عن سكان بلدان أخرى لا سيما في سياق استعماري، ويتمثل تأثيره في تصويرهم كأنهم لا يتغيرون.

السرد الأكبر: افتراض بإمكانية إنتاج سرد مثالي للمستقبل، بل للماضي أيضًا. ومعظم المفكرين حاليًا ينتقدون الاتجاه لبناء سرديات كبرى، لأن من الواضح أن الأحداث لا تصاغ في رسوم بيانية بسهولة.

هيمنة (غرامسي): جماعات من الناس في مجتمع تتقبل الأمر الواقع حتى إن كان في غير صالحهم.

إيديولوجيا (ألتوسر): عرض للأمور كما هي بما لا يتفق والواقع ولا يعمل في الوقت نفسه لصالح الطبقات أو الفئات أو المؤسسات السائدة في المجتمع.

الاستجواب (ألتوسر): دعوة النصوص للأفراد ليعرفوا أنفسهم باعتبارهم أنواعا بعينها من الأفراد (مستهلكين أو عمالا أو آباء، إلخ).

اختلاق الآخر (سعيد): العملية التى يقدَّم بها سكان البلدان المستعمَرة بطرق سلبية ومهينة وتتسم بالتعميم فى الغالب كأنهم شىء واحد.

المعرض (بنتام/فوكو): البناء التأديبى الذى اعتمد عليه المعماريون فى إنشاء السجون بحيث يتسنى لحارس واحد رؤية النزلاء من موضع محورى لكن النزلاء أنفسهم لا يتمكنون من رؤية غيرهم.

نظرية الخطاب بعد الاستعمارى (سعيد/بابا): ضرب من العمل النظرى يقوم فى الأساس على التحليل النفسى ويحلل الخطاب الاستعمارى.

ما بعد البنيوية: جماعة متباينة من المفكرين كانت تشكك فى الأسس الجوهرية للبنيوية.

الفرضية القمعية (فوكو): رأى يرى أن السلطة وحدها التى تقهر الأفراد أو تمنعهم من عمل ما يريدون؛ وهو موقف انتقده فوكو.

البيان (فوكو): عبارة أو جملة رسمية تصدرها المؤسسات ولها تأثير على الأفراد.

البنيوية: ضرب من التحليل أدى بالمفكرين إلى التركيز بدرجة أقل على المؤلف والمعنى وبدرجة أعلى على البنى التى يعتقد أنها موجودة فى النص.

تابع (سبيفاك): فرد ضعيف نسبيًا فى بلد مستعمَر لا يشكل تحالفًا مع القوى الاستعمارية كما فعل أعضاء التجمع النخبوى.

الفاعل: مصطلح متداول فى التحليل النفسى يشير إلى النفس الفردية.

القراءات الإضافية

The following is a selection of other secondary and introductory volumes which consider many of the same issues as this book.

Brown, G. and Yule, G. (1983) *Discourse Analysis*, Cambridge University Press, Cambridge. (An introduction to discourse analysis which aims to analyse the structure of language above the level of the sentence.)

Carter, R. and Simpson, P. (eds) (1989) *Language, Discourse and Literature: An Introductory Reader in Discourse Stylistics*, Unwin Hyman, London. (Essays which analyse literature drawing on linguistics and discourse analysis, and which attempt to formulate an analysis which can analysis structures in literature above the level of the sentence.)

Chouliaraki, L. and Fairclough, N. (1999) *Discourse in Late Modernity: Rethinking Critical Discourse Analysis*, Edinburgh University Press, Edinburgh. (A challenging engagement with contemporary debates about critical discourse analysis.)

Couzens Hoy, D. (ed.) (1986) *Foucault: A Critical Reader*, Blackwell, Oxford. (A selection of essays engaging with Foucault's work, many of them critical of some of his theoretical work.)

Diamond, I. and Quinby, L. (eds) (1988) *Foucault and Feminism: Reflections of Resistance*, North Eastern University Press, Boston. (A readable selection of essays, all of which try to use Foucault's work for feminist ends but which significantly modify Foucault's basic premises.)

Diamond, J. (1996) *Status and Power in Verbal Interaction: A Study of Discourse in a Close-knit Social Network*, John Benjamins, Amsterdam and Philadelphia. (An analysis which examines the relationship between power and discourse within a particular community from the perspective of discourse analysis informed by Foucault's work.)

Dreyfus, H. and Rabinow, P. (1982) *Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics*, Harvester, Brighton. (Possibly the best introductory book about Foucault's work; written in an accessible style with many quotations from Foucault, this book provides the reader with a structure for Foucault's ideas.)

Fairclough, N. (1992) *Discourse and Social Change*, Polity, London. (A good introduction to Fairclough's ideas and to critical discourse analysis.)

Foucault, Michel [1969] (1972) *The Archaeology of Knowledge*, trans. Sheridan Smith, A.M., Pantheon, New York. (In this particularly dense theoretical text, Foucault maps out the notion of a discursive formation, and describes the way that discourses emerge and are regulated. He describes the constitution of the archive and the statement here and he also describes the archaeological method.)

Foucault, Michel [1976] (1978) *The History of Sexuality, Vol. I: An Introduction*, trans. Hurley, R., Pantheon, New York. (This is by far the most accessible book by Foucault. He writes in a fairly informal way here and discusses sexuality and the way that we think about sexuality and repression giving a range of different examples, such as children's masturbation, homosexuality and women's hysteria. In this book more than any other he lays out his ideas on power relations and the way power functions in society.)

Jaworski, A. and Coupland, N. (eds) (1999) *The Discourse Reader*, Routledge, London. (A very wide-ranging collection of the major essays on discourse and discourse analysis.)

Kendall, G. and Wickham, G. (1999) *Using Foucault's Methods*, Sage, London. (Although this book is written in a very irritating patronising style, the authors succeed in working with Foucault's ideas and showing a student readership what can be done with his ideas.)

Macdonnell, D. (1986) *Theories of Discourse*, Blackwell, Oxford. (Provides an overview of the major theorists who have worked on the term discourse, including Voloshinov, Hindess and Hurst, Foucault and Pecheux.)

Mills, Sara (2003) *Michel Foucault*, Routledge, London. (An introduction to Foucault's theoretical work overall.)

Potter, J. (1996) *Representing Reality: Discourse, Rhetoric and Social Construction*, Sage, London. (A bridging text between discourse analysis and discourse theory which analyses the construction of facts within texts.)

Rabinow, P. (ed.) (1984) *The Foucault Reader*, Penguin, Harmondsworth. (A collection of the more readable essays and extracts of texts by Foucault.)

Schiffrin, D., Tannen, D. and Hamilton, H. (eds) *The Handbook of Discourse Analysis*, Blackwell, Oxford. (A series of essays which

deal with many aspects of discourse analysis; the volumes as a whole aim to provide an overview of current discourse analysis.)

Smith, D. (1990) *Texts, Facts and Femininity: Exploring the Relations of Ruling*, Routledge, London. (A feminist engagement with Foucault's work and an exploration of what the notion of discourse can be used for in feminist work.)

Thornborrow, J. (2002) *Power Talk: Language and Interaction in Institutional Discourse*, Longman, Harlow. (A bridging text which attempts to put Foucault's ideas to work in the analysis of conversation.)

Walsh, C. (2001) *Gender and Discourse: Language and Power in Politics, the Church and Organisations*, Longman, Harlow. (A feminist analysis of the way that people negotiate gender and discourse within an institutional context.)

Wetherell, M. and Potter, J. (1992) *Mapping the Language of Racism: Discourse and the Legitimation of Exploitation*, Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead. (A social psychology exploration of the way that individuals work on the topic of racism in their speech.)

Williams, P. and Chrisman, L. (eds) (1993) *Colonial Discourse and Post-colonial Theory*, Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead. (A collection of essays by most of the major theorists working within the area of post-colonial discourse theory.)

A full bibliography of Foucault's works may be consulted at *www.theory.org.uk* which also contains some useful commentaries and links to sites. The Foucauldian website also contains an extensive bibliography: *www.thefoucauldian.co.uk*. Possibly the best bibliography can be found at *www.nakayama.org/polylogos/philosophers/foucault/index-e.html*.

www.theory.org.uk/foucault (This contains a good introduction to Foucault's ideas, a bibliography and a fair selection of links to other sites devoted to Foucault. Possibly the best internet site on Foucault.)

www.thefoucauldian.co.uk (A good up-to-date bibliography of books by and on Foucault together with a Frequently Asked Questions page for those new to Foucault's work.)

www.nakayama.org/polylogos/philosophers/foucault/index-e.html (Contains a full bibliography of Foucault's works and interviews

compiled by Michael Karskens, together with a number of online papers on Foucault by a variety of scholars.)

www.excite.co.uk/directory/society/philosophers/foucault-info (Contains a well-organised site on Foucault's works and life, with links to other sites of interest; there are quite a few downloadable extracts from texts by Foucault.)

البيبليوجرافيا

Ahmad, A. (1992) *In Theory: Classes, Nations, Literatures*, Verso, London.

Althusser, L. (1984) *Essays on Ideology*, Verso, London.

Antaki, C. (1998) 'Identity ascription in their time and place: "Fagin" and the "terminally dim"', in Antaki, C. and Widdicombe, S. (eds) *Identities in Talk*, Sage, London: 71–86.

Armstrong, N. and Tennenhouse, L. (eds) (1987) *The Ideology of Conduct: Essays in Literature and the History of Sexuality*, Methuen, London.

Ashcroft, B., Griffiths, G. and Tiffin, H. (1989) *The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literatures*, Routledge, London.

Atkinson, J. and Heritage, J. (1984) *Structures of Social Action*, Cambridge University Press, Cambridge.

Austin, J. (1962) *How to Do Things with Words*, Clarendon Press, Oxford.

Baker-Miller, J. (1978) *Towards a New Psychology of Women*, Penguin, Harmondsworth.

Bakshi, P. (1994) 'The politics of desire: E.M. Forster's encounters with India', in Davies, T. and Wood, N. (eds) *A Passage to India: Theory in Practice*, Open University, Buckingham: 23–64.

Baldick, C. (1983) *The Social Mission of English Criticism*, Oxford University Press, Oxford.

Barthes, R. (1986) 'The death of the author', in Barthes, R., *The Rustle of Language*, Blackwell, Oxford: 49–55.

—— (1990) *Fragments: A Lover's Discourse*, trans. Howard, R., Penguin, London (first published 1977).

Bartky, S. (1988) 'Foucault, femininity and the modernization of patriarchal power', in Diamond, I. and Quinby, L. (eds) *Foucault and Feminism: Reflections of Resistance*, North Eastern University Press, Boston: 61–117.

Bate, G. (1992) 'Lessons in life', *Observer*, 15 June.

Baxter, J. (1999) 'Teaching girls to speak out: the female voice in public contexts', *Language and Education*, 13(2): 81–98.

—— (2002a) 'Competing discourses in the classroom: a post-structuralist discourse analysis of girls' and boys' speech in public contexts', *Discourse and Society*, 13(6): 827–842.

—— (2002b) 'A juggling act: a feminist post-structuralist analysis of girls'

and boys' talk in the secondary classroom', *Gender and Education*, 14(1): 5–19.
—— (2003) *Positioning Gender in Discourse: A Feminist Methodology*, Palgrave/Macmillan, London.
Bell, D., Binnie, J., Cream, J. and Valentine, G. (1994) 'All hyped up and no place to go', *Gender, Place and Culture: A Journal of Feminist Geography*, 1(1): 31–34.
Belsey, C. (1980) *Critical Practice*, Methuen, London.
—— (1992) 'Materialist feminist criticism', paper given in the Gillian Skirrow Annual Lecture series, Strathclyde University, Glasgow.
Benveniste, E. (1971) *Problems in General Linguistics*, University of Miami Press, Florida (first published 1966).
Bhabha, H. (1994a) *The Location of Culture*, Routledge, London.
—— (1994b) 'Of mimicry and man: the ambivalence of colonial discourse', in Bhabha, H., *The Location of Culture*, Routledge, London: 85–93.
Bhattacharya, G. (2002) *Sexuality and Society*, Routledge, London.
Brazil, D. (1975) *Discourse Intonation*, Discourse Analysis Monographs I, English Language Research, University of Birmingham, Birmingham.
Brazil, D., Coulthard, M. and Johns, C. (eds) (1980) *Discourse Intonation and Language Teaching*, Longman, Harlow.
Brown, G. and Yule, G. (1983) *Discourse Analysis*, Cambridge University Press, Cambridge.
Brown, P. and Levinson, S. (1978) 'Universals in language usage: politeness phenomena', in Goody, E. (ed.) *Questions and Politeness: Strategies in Social Interaction*, Cambridge University Press, Cambridge: 56–324.
Burton, D. (1980) *Dialogue and Discourse: A Sociolinguistic Approach to Modern Drama Dialogue and Naturally Occurring Conversation*, Routledge & Kegan Paul, London.
—— (1982) 'Through dark glasses, through glass darkly', in Carter, R. (ed.) *Language and Literature*, Allen & Unwin, London: 195–214.
Butler, J. (1990) *Gender Trouble: Feminism and the Subversion of Identity*, Routledge, London.
—— (1997) *Excitable Speech: A Politics of the Performative*, Routledge, London and New York..
Caldas-Coulthard, C. (1995) 'Man in the news: the misrepresentation of women speaking in news-as-narrative-discourse', in Mills, S. (ed.)

Language and Gender Interdisciplinary Perspectives, Longman, Harlow: 226–240.

Caldas-Coulthard, C. and Coulthard, M. (eds) (1996) *Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis*, Routledge, London.

Cameron, D. (ed.) (1990) *The Feminist Critique of Language: A Reader*, Routledge, London.

—— (1994) 'Words, words, words: the power of language', in Dunant, S. (ed.) *The War of the Words: The Political Correctness Debate*, Virago, London: 15–34.

Carrington, D. (ed.) (1949) *The Traveller's Eye*, Pilot Press, London.

Carter, R. and Simpson, P. (eds) (1989) *Language, Discourse and Literature: An Introductory Reader in Discourse Stylistics*, Unwin Hyman, London.

Chakrabarty, D. (1988) 'Conditions for knowledge of working-class conditions: employers, government and the jute workers of Calcutta, 1890–1940', in Guha, R. and Spivak, G. (eds) *Selected Subaltern Studies*, Oxford University Press, Oxford: 179–233.

Chaturvedi, V. ed. (2000) *Mapping Subaltern Studies and the Postcolonial*, Verso, London.

Chouliaraki, L. and Fairclough, N. (1999) *Discourse in Late Modernity: Rethinking Critical Discourse Analysis*, Edinburgh University Press, Edinburgh.

Christie, C. (2000) *Gender and Language: Towards a Feminist Pragmatics*, Edinburgh University Press, Edinburgh.

Clark, S. (ed.) (1999) *Travel Writing and Empire*, Zed Books, London.

Cliff, T. (1984) *Class Struggle and Women's Liberation: 1640 to the Present Day*, Bookmarks, London.

Coates, J. (1989) 'Gossip revisited: language in all-female groups', in Coates, J. and Cameron, D. (eds) *Women in their Speech Communities*, Longman, Harlow.

—— (1996) *Woman Talk*, Blackwell, Oxford.

—— (2003) *Men Talk: Stories in the Making of Masculinities*, Blackwell, Oxford.

Coates, J. and Cameron, D. (eds) (1989) *Women in their Speech Communities*, Longman, Harlow.

Collins Concise English Dictionary (1988) ed. Hanks, P., Collins, Glasgow.

Collins Robert Concise French Dictionary (1990) ed. Atkins, B. *et al.*, Collins, Glasgow.

Cook, G. (1992) *The Discourse of Advertising*, Routledge, London.

Coulthard, M. (1977) *An Introduction to Discourse Analysis*, Longman,

London.
—— (ed.) (1992) *Advances in Spoken Discourse Analysis*, Routledge, London.
—— (ed.) (1994) *Advances in Written Text Analysis*, Routledge, London.
Coulthard, M. and Montgomery, M. (eds) (1981) *Studies in Discourse Analysis*, Routledge & Kegan Paul, London.
Couzens Hoy, D. (ed.) (1986) *Foucault: A Critical Reader*, Blackwell, Oxford.
Crowley, T. (1989) *The Politics of Discourse: The Standard Language Question in British Cultural Debates*, Macmillan, London.
Crystal, D. (1987) *The Cambridge Encyclopaedia of Language*, Cambridge University Press, Cambridge.
Darian-Smith, K., Gunner, L. and Nuttall, S. (eds) (1996) *Text, Theory, Space: Land, Literature and History in South Africa and Australia*, Routledge, London.
David-Neel, A. (1983) *My Journey to Lhasa*, Routledge, London (first published 1927).
Davis, L. (1983) *Factual Fictions: The Origins of the English Novel*, Columbia University Press, New York.
Diamond, I. and Quinby, L. (eds) (1988) *Foucault and Feminism: Reflections of Resistance*, North Eastern University Press, Boston.
Diamond, J. (1996) *Status and Power in Verbal Interaction: A Study of Discourse in a Close-knit Social Network*, John Benjamins, Amsterdam and Philadelphia.
van Dijk, T. (ed.) (1985) *Handbook of Discourse Analysis: Volume 3, Discourse and Dialogue*, Academic Press, London and San Diego.
—— (1987) *Communicating Racism: Ethnic Prejudice in Thought and Talk*, Newbury Park, London.
—— (1991) *Racism and the Press*, Routledge, London.
—— (2001) 'Critical discourse analysis', in Schiffrin, D., Tannen, D. and Hamilton, H. (eds) *The Handbook of Discourse Analysis*, Blackwell, Oxford: 352–371.
Doyle, B. (1982) 'The hidden history of English studies', in Widdowson, P. (ed.) *Re-reading English*, Methuen, London: 17–31.
Dreyfus, H. and Rabinow, P. (1982) *Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics*, Harvester, Brighton.
Dunant, S. (ed.) (1994) *The War of the Words: The Political Correctness Debate*, Virago, London.
Duncan, D. (1999) *The Calendar*, Fourth Estate, London.

Eagleton, T. (1983) *Literary Theory: An Introduction*, Basil Blackwell, Oxford.
—— (1991) *Ideology: An Introduction*, Verso, London.
Eichenbaum, L. and Orbach, S. (1982) *Outside In: Inside Out – Women's Psychology: A Feminist Psychoanalytical Approach*, Pelican, Harmondsworth.
Fabian, J. (1983) *Time and the Other: How Anthropology Makes its Object*, Columbia University Press, New York.
Fairclough, N. (1989) *Language and Power*, Longman, London.
—— (ed.) (1992a) *Critical Language Awareness*, Longman, Harlow.
—— (1992b) *Discourse and Social Change*, Polity, London.
—— (1995) *Media Discourse*, Edward Arnold, London.
—— (1996) 'A reply to Henry Widdowson's "Discourse analysis: a critical view"', *Language and Literature*, 5(1): 49–56.
Feminist Review (2001) Special issue on women and mental health, no. 68.
Flint, K. (1993) *The Woman Reader, 1837–1914*, Clarendon Press, Oxford.
Forster, E.M. (1924) *A Passage to India*, Penguin, Harmondsworth (1979 reprint).
Foster, Shirley and Mills. S. (eds) (2002) *An Anthology of Women's Travel Writing*, Manchester University Press, Manchester.
Foster, Stuart. (2003) 'A critical discourse analysis of police crime prevention campaigns', unpublished MA dissertation, Sheffield Hallam University, Sheffield.
Foucault, M. (1970) *The Order of Discourse: An Archaeology of the Human Sciences*, Tavistock, London.
—— (1972) *The Archaeology of Knowledge*, trans. Sheridan Smith, A.M., Tavistock, London (first published 1969).
—— (1977a) *Language, Counter-memory, Practice: Selected Essays and Interviews*, ed. Bouchard, D.F., trans. Bouchard, D.F. and Sherry, S., Blackwell, Oxford.
—— (1977b) 'The political function of the intellectual', *Radical Philosophy*, 17: 12–14.
—— (1978) *The History of Sexuality An Introduction*, vol. 2, Penguin, Harmondsworth (first published 1972).
—— (1979a) *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*, Vintage/Random House, New York.
—— (1979b) 'Interview with Lucette Finas', in Morris, M. and Patton, P. (eds) *Michel Foucault: Power/Truth/Strategy*, Feral Publications, Sydney: 67–75.

—— (1979c) 'The life of infamous men', in Morris, M. and Patton, P. (eds) *Michel Foucault: Power/Truth/Strategy*, Feral Publications, Sydney: 76–91.

—— (1979d). 'Powers and strategies: interview between Michel Foucault and Revoltes Logiques collective', in Morris, M. and Patton, P. (eds) *Michel Foucault: Power/Truth/Strategy*, Feral Publications, Sydney: 48–58.

—— (1979e) 'Truth and power: an interview with Alessandro Fontano and Pasquale Pasquino', in Morris, M. and Patton, P. (eds) *Michel Foucault: Power/Truth/Strategy*, Feral Publications, Sydney: 29–48.

—— (1980a) *Power/Knowledge: Selected Interviews 1972–77*, ed. Gordon, C., Harvester, Brighton.

—— (1980b) 'What is an author?', in Harari, J.V. (ed.) *Textual Strategies: Perspectives in Post-structuralist Criticism*, Methuen, London.

—— (1981) 'The order of discourse', in Young, R. (ed.) *Untying the Text: A Poststructuralist Reader*, Routledge & Kegan Paul, London.

—— (1985) *The History of Sexuality, The Use of Pleasure*, vol. 2, Penguin, Harmondsworth (first published 1984).

—— (1989) *Madness and Civilization: a History of Insanity in the Age of Reason*, Routledge, London (first published 1961).

Fowler, R. (1981) *Language in the News: Discourse and Ideology in the Press*, Routledge, London.

Fowler, R., Hodge, R., Kress, G. and Trew, T. (1979) *Language and Control*, Routledge & Kegan Paul, London.

Frow, J. (1985) 'Discourse and power', *Economy and Society*, 14(2): 192–214.

Fuss, D. (1990) *Essentially Speaking: Feminism, Nature and Difference*, Routledge, London.

Gilroy, A. (ed.) (2000) *Romantic Geographies: Discourses of Travel 1775–1844*, Manchester University Press, Manchester.

Gilroy, P. (1987) *There Ain't No Black in the Union Jack*, Routledge, London.

Graham, E., Hinds, H., Hobby, E. and Wilcox, H. (eds) (1989) *Her Own Life: Autobiographical Writings by Seventeenth Century Englishwomen*, Routledge, London.

Guha, R. and Spivak, G. (eds) (1988) *Selected Subaltern Studies*, Oxford University Press, New York.

Hacking, I. (1986) 'The archaeology of Foucault', in Couzens Hay, D. (ed.) *Foucault: A Critical Reader*, Blackwell, Oxford: 27–40.

Hanbury-Tenison, R. (ed.) (1993) *The Oxford Book of Exploration*, Oxford University Press, Oxford.
Hardt, M. and Negri, A. (2000) *Empire*, Harvard University Press, Cambridge, Mass. and London.
Hawthorn, J. (1992) *A Concise Glossary of Contemporary Literary Theory*, Edward Arnold, London.
Hennessy, R. (1993) *Materialist Feminism and the Politics of Discourse*, Routledge, London.
Hobby, E. (1988) *Virtue of Necessity: English Women's Writing 1649–1688*, Virago, London.
Hodge, R. and Kress, G. (1988) *Social Semiotics*, Polity, London.
Hoey, M. (1983) *On the Surface of Discourse*, Allen & Unwin, London.
Holmes, J. (1995) *Women, Men and Politeness*, Longman, Harlow.
Hulme, P. (1986) *Colonial Encounters: Europe and the Native Caribbean 1490–1797*, Methuen, London.
Jaworski, A. and Coupland, N. (eds) (1999) *The Discourse Reader*, Routledge, London.
Jones, P. (1996) 'Academic jargon: how to publish it', *The Times*, 25 May: 16.
Kendall, G. and Wickham, G. (1999) *Using Foucault's Methods*, Sage, London.
Laclau, E. and Mouffe, C. (1985) *Hegemony and Socialist Strategy: Towards a Radical Democratic Politics*, trans. Moore, W. and Cammack, P., Verso, London.
Landry, D. and MacLean, G. (1993) *Materialist Feminisms*, Blackwell, Oxford.
Laws, S. (1990) *Issues of Blood: The Politics of Menstruation*, Macmillan, Basingstoke.
Lee, D. (1992) *Competing Discourses: Perspective and Ideology in Language*, Longman, Harlow.
Lewis, R. and Mills, S. (eds) (2003) *Feminist Postcolonial Theory: A Reader*, Edinburgh University Press, Edinburgh.
Longman Dictionary of the English Language (1984) ed. Gay, H. *et al.*, Longman, Harlow.
Lovell, T. (1980) *Pictures of Reality: Aesthetics, Politics and Pleasure*, British Film Institute, London.
Lovering, K. (1995) 'The bleeding body: adolescents talk about menstruation', in Wilkinson, S. and Kitzinger, C. (eds) *Feminism and Discourse*, Sage, London: 10–31.
Low, G. (1996) *White Skin Black Masks: Representation and Colonialism*, Routledge, London.

Macdonnell, D. (1986) *Theories of Discourse*, Blackwell, Oxford.
Macey, D. (1993) *The Lives of Michel Foucault*, Verso, London.
MacKenzie, J. (ed.) (1990) *Imperialism and the Natural World*, Manchester University Press, Manchester.
Macmillan, M. (1988) *Women of the Raj*, Thames and Hudson, London.
Manke, M. (1997) *Classroom Power Relations: Understanding Student Teacher Interaction*, Lawrence Erlbaum Associates, Mahwah, NJ and London.
Matsuda, M., Lawrence, C., Delgado, R. and Grenshaw, K. (eds) (1993) *Words that Wound: Critical Race Theory, Assaultive Speech and the First Amendment*, Westview Press, Boulder/San Francisco.
McClintock, A. (1995) *Imperial Leather: Race, Gender and Sexuality in the Imperial Contest*, Routledge, London.
McEwan, C. (2000) *Gender, Geography and Empire: Victorian Women Travellers in West Africa*, Ashgate, London.
McNay, L. (1992) *Foucault and Feminism*, Polity Press, Oxford.
Mey, J. (1993) *Pragmatics: An Introduction*, Blackwell, Oxford.
Mills, S. (1991) *Discourses of Difference: Women's Travel Writing and Colonialism*, Routledge, London.
—— (1992a) 'Discourse competence: or how to theorise strong women speakers', *Hypatia*, 7(2): 4–17.
—— (1992b) 'Negotiating discourses of femininity', *Journal of Gender Studies*, 1(3): 271–285.
—— (ed.) (1994a) *Gendering the Reader*, Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead.
—— (1994b) 'Knowledge, gender and empire', in Blunt, A. and Rose, G. (eds) *Writing Women and Space: Colonial and Post-colonial Geographies*, Guilford, New York: 29–50.
—— (1994c) 'Representing the unrepresentable: Alice Jardine's *Gynesis* and E.M. Forster's *A Passage to India*', in Davies, T. and Wood, N. (eds) *A Passage to India: Theory in Practice*, Open University Press, Buckingham: 121-143.
—— (1995a) 'Discontinuity and post-colonial discourse', *Ariel: A Review of International English Literature*, 26(3): 73–88.
—— (1995b) *Feminist Stylistics*, Routledge, London.
—— (ed.) (1995c) *Language and Gender: Interdisciplinary Perspectives*, Longman, Harlow.
—— (1996a) 'Colonial domestic space', *Renaissance and Modern Studies* (special issue on gender and space), 39: 46–60.

—— (1996b) 'Gender and colonial space', *Gender, Place and Culture*, 3(2): 125–147.
—— (1996c) 'Post-colonial feminist theory', in Mills, S. and Pearce, L. (eds) *Feminist Readings/Feminists Reading*, Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead: 257–279.
—— (1996d) 'Powerful talk', unpublished discussion paper, Loughborough University.
—— (2003a) *Gender and Politeness*, Cambridge University Press, Cambridge.
—— (2003b) *Michel Foucault*, Routledge, London.
—— (2003c) 'Third wave feminism and the analysis of sexism', *Discourse Analysis On-Line*: www.shu.ac.uk/daol
Mills, S. and Pearce, L. (eds) (1996) *Feminists Reading/Feminist Readings* (2nd revised edition), Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead.
Mills, S. and White, C. (1999) 'Discursive categories and desire', in Harvey, K. and Shalom, C. (eds) *Language and Desire*, Routledge, London.
Moi, T. (ed.) (1986) *The Kristeva Reader*, Blackwell, Oxford.
Morris, J. (1979a) *Heaven's Command: An Imperial Progress*, Penguin, Harmondsworth.
—— (1979b) *Farewell the Trumpets: An Imperial Retreat*, Penguin, Harmondsworth.
—— (1979c) *Pax Britannica: The Climax of an Empire*, Penguin, Harmondsworth.
Morris, M. (1979) 'The pirate's fiancée', in Morris, M. and Patton, P. (eds) *Michel Foucault: Power/Truth/Strategy*, Feral Publications, Sydney: 148–168.
—— (1989) *The Pirate's Fiancée*, Verso, London.
Morris, M. and Patton, P. (eds.) (1979) *Michel Foucault: Power/Truth/Strategy*, Feral Publications, Sydney.
Moss, J. (ed.) (1998) *The Later Foucault*, Sage, London.
Palmer, P. (1989) *Contemporary Women's Fiction*, Harvester, Hemel Hempstead.
Parker, I. and Burman, E. (1993) 'Against discursive imperialism, empiricism and constructionism: thirty-two problems with discourse analysis', in Burman, E. and Parker, I. (eds) *Discourse Analytic Research: Repertoires and Readings of Text in Action*, Routledge, London.
Patton, P. (1979) 'Of power and prisons', in Morris, M. and Patton, P.

(eds) *Michel Foucault, Power/Truth/Strategy*, Feral Publications, Sydney: 109–146.
Pecheux, M. (1982) *Language, Semantics and Ideology*, Macmillan, Basingstoke (first published 1975).
Porter, B. (1968) *Critics of Empire: British Radical Attitudes to Colonialism in Africa, 1895–1914*, Macmillan, London.
Porter, D. (1982) 'Orientalism and its problems', in Barker, F. (ed.) *The Politics of Theory*, Proceedings of the Essex Sociology of Literature Conference, University of Essex, Colchester.
Poster, M. (1984) *Foucault, Marxism and History: Mode of Production vs. Mode of Information*, Polity Press, London.
Potter, J. (1996) *Representing Reality: Discourse, Rhetoric and Social Construction*, Sage, London.
Potter, J. and Wetherell, M. (1987) *Discourse and Social Psychology: Beyond Attitudes and Behaviour*, Sage, London.
Pratt, M. (1985) 'Scratches on the face of the country: or what Mr. Barrows saw in the land of the Bushmen', *Critical Inquiry*, 12(1): 1–143.
—— (1992) *Imperial Eyes: Travel Writing and Transculturation*, Routledge, London.
Rabinow, P. (ed.) (1984) *The Foucault Reader*, Penguin, Harmondsworth.
Richards, T. (1993) *The Imperial Archive: Knowledge and the Fantasy of Empire*, Verso, London.
Said, E. (1978) *Orientalism*, Routledge & Kegan Paul, London.
—— (1993) *Culture and Imperialism*, Chatto & Windus, London.
San Juan, E. (1999) *Beyond Postcolonial Theory*, St. Martin's Press, New York.
Sawicki, J. (1991) *Disciplining Foucault: Feminism, Power and the Body*, Routledge, London and New York.
Sawyer, K. (2002) 'A discourse on discourse: an archaeological history of an intellectual concept', *Cultural Studies*, 16(3): 433–456.
Schegloff, E. (1997) 'Whose text? Whose context?', *Discourse and Society*, 8(2): 165–185.
Schiffrin, D. (1987) *Discourse Markers*, Cambridge University Press, Cambridge.
Searle, J. (1979) *Speech Acts*, Cambridge University Press, Cambridge.
Sharpe, J. (1993) *Allegories of Empire: The Figure of Woman the Colonial Text*, University of Minnesota Press, Minneapolis.
Shaw, S. (2002) 'Language and gender in political debates in the House of Commons', unpublished PhD thesis, Institute of Education, London.

Sheridan, A. (1980) *Michel Foucault: the Will to Truth*, Tavistock, London.
Showalter, E. (1977) *A Literature of their Own: British Women Novelists from Bronte to Lessing*, Princeton University Press, Princeton.
—— (1987) *The Female Malady: Women, Madness and English Culture*, Virago, London.
Shuttle, P. and Redgrove, P. (1978) *The Wise Wound: Menstruation and Every Woman*, Gollancz, London.
Sinclair, J. and Coulthard, M. (1975) *Towards an Analysis of Discourse: The English Used by Pupils and Teachers*, Oxford University Press, Oxford.
Skeggs, B. (1997) *Formations of Class and Gender: Becoming Respectable*, Sage, London.
Smart, B. (1985) *Michel Foucault*, Tavistock, London.
Smith, D. (1990) *Texts, Facts and Femininity: Exploring the Relations of Ruling*, Routledge, London.
Spender, D. (1980) *Man Made Language*, Routledge & Kegan Paul, London.
Spivak, G. (1988) *In Other Worlds: Essays in Cultural Politics*, Routledge, London.
—— (1990) *The Post-colonial Critic: Interviews, Strategies, Dialogues*, ed. Harasym, S., Routledge, London.
—— (1993a) 'Can the subaltern speak?', in Williams, P. and Chrisman, L. (eds) *Colonial Discourse and Post-colonial Theory*, Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead: 66–111.
—— (1993b) *Outside in the Teaching Machine*, Routledge, London.
—— (1995) 'Three women's texts and a critique of imperialism', in Ashcroft, B., Griffiths, G. and Tiffin, H. (eds) *The Post-colonial Studies Reader*, Routledge, London: 269–273.
Steel, F. and Gardiner, G. (1911) *The Complete Indian Housekeeper and Cook*, Heinemann, London (first published 1888).
Stubbs, M. (1983) *Discourse Analysis: The Sociolinguistic Analysis of Natural Language*, Blackwell, Oxford.
—— (1997) 'Whorf's children: critical comments on Critical Discourse Analysis', *British Studies in Applied Linguistics*, 12: 100–116.
Sunderland, J. (ed.) (1994) *Exploring Gender Questions and Implications for English Language Education*, Prentice Hall, Hemel Hempstead.
—— (forthcoming) *Gender and Discourse*.
Tannen, D. (1990) *You Just Don't Understand: Women and Men in Conversation*, William Morrow, New York.

Taylor, C. (1986) 'Foucault on freedom and truth', in Couzens Hoy, D. (ed.) *Foucault: A Critical Reader*, Blackwell, Oxford.
Thornborrow, J. (2002) *Power Talk: Language and Interaction in Institutional Discourse*, Longman, Harlow.
Threadgold, T. (1988) 'Stories of race and gender: an unbounded discourse', in Birch, D. and O'Toole, M. (eds) *Functions of Style*, Pinter, London.
—— (1997) *Feminist Poetics: Poetics, Performance, Histories*, Routledge, London.
Torfing, J. (1999) *New Theories of Discourse: Laclau, Mouffe and Zizek*, Blackwell, Oxford.
Trew, T. (1979a) 'Theory and ideology at work', in Fowler, R. *et al.*, *Language and Control*, Routledge & Kegan Paul, London: 94–116.
—— (1979b) 'What the papers say: linguistic variation and ideological difference', in Fowler, R. *et al.*, *Language and Control*, Routledge & Kegan Paul, London: 117–156.
Vetterling-Braggin, M. (ed.) (1981) *Sexist Language: a Modern Philosophical Analysis*, Littlefield Adams, Totowa, NJ.
Vice, S. (ed.) (1996) *Psychoanalytic Criticism: A Reader*, Polity, London.
Voloshinov, V. (1973) *Marxism and the Philosophy of Language*, trans. Matejka, L. and Titunik, I., Seminar Press, New York (first published 1930).
Walby, S. (1990) *Theorizing Patriarchy*, Blackwell, Oxford.
Walsh, C. (2001) *Gender and Discourse: Language and Power in Politics, the Church and Organisations*, Longman, Harlow.
Walzer M. (1986) 'The politics of Michel Foucault', in Couzens Hoy, D. (ed.) *Foucault: A Critical Reader*, Blackwell, Oxford: 51–68.
Wetherell, M. and Potter, J. (1992) *Mapping the Language of Racism: Discourse and the Legitimation of Exploitation*, Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead.
Whitehead, N. (ed.) (1998) *Walter Ralegh's Discoveries of the Beautiful Empire of Guyana*, Exploring Travel Series, Manchester University Press, Manchester.
Widdowson, H. (1996) 'Reply to Fairclough: discourse and interpretation: conjectures and refutations', *Language and Literature*, 5(1): 57–69.
Wilkinson, S. (1986) *Feminist Social Psychology*, Open University Press Milton Keynes.
Wilkinson, S. and Kitzinger, C. (eds) (1995) *Feminism and Discourse: Psychological Perspectives*, Sage, London.
Williams, P. and Chrisman, L. (eds) (1993) *Colonial Discourse and Post-*

colonial Theory: A Reader, Harvester Wheatsheaf, Hemel Hempstead.

Wodak, R. (1998) *Disorders of Discourse*, Longman, Harlow.

—— (2001) 'What CDA is about – a summary of its history, important concepts and its development', in Wodak, R. and Meyer, M. (eds) *Methods of Critical Discourse Analysis*, Sage, London.

Wodak, R. and Meyer, M. (eds) (2001) *Methods of Critical Discourse Analysis*, Sage, London.

Young, R. (1995) *Colonial Desire: Hybridity, Theory, Culture and Race*, Routledge, London.

Zizek, S. (1997) 'The supposed subjects of ideology', *Critical Quarterly*, 39(2): 39–59.

معجم المصطلحات الواردة فى الكتاب

agency	التأثير
apolitical	لا سياسىّ
Cartesian	ديكارتىّ
causality	السَّبَبِيَّة، العِلِّيَّة
codification	تَقنين
construct	نمط، نموذَج؛ فِكرة
determinant	عامِل مُحَدِّد
disciplinary	مُنضَبِط
discourse	الخِطاب (ج) لُغات الخِطاب
discursive	خِطابىّ
emblematic	رَمزىّ
environmentalism	حركة حماية البيئة
episteme	البنية الفِكريَّة
face value	القيمة الظاهريَّة
feminist theory	النظريَّة النِّسَويَّة
gender	النَّوع

gendered	متمايز جنسانيًا
heterogeneous	مُتغاير، لا متجانس
heterosexuality	الغَيريَّة الجنسيَّة (فى مُقابل الشذوذ)
homeopathy	مُعالَجة مِثليَّة (مُداواة الداء بالداء)
imperialism	النزعة الاستعماريَّة
instantiation	تَدليل، تمثيل، إثبات
institironalized	اصطَبغَ بِطابَعٍ مؤسَّسىّ، نِظامىّ
intertextuality	التداخُل النصىّ
jingoism	الغلوّ فى الوَطنيَّة
literary transaction	التعامُل الأدبىّ
orthodoxies	ثَوابت
othering	اختلاق الآخَر
parameter	مُعامِل مُتغيِّر
pathologising	إضفاء الصِّفة المرَضيَّة
patriarchy	الذكورة
personness	شَخصَنة
public domain	النِّطاق العام
readership	القُرّاء، جُمهور القُرّاء
representation	بَيان
sexed	ذو جِنس

sexism	التحيُّز الجنسيّ
sexualisation	جَنسنة
signification	التعبير
statement	جُملة خبَريَّة، عِبارة
subject	تابِع
subjectivity	الذاتيَّة
syntagmatic	تَركيبيّ
textuality	النصيَّة
transvestite	من يَهوَى تقمُّص دَور الجِنس الآخَر

المؤلفة في سطور:

سارة ميلز

تعمل أستاذ بحوث في مدرسة الدراسات الثقافية التابعة لجامعة شيفيلد هالام. نشرت أعمالاً من النظرية اللغوية والأدبية النسوية والنظرية النسوية بعد الاستعمارية، وهي مؤلفة مجلد "مفكري روتلدج النقديين" عن ميشيل فوكو (٢٠٠٣).

المترجم فى سطور:

د. عبد الوهاب علوب

أستاذ مساعد اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميشيجن (آن آربر) وله عديد من المؤلفات فى تخصصه وعدد وافر من الترجمات عن الإنجليزية والفارسية والطاجيكية. ومن أبرز مؤلفاته "الأدب الفارسى الحديث والمعاصر"؛ و"المسرح الإيرانى"؛ معجم "الواعد" (فارسى-عربى)؛ معجم "الفارس" (عربى-فارسى)؛ و"معجم ألفاظ التراث" (إنجليزى-عربى-إنجليزى). ومن ترجماته عن الإنجليزية "نهاية العالم"؛ و"إنجيل أمريكا"؛ و"ديانة الساميين"؛ و"العمارة الإسلامية فى مصر"؛ و"الإسلام فى البلقان"؛ و"ثقافة العولمة"؛ و"فعل القراءة"؛ و"السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية"؛ و"قصة الثورة الإيرانية"؛ و"أسفار العهد القديم فى التاريخ"؛ و"مصادر دراسة التاريخ الإسلامى"؛ و"الموجة الثالثة: التحول الديمقراطى فى أواخر القرن العشرين"؛ و"القوى العظمى: التغيرات الاقتصادية والصراع العسكرى من ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠"؛ و"نون والقلم"؛ و"تاريخ المغول"؛ وعن الفارسية "أسمار الببغاء"؛ و"تاريخ الجزيرة العربية والإسلام"؛ و"حكايات إيرانية"؛ وعن الطاجيكية "الطاجيك فى مرآة التاريخ" وغير ذلك.

التصحيح اللغوى: محمود فتحى
الإشـــراف الفنى: حســـن كامل